المواجهة بين النبي

وبين المنافقين

رصد قرآني

تأليف

الشيخ عبد الكريم النيري

تحقيق

السيد محمد شعاع فاخر

الجزء الثاني

دار

انوار العلم

شبكة الفكر
alfeker.net

المواجهة بين النبي (ص)

وبين المنافقين (رصد قراني)

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: المواجهة بين النبي (ص) وبين المنافقين(رصد قرآني)

تأليف: .... الشيخ عبد الكريم نيّري

تحقيق: .... السيد محمد شعاع فاخر

سنة الطبع: .... ٢٠١٣ ميلادية

المطبعة: ....

عدد صفحات الكتاب: ٤٦٤صفحة

الإخراج الفني: .... السيد عبدالله الهاشمي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المواجهة بين النبي (ص)

وبين المنافقين(رصد قرآني)

الجزء الثاني

تأليف

الشيخ عبد الكريم نيري

تحقيق

السيد محمد شعاع فاخر

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الرابع عشر

الآيات المختصة بآلافك

من سورة النور من ١١ - ٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

متون الآيات ١١ إلى ٢٦ من سورة النور
المعروفة «بآيات الإفك»، وبيان نبذة قصيرة عنها

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ (٢٥) الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾ (١).

«آيات الإفك» وهي عبارة عن الآيات (١١ إلى ٢٦) من سورة النور نزلت لتبرئة عرض رسول الله(ص) ودفع التهمة عنه ولإثبات عفته وطهارته ولإبطال ما ألصقه العدو بإحدى السيّدات من الاتهام السيّىء. واختلف الفريقان في نزول الآيات، فيمن نزلت.

أما الشيعة فقد قالوا بنزول آيات الإفك في براءة مارية القبطيّة حيث إنّ «المنافقين المحترفين» قذفوها في ولادة إبراهيم(ع) ابن رسول الله(ص) ـ نعوذ بالله ـ وزعموا أنّه ليس من رسول الله(ص) فنزلت الآيات المذكورة في تبرئة ساحتها ودفع التهمة عنها وإثبات طهارة ذيلها. ولكنّ العامة اتفقوا على دلالة الآيات على براءة عائشة بنت أبي بكر وأنها نزلت فيها لتدفع عنها التهمة التي ألصقت بها بعد العودة من غزوة بني المصطلق.

ونبدأ نحن أولاً بالبحث في متون الآيات لنرى إمكان انطباق الآيات على أي جانب من هذين الجانبين؟ ثم نواصل البحث والتحري والتحقيق في روايات الموضوع .

---

(١) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص٣٣٦.

الفصل الثاني

ثلاث قضايا من سياق الآيات الكريمة

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَااكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

يلزمنا للتحقيق في هذه الآية الالتفات إلى قضايا ثلاث:

القضية الأولى: بما أنّ كلام الوحي ذكر الجماعة الذين اتهموا السيدة وسماهم «عصبة» فعلينا الإلمام بمعنى هذه الكلمة ومعرفة وجه إطلاقها.

يقول الراغب في كتاب «المفردات» في معنى «عصبة»: «والعصبة جماعة متعصبة متعاضدة قال تعالى: لتنوء بالعصبة ونحن عصبة أي مجتمعة الكلام متعاضدة»(١).

وبناءً على هذا يكون الذين اخترقوا قدسيّة ناموس النبي وألصقوا به التهم هم عصبة متعاضدة يشدّ بعضها ازر بعض ويأسى بعضها لبعض ومن أجل هدف واحد مشترك بينهم جميعاً أطلقوا التهمة المذكورة وأذاعوها بين الناس.

القضية الثانية: من جهة أخرى أنّ الآية المبحوث فيها لما قيدت كلمة «عصبة» بالجار والمجرور «منكم» ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ

---

(١) مفردات غرير القرآن للراغب الأصفهاني، ص٣٣٦.

﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ علم أنّ هؤلاء في عداد المؤمنين وأن المؤمنين يعتبرونهممنهم«أهل إيمان»وعلى هذا يمكن الجزم بأنَّ القوم الذين أذاعوا التهمة لم يكونوا من المنافقينالعاديين وعلى رأسهم المدعو عبدالله بن سلول، لأنّ هؤلاء ـ المنافقين العاديين ـ معروفون بينالناس بنفاقهم وهم لا يتخفون به وهم أيضاً أعفوا أنفسهم من كل التزام يخص المؤمنين علماً وعملاًولا يمكن حينئذ أن يعتبرهم المسلمون منهم ويعدوهم من أهل الإيمان.

أجل من أجل ذلك أي من أجل بعد الناس عنهم ونفرتهم منهم اضطر المنافقون العاديون أنيقسموا لأهل الإيمان كذباً أنهم منهم وأن الإيمان مستقر في سرائرهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْوَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (١).

إذنْ بعد العلم بكون هؤلاء الأفاكين ليسوا من المنافقين العاديين نعلم بالقطع واليقين أنهم من«المنافقين المحترفين» الذين لم يوضعوا في عداد المؤمنين فحسب بلْ يظهرون أنفسهم بمظهرالمتغاير على الإسلام الحريص على مصلحته ليقيموا لهم موطأ قدم في المجتمع المسلم في الصدرالأول من الإسلام ويعتبروا في المقدمة منه ومن ذوي الشأن والمنزلة فيه. إنهم أولئك المنافقونالذين سقط النقاب عن وجوههم المعروفة وتم الاطلاع على نفسيّاتهم من خلال آيات القرآنالمجيد.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥٦.

أجل، إنّهم في الحقيقة تلك العصبة والفريق ذوو المستوى الفكري الواحد الذين بمستطاعهم من حيث المكانة المرموقة لهم بين الناس من أنْ ينفثوا سمومهم في المجتمع المسلم وأنْ ينفذوا كل مخطط يراد به الإضرار بالمسلمين بينهم بسهولة.

القضية الثالثة: ولما تجلى لنا من قراءة القضيتين السالفتين بإمعان أن الأفاكين هم فريق «المنافقين المحترفين» يتجلى لنا كذلك ما المراد من ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ أنه ذلك الشخص المطاع الذي تعتبر فيهم رئيسهم ومنفذ برامجهم والقيم في تولي خططهم وعلى الجماعة طاعته والانقياد له.

وهذا ما حصلنا عليه من البحث في الآية الأولى من «آيات الإفك» وبعدها في الآيات العشر التالية حيث ينحصر هدف الوحي في بيان خطأ تلكم الجماعة من المؤمنين الذين استولى عليهم الجهل فرضخوا لوساوس الشيطان في حديث الإفك وانساقوا وراء أحابيل المنافقين المحترفين فكانوا يشيعون حديث الإفك بينهم بغباء ويرويه بعضهم لبعض.

وهنا تظهر الآيات جانباً من خبث المنافقين المحترفين وقبح صفاتهم وهم مفجروا الإفك ومختلقوه.

الفصل الثالث

إسقاطات الإفك وإسفاف الترويج

﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾.

وهنا لابدَّ من بيان أمرين:

الأمر الأوَّل: أن التوبيخ والتبكيت[١] والتقريع المتضمّنة في الآيات العشر تختص بالمؤمنين من الرجال والنساء الذين وقعوا بدافع الجهل وعدم الاطلاع نهباً للوساوس الشيطانيّة الموحاة إليهم من قبل الفاعل الأصلي وهم الذين حاكوا التهمة وألبسوها ثياب الوجود بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً.وراح أولئك المؤمنون يرددونها بينهم بجهل وغباء، أما الفاعل الأصلي لهذه التهمة ومفجروها الأول الذين عرفتهم الآية الأولى من «آيات الإفك» وكذلك كشفت حقيقتهم الآيات (٢٣،٢٤،٢٥)وسوف نوفيها حقها في مستقبل البحث إن شاء الله تعالى.

على أنَّ هؤلاء بمعزل عن أولئك المؤمنين.

فإنّ الآيات النازلة فيهم عرّفتهم بالخبث واعتبرتهم ملعونين وأخبرت عنهم بصورة قطعيةبأنهم من أهل النار تماماً بخلاف الآيات العشر السالفة فهي في الوقت الذي قرعتهم ووبّختهم بلطف ودعة متناهيين وألمستهم الشفقة عليهم مع ما صدر عنهم من انصياع لأقوال المغرضين الخبثاء.

والغرض من هذا الموقف اللين الذي أظهرته الآيات العشرة الآنفة الذكر هو أن يتبصّروا بأمورهم فلا يقعوا ثانية لمثل هذهِ المؤامرات الباطلة المعروف وجهها؛ للجميع فريسة سهلة.

---

(١) التبكيت: ضرب بالعصا والسيف ونحوها واستعرناها هنا بمناسبة ضرب الله لهم بآيات.

﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أجل، يتجلى لنا أن الله الرحمن الرحيم كرر في هذه الآيات العشر (آيات ١٢ إلى ٢١) الجملةالشريفة ثلاث مرات ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾وخاطب بها المؤمنين ليعلموا أن الله شملهمبفضله ورحمته، وأعطاهم من عنايته أقصى ما يتفضل به على بشر مثلهم وبهذا يظهر لنا على أتمّوجه وأحسنه أنه سبحانه نشر لهم عنايته التامة ولطفه وأعلمهم بقبول توبتهم وإنابتهم.

الثانية: وهي ضرورية لأخذ النتيجة النهائية بلضرورية جداً هي أن المتهمين من الرجل والمرأة الذين دار الافتراء حولهما كانا من ذوي الإيمانوقد صدقهما الوحي على ذلك.

وبالطبع في الآية (٢٣) من «آيات الإفك» التي سوف نبحثها تباعاً إن شاء الله تعالى تصفالمرأة التي وقعت موقع التهمة بمزيد الإيمان وتعرضها بأنها سيدة عفيفة مؤمنة ولكنها ظلمت بماتجرعته من مرارة الاتهام وما أصابها من نبال المغرضين.

الفصل الرابع

تحقيق آية ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾

ما المراد «ذوو الفضل» الذين عنتهم الآية، وهم طبقة من الأنصار:

﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ألا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾.

إنّ الحقائق التي نضعها نصب أعيننا في هذه الآية هي عبارة عن الأمور التالية:

أولاً: لما كانت لفظة «أولي القربى» متصلة بآية ﴿ **أُوْلُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ** ﴾ فلابدَّ من كون هؤلاء قربى أولي الفضل أنفسهم وهم المخاطبون بقوله: ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة.

[كنّا قد ذكرنا من الفصل الثاني من القسم الحادي عشر في بحث آيات الغنائم توضيحاً حول هذه الصلات اللفظية فمن أراد مزيد الاطلاع فليرجع إلى هناك].

ثانياً: ندرك أن أولي الفضل والسعة المذكورين في الآية المزبورة والذين يدور عليهم محور الإنفاق في هذه القضيّة هم من الأنصار وكذلك يطلب منهم سبحانه التجاوز عن أولي قرباهم والمساكين والمهاجرين لأنّه سبحانه حين يأمرهم بالعفو يذكر

منهم طبقات ثلاثاً وهم مجموع القومالذين يسكنون المدينة وهم «المهاجرون» الذين حلوا المدينة بالهجرة إليها من مكة أو الحبشة وقدأطلق عليهم الوحي صفة واحدة وسمّاهم «الذين أخرجوا من ديارهم» فلم تكن لهم تلكم القدراتالمادية ليمكنهم العيش دونما تفضل من الأنصار أو إعانة لهم.

«المساكين» هم ذوو العوز والحاجة ولم يختصّوا بفئة دون أخرى، فلا هم من المهاجرين ولاهم من قاطني المدينة، نظير أبي هريرة وغيره، وقد انحدروا إلى المدينة من أطرافها وأكنافها رغبةفيما يحصلون عليه من المال وطمعاً في جنيه، والتحفوا الإسلام على هذا النحو فانتشروا في المدينةواختص النبي بعضهم بالصفة من مسجده (١).

وإذا ما تجاوزنا هاتين الطبقتين فإن من بقي من مسلمي المدينة هم من فئة الأنصارالمتفرعين عن السلالتين: الأوس والخزرج، وهؤلاء بعضهم أقرباء بعض.

---

(١) ها نحن قدْ فسَّرنا المساكين بالفقراء الذين لم يكونوا من أهل المدينة بناءً على إطلاق كلمة «المسكين» على من يظله سقف السماء لا الذي يملك بيتاً في المدينة يسكنه أو له لباس وطعام يسدان حاجته وليسَ له أهل وأقرباء يأخذون بيده، وقوم كهؤلاء ينبغي أنَّ لا ينسبوا إلى أهل المدينة بهذا قضي العرف يومئذ؛ لأنَّ فقراء المدينة المنحدرين من إحدى سلالتي الأوس والخزرج مهما بلغوا من الفقر والعوز فلن يصلوا إلى دركة الفقر المدقع ويحيوا بتلك الأجواء الفقيرة المتعبة من ثم حكمنا على المساكين المذكورين بالبؤساء الذين سقفهم السماء وفراشهم الغبراء فلا هم من المهاجرين ولا هم من الأنصار.

وبناءً على هذا فإذا ما صدر أمر إلى «أولي الفضل والسعة» بالعفو والتجاوز عن الهفوات المساكين والمهاجرين والأقرباء يصبح المقصود من الأقرباء بالضرورة هم فئة الأنصار وتخرج النتيجة من كل هذا أن أولي الفضل والسعة أنفسهم هم من فئة الأنصار ليكون القبيلان من الأوس والخزرج أقرباءً لهم.

ثالثاً: ولما كان الأمر بقوله تعالى: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ**﴾ أمراً لأولي الفضل الذين يجمعون «الشوكة» إلى فضلهم، كان من الضروري التفريق بين هاتين الصفتين فيهم وهماكونهم «أصحاب فضل» و «أصحاب سعة وشوكة».

ومن الواضح أن نسبة الفضل إلى ثريٍّ ما هو سخاؤه وبذله وكرمه أما أصحاب السعة والاقتدار من فئة الأنصار فهم الذين بذلوا أموالهم بإخلاص في سبيل تقدم الإسلام ورقيّه، والترويح عن المسلمين ورفع مستوى معيشتهم المادية ولهم عطايا وصلات تخص المهاجرين والمساكين والأقرباء من المسلمين، ولكن وغرت صدورهم من أولئك المفترين وممن استمع إليهم وحاك معهم في هذه التهمة الباطلة وردد الكلمات البذيئة التي يستحى من ذكرها بجهل وغفلة وهم المؤمنون حقاً ولكنهم خدعوا بزبرج القول من أصحاب الفرية ووقعوا تحت طائلة الهيمنة لذلك تألموا منهم واستشعروا الحزن والإيذاء من ثم جاء الوحي ليوصيهم بالاستمرار على ما كانوا عليه من البر والصلة والبذل للمؤمنين المخدوعين والمغرر بهم وينهاهم عن قبض أيديهم عن إيمانهم وإسداء المعروف إليهم ويأمرهم بالعفو والتجاوز عن

تقصيرهم غير المتعمد لكي يعفو الله سبحانه عنهم أيضاً﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾.

والبيت الذي له هذه الخصوصية من بيوت الأنصار الذي اتفق الفريقان على نعته بالبذل والسخاء والعطاء والجود والكرم عرف في مجتمعه بتسنم غارب الكرم وهو الذي وضع تحت يدرسول الله بعد هجرته إلى المدينة جميع إمكانياته المادية والمعنوية.

وكان جاداً في تقدم الإسلام وبذل الراحة والرفاهية والرخاء لعموم المسلمين إنما هو بيت سعد بن عبادة وابنه قيس(١) هذان الرجلان المشهوران بالجود والسخاء طبقاً لما نص عليه التاريخ العامّي، كان لسخائهما الذي تجاوز الحدود المألوفة للسخاء موضع تقدير ورضىً من نفس رسول الله(ص) على أنه كان موضع رد واعتراض من قبل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجرّاح ومن لف لفهم من حزبهم فيكونون عندئذ في الحالة المضادّة لموقف المصطفى(ص) .

رابعاً: يظهر من الآية المبحوث فيها أنّ «أصحاب الفضل والسعة» هم من المؤمنين الواقعيين لأننا نراهم لم تؤثر فيهم الوساوس الشيطانية التي انطلقت من أهل الافتراء ولم يقعوا تحت هيمنتهم ولا انصاعوا لكذبهم وافترائهم ولم يعتريهم سوء الظن طرفة عين أبداً ليس هذا فحسب بل نراهم وقد اعتراهم الألم والدهشة من جهل أولئك

---

(١) لمزيد الإطلاع في الموضوع ينبغي الرجوع إلى المصادر العامية التالية:
مغازي الواقدي: ص٣٥ و ص٢٣٩ و ص٢٣٨ و ص٣٧٢ وص٥٠٠ و ص٥٤٧ و ص٥٩٢ وص٧٧٦ وص١٠٩٥.

المؤمنين وسذاجتهم الذين استجابوا لوساوس شياطين الفرية المذكورة وراحوا يرددونها معهم، حتى بلغ بهم من فعلهم الألم كل مبلغ لذلك اتخذوا قراراً صارماً بقطع الصلة عنهم ووقف إمداداتهم لهم، وجل هذه الصفات حاكية عن صحة إيمانهم وواقعيّته ومحبّتهم الخالصة لأهل بيت النبي(ص).

وبناءً على هذا فإنّ جماعة من هؤلاء أصحاب السعة والاقتدار نظير: أسيد بن حضير ومحمد بن مسلمة وبشير بن سعد بن ثعلبة وغيرهم، وإن عدّوا ممن بذل وسعه في إعانة المسلمين واعتبروا من أصحاب الفضل والسعة ومن فئة الأنصار إلّا أنهم نقضوا مواقفهم الحسنة بانضمامهم إلى المنافقين المحترفين (وهم أصحاب الفرية والقذف) وكانوا أعضاءاً فاعلين في الحزب المعهود فهؤلاء ما كانت الآية﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ** ﴾ لتشملهم.

خامساً: بما أن الآية المزبورة تنهى أصحاب الفضل والسعة عن أن يمسكوا أيديهم في مساعدة «أولي القربى» و «المساكين» و «المهاجرين في سبيل الله» وعليهم العفو عنهم والتجاوز عن تقصيرهم لكي يعفو الله الرحيم الغفور الودود عنهم.

يظهر لنا أن المخدوعين بالإفك والفرية هم الفرق الثلاث مارة الذكر، وهم فريق من المؤمنين الذين خدعوا بتسويلات الأفاكين الشيطانية بجهل وغفلة وأخذوا بترديدها فيما بينهم ولم يكونوا حتّى ضمن أولئك الأفاكين لأننا نرى هنا في هذه الآية أمرهم بالعفو وارداً ومطلوباً تماماً كما كان ذلك في عشر الآيات المتقدمة ويريد الله تعالى

من أولي الفضل والسعة والتجاوز عن تقصير أولئك المؤمنين المغفلين، وفوق هذا كله نلاحظ أنه سبحانه يلفت انتباه ذوي الفضل والسعة إلى أن عفوهم عن هؤلاء الجاهلين سيكون مدعاة إلى عفو الله عنهم ولطف الله بهم.

فتبين من هذا أنّ أولئك الذوات الذين انساقوا وراء الوساوس ووراء خدع الأفاكين هم من المؤمنين الذين استوجب إيمانهم طلب العفو عنهم وإلا فقد كنا أشرنا وأيّدت ما ذكرناه الآيات (٢٣و ٢٤ و ٢٥) أن أصحاب الفرية والإفك هم قوم ملعونون، شملتهم لعنة الله ورسوله وطعن الباري سبحانه فيهم وأخبر عن هلاكهم ووقوعهم في نار جهنم حتماً.

والخصوصية الأخرى التي تزيد النكتة السالفة تثبيتاً هي تقييد كلمة «المهاجرين» بقيد «في سبيل الله» ويفيد هذا القيد الجزم بوقوع هؤلاء المهاجرين تحت ظل رحمة الله سبحانه لأنَّ الوحي دلنا على أن هجرتهم هي هجرة في سبيل الله تعالى، وخالصة لوجهه جلت عظمته. ولما كان هؤلاء المهاجرون ممن تطالهم رحمة الله فهم بالضرورة ليسوا أعضاءً في فئة الإفك والافتراء لأن هذه الفئة نص الوحي على كونها ملعونة وخبيثة ومن أصحاب النار.

كانت هذه نكات مأخوذة من تحقيق قوله تعالى: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ**﴾ وتم لحد الآن تحقيق اثنتي عشرة آية من آيات الإفك والآن نعمد إلى ترجمة الآيات الأربع الباقية وتحقيقها في الفصل القادم إنْ شاء الله.

الفصل الخامس

أهل الإفك .. أهل الافتراء الملعونون بلعائن الله تعالى .. قراءات من سورة النور

﴿إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾.

الآيات الثلاث أعلاه تدلّ على أنّ:

أولاً: السيدة التي وقعت موقع الافتراء والاتهام المعهود هي سيدة مؤمنة مصونة عفيفةبتصديق كلام الوحي لأنّه سماها سيدة عفيفة مؤمنة ظلمها الأفاكون بإطلاق سهام الافتراء عليهاوهي بريئة قطعاً.

وهذا أمر ثبت قبلاً عند استعراض الآيات العشر من الآية ١٢ إلى ٢١ ولكنه هنا أخبر عنخصوص «عفتها» و «إيمانها» و «غفلتها» ليثبت مظلوميتها من هذه الجهات الثلاث.

ثانياً: أن أولئك الذين أطلقوا الافتراء وحاكوا الإفك وتولوا كبره وهم عبارة عن العصبةالمتحدة فكراً وهم المنافقون المحترفون ثبت عنهم بدليل الآيات الثلاث أعلاه أنهم جميعاً ملعونون بلعنة الله تعالى

ومن أهل النار وقد استفدنا هذا الحكم قبلاً من أولى آيات الإفك﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ وربما خرمت هذه القاعدة بما اتفق من اقتران الخبيثة بالطيب المطهر (نظيرامرأة نبي الله نوح وامرأة نبيالله لوط) والعكس صحيح أيضاً من اقتران الطيبة الطاهرة بالرجلالخبيث (نظير امرأة فرعون) مما يدل على أنّ الموضوع ليس عاماً شاملاً لكل الأدوار ولكل البشروليس له جنبة دنيوية بل يختص بما يجري في العالم الأخروي من قران كل جنس بجنسه منالخبيث والطيب والواقع أن الآية أعلاه تؤكد معنى الآية الشريفة التالية:﴿ **وإذا النفوس زوّجت**﴾[١] وهي تدل على ما ذهبنا إليه، لأن الآية أعلاه قد اتصلت بآيات ثلاث مضت ترتبط بعذاب فئةالمنافقين المحترفين يوم القيامة وهذا الاتصال يؤيد المطلب المذكور.

وحينئذٍ تكون الآية الشريفة المذكورة مع أخذ ارتباطها الخاص بالآيات السابقة مفيدةللمعنى التالي: أن السيدة التي استهدفت للافتراء والاتهام تحشر غداً يوم القيامة مع رسول الله(ص) وتتصل بحضرته وإلى هنا ننهي البحث والتحقيق في متون آيات الإفك وسوف نعطي خلاصة فيالفصل القادم لما حزناه من النتائج والثمرات لكي يظهر لنا صحة انطباق الآيات المذكورة علىإحدى الحكايتين عن الإفك.

---

(١) سورة التكوير: الآية ٧.

فهل نزلت الآيات لتبرئة «مارية القبطية» ودرء التهمة التي ألصقها بها المنافقون المحترفونفي ولادة ابنها إبراهيم ابن رسول الله(ص) وزعموا أن إبراهيم من غير رسول الله(والعياذ بالله) كمانصّت على ذلك روايات الشيعة، ونزلت الآيات تثبت عصمتها مما قذفت به وبراءة ساحتها ممارماها به المنافقون.

أو أنها نزلت كما دلت روايات العامة وحصل الاتفاق منهم في تبرئة عائشة بنت أبي بكروأرادت الآيات أن تنفي ما أشاعوه عنها في غزوة بني المصطلق.

الفصل السادس

من المبرءة مارية القبطية أم عائشة؟

ما تم الظفر به من نتائج البحث في متون آيات الإفك هي كالتالي:

أولاً: أن واضعي خطة الافتراء ومصممي حبكتها هم من فريق «المنافقين المحترفين» ولم يكونوا من المنافقين العاديين ولا المؤمنين العاديين كذلك.

ثانياً: أن واضعي خطة الافتراء والاتهام والمروّجين لها هم من ذوي الظاهر الإيماني الحسن ويعتبرون من المؤمنين بل من رؤوسهم وطبقاتهم العليا إلى الحدّ الذي خدع المؤمنون العاديون بظاهرهم ووقعوا تحت تأثير كلامهم.

والنكتتان أعلاه وحدهما يؤكدان إمكان تطبيق آيات الإفك في نزولها لتبرئة مارية القبطية لأن في حديث اتهام عائشة كما يزعم عند عودتها من غزوة بني المصطلق لم يتجاوز الأفاكون طبقاً لجميع الروايات العامة أربعة أشخاص أو خمسة أحدهم من المنافقين العاديين والثلاثة الباقون هم من المؤمنين العاديين وأسماؤهم على الترتيب كالتالي: عبدالله بن أبي سلول، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وحمنة بنت جحش ومن الواضح أن هذا العدد المؤلف من الأربعة أو الخمسة ما كانوا من المنافقين المحترفين.

ولكن في حديث الإفك على مارية تتسع الدائرة ليكون المدبرون الأصليون لهذه الفرية همن المنافقين المحترفين الذين كشف النقاب في هذا الكتاب عن وجوههم وبينّا الكثير من واقعهموتعرفنا على نفسيّاتهم من خلال الآيات التي تم بحثها وتحقيقها.

ثالثاً: كان النبي(ص) على يقين من كذب المفترين وبطلان التهمة في قضيّة مارية القبطية وهوعلى يقين من براءة ساحتها ولم يكن شاكاً فيها أو متردداً في صدق حديثها، ويمكن أن تكون هذهِ الحقيقة شاهد صدق على نزول الآيات في تبرئة مارية القبطية وقابلة للتطبيق على حكايتها، لأنَّ كافة الروايات التي روت نزول الآيات في «إفك عائشة» وزعمت أنها نزلت لبيان براءة ساحتهااتفقت على حصول سوء الظن من رسول الله بها وأن الشك اعتراه في براءتها (وسوف نخضع هذهِ الروايات للبحث والتحقيق مستقبلاً بإذن الله تعالى).

وفي مقابل ذلك أجمعت روايات الفريقين في مسألة إلصاق التهمة والافتراء بمارية القبطيةحين ولادتها لابنها إبراهيم ابن رسول الله(ص) أن النبي كان على يقين تام ببطلان التهمة وكذبالمفترين وأن مارية طاهرة مطهرة مما نسب إليها.

وكيف يكون النبي موضع شك وترديد في مارية وهو يعبر عن ابنه إبراهيم في كل مكانويصرح بصحّة نسبته إليه حتّى أنه بكى عند وفاته ولعن من افترى على أمه.

روى محمد بن سعد الزهري صاحب الطبقات في ترجمة إبراهيم بن النبي عن عائشة أنّهاقالت: «لما ولد إبراهيم جاء به

رسول الله(ص) إليّ فقال: انظري إلى شبهه بي فقلت: ما أرى شبهاً»[(١)].

ألا ترون كيف تصرّ عائشة على انعدام الشبه برسول الله والنبي ثبته لها وتجيبه بجرأة: أنهالاترى في إبراهيم شبهاً به، وقد مرَّعلينا سابقاً في ترجمة مارية القبطية كيف حردت - أي غضبت - عائشة من ولادة إبراهيم وحسدت مارية على ذلك.

أجل عائشة هي واحده من المنافقين المحترفين وكان لها دخل في الافتراء على ماريةالقبطية.

ولم يكن النبي وحده مطلعاً على كذب الافتراء على السيدة مارية بل ألمّ أهل البيت جميعاًببطلان هذا الإفك وكانوا شهود عيان على براءة السيدة وصدقها.

نقل ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة عن أستاذه الشيخ يعقوبالمعاني القول التالي:

وولد لرسول الله إبراهيم من مارية فأظهر علي بذلك سروراً كثيراً وكان يتعصب لمارية ويقومبأمرها عند رسول الله ميلاً على غيرها وجرت لمارية نكبة فبرّأها علي منها وكشف بطلانها أو كشفهالله تعالى على يده وكان ذلك كشفاً محسّناً بالبصر لا يتهيأ

(١) الطبقات الكبرى ج١، ق١ ص٨٨، المؤلف المستدرك ج٤ ص٣٩؛ الآحاد والمثاني ج٥ ص٤٤٨؛ البداية والنهاية ج٥ ص٣٢٦؛ المقريزي إمتاع الاسماع ج ص٣٣٦؛ السيرة النبوية لأبي كثير ج٤ ص٦٠٣/ المترجم.

للمنافقين أن يقولوا فيه...» (١).

لاحظوا جيّداً كيف تثبت تبرئة مارية القبطية من التهمة والافتراء على يد علي بن أبي طالبـوهو مورد تصديق الكبار من أهل العامة.

رابعاً: أن إيمان السيدة التي تعرضت للتهمة والافتراء وبراءتها صدّقها الوحي وعبر عنهاالوحي النازل على رسول الله(ص) بأنها سيدة عفيفة مؤمنة مظلومة استهدفت من قبل الأشقياء.

خامساً: ولما كانت هذه السيدة هدفاً لرمية بلاء الافتراء والاتهام المعلوم ولما كان إيمانهاوعفتها محل تصديق بلغة الوحي فإنها في الآخرة تحشر مع رسول الله(ص) وتلحق به.

وهاتان الحقيقتان يؤكدان صحة تطبيق «آيات الإفك في تبرئة مارية بمّا لا يقبل الشك لأنهوكما مرّ مشروحاً في القسم (١١) و (١٣) من هذا الكتاب أن إيمان عائشة وعفتها لم يكونا غيرمصدّق بهما على لسان الوحي فحسب بل أثبت الوحي في الطرف المقابل كفرها الباطني في الآياتالقرآنية الشريفة وللاطلاع أعد أيها القارىء مجدداً مراجعة القسمين المذكورين ودقق فيمطالعتهما.

سادساً: أن واضعي خطة «حديث الإفك» المعهود هم جهنميون قطعاً بما دلّت عليه آياتالإفك فلا يسقط عنهم عذاب جهنم

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٩ ص١٩٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ المترجم.
وراجع: طبقات ابن سعد ج٨ ص١٥٤ ـ ١٥٥؛ مسند أحمد ج٣ ص٢٨١؛ صحيح مسلم: كتاب التوبة، باب ١١.

حدٌّ يقام عليهم في الدنيا ولا يكفر عنهم سيئاتهم عقوبة تفرض عليهم في المال أو البدن وبناءً على هذا لا يصلح انطباق آيات الإفك إلّا على مارية لأنّ الذين قذفوها وأشاعوا الإفك عنها هم المنافقون المحترفون وهؤلاء قطع الوحي بكونهم من أهل النار بصورة مسلمة، وإلّا فإن في حديث الإفك المنسوب إلى عائشة في زعم الزاعم أربعة أشخاص هم من المؤمنين ولا يصح القطع بدخول هؤلاء النار أجل سوف نطلع على مجرى أفكارهم عندما يتمُّ البحث في آيات الإفك ويظهر لنا جلياً خصوصيّات هؤلاء الأشخاص الأربع.

وعلى أية حال فإن النكات الست أعلاه أظهرت لنا أنّ آيات الإفك إنما نزلت في تبرئة مارية القبطية فحسب ولا ارتباط لها بإفك عائشة المزعوم.

والآن وقد أثبتنا صحة متون آيات الإفك بطريق الرواية الشيعية وأن سبب نزولها مختص بمارية وحدها نعمد فيما يأتي إلى بحث إحداها لينكشف للمطالع شقاء الواضعين لهذا الإفك والمخططين له وضعة المتهمين للسيدة مارية القبطية والمفترين عليها كما يظهر ضمن ذلك شدة مظلوميّة النبي الأطهر(ص) .

«الحسين بن حمدان الحضيني بإسناده عن الرضا(ع) قال لمن بحضرته من شيعته: هل علمتم ما فريت به مارية القبطية وما دعي عليها في ولادتها إبراهيم ابن رسول الله(ص)؟! فقالوا: ياسيّدنا أنت أعلم فخبّرنا، فقال: إن مارية لما أهداها المقوقس إلى جدي رسول الله(ص) فحظي بها من دون أصحابه وكان معها خادم ممسوح يقال له: جريج وحسن إسلامها وإيمانها ثم ملكت مارية رسول الله(ص)

فحسدها بعض أزواجه، فأقبلت عائشة وحفصة تشكيان إلى أبويهما ميل رسول اللهإلى مارية وإيثاره مارية عليهما حتى سوّلت لهما ولأبويهما أنفسهم بأن يقذفوا مارية بأنها حملتبإبراهيم من جريج وهم لا يظنون أن جريجاً خادم! فأقبل أبواهما إلى رسول الله(ص) وهو جالسفي مسجده فجلسا بين يديه فجلسا بين يديه ثم قالا: يا رسول الله إن جريجاً لا يحل لنا ولا يسعناأن نكتمك من أمره وما يظهر من خيانته شيئاً وواقعه بك فقال: ماذا تقولان؟! قالا: يا رسول الله يأتيمن مارية الفاحشة العظمى وأن حملها من جريج وليس هو خادم، فأربد وجه رسول الله(ص)وتلوّن وعرضت له سهوة(١) بعظم ما تلقياه به ثم قال: ويحكما ما تقولان؟! قالا: يا رسول الله إناخلّفنا جريجاً ومارية في مشربتها ـ يعنيان حجرتها ـ وهو يفاكهها ويروم منها ما يروم الرجل منالنساء فابعث إلى جريج فإنك تجده على هذه الحال فانفذ فيه حكم الله. فانثنى النبي إلى علي(ع)ثم قال: يا أبا الحسن قم يا أخي ومعك ذو الفقار حتى تمضي إلى مشربة مارية، فإن صادفتهاوجريجاً كما يصنعان فاخمدهما بسيفك ضرباً فقام علي(ع) واتشح بسيفه وأخذ تحت ثيابه فلماولّى من بين يدي رسول الله(ص) انثنى إليه فقال: يا رسول الله أكون فيما أمرتني كالسكة المحميّةفي العهن، أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟! فقال له النبيّ(ص): فديتك يا علي بل الشاهد يرى ما لايرى الغائب.

فأقبل علي وسيفه في يده حتى تسوّر من فوق مشربة مارية وهي في جوف المشربة جالسةوجريج معها يأدبها بآداب الملوك

---

(١) ألسهوة: السكون واللين.

ويقول لها: عظمي رسول الله(ص) ولبيه وكرّميه ونحو هذا الكلامحتّى التفت جريج إلى علي وسيفه مشهور في يده ففزع جريج إلى نخلة في المشربة فصعد إلى رأسهافنزل علي إلى المشربة وكشف الريح عن أثواب جريج فإذا هو خادم ممسوح، فقال له: انزل، فقال:يا أمير المؤمنين آمناً على نفسي؟ فقال: آمناً على نفسك فنزل جريج فأخذ بيده وجاء به إلى رسولالله(ص) فأوقفه بين يديه فقال له: يا رسول الله إن جريجاً خادم ممسوح.

فولى رسول الله(ص) فقال: حلّ لهما نفسك لعنهما الله يا جريج حتى يتبين كذبهما وخزيهماوجرأتهما على الله وعلى رسوله فكشف أثوابه فإذا هو خادم ممسوح.

فأسقطا بين يدي رسول الله(ص) قالا: يا رسول الله التوبة استغفر لنا فقال رسول الله(ص): لاتاب الله عليكما فما ينفعكما استغفاري ومعكما هذه الجرأة فأنزل الله فيهما:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

نعم، مهما كانت هذه الرواية ثقيلة على الأسماع كما أن في بعض جملها محلاً للقولوالمناقشة، ولكن لما كان البحث القرآني

---

(١) تفسير البرهان ج٣ ص١٢٧/ المؤلف، الهداية الكبرى ص٢٩٧؛ دلائل الإمامة لمحمد بن جرير الطبري الشيعي، ص٢٨٧؛ مدينة المعاجز، ج٧، ص٧٠.

المتقدم يصحح مفادها من حيث المجموع ويطبع بحملهابطابع الصحة والقبول، من ثم كان النقاش في بعض مفرداتها أمراً ليس بذي أهمّية ولا يحول بينقبولها وبين الباحث كما لا يترك أثراً على صحة مجموعها، ولا يحجب الباحث عن استخراج النتائجمنها لأننا حين نمعن النظر في واضعي حديث الإفك على مارية ونعرفهم بسيماهم ويتجلى لنا أنّهمأنفسهم الذين خططوا لاغتيال النبي بالسم كما ورد في سورة التحريم ونعطف ذلك كله على محصّلةالنكات الست التي ظفرنا بها من بحث «آيات الإفك» نرى ذلك كله ينطبق تمام الانطباق علىحديث الإفك المذكور.

عند ذلك لا يكون ثقل الحديث على الأسماء مبطلاً له ولا تصور النقاش في بعض جملاته.

وكذلك لا يؤثر ضعف السند على صحة حديث المجموع من حيث المجموع.

وهذا منهج صحيح ومعمول به في «بحث متون الحديث» حين تثبت الآيات على أنها الأصلوالمرجع ويكون كلام الوحي هو الميزان بالقسط الذي نعرض عليه النتائج المستفادة من البحثشريطة اعتباره أكثر الإسناد أصالة فإنه يضبطها لنا ضبطاً متقناً وحينئذٍ ليس للقوة ولا للضعف فيهذا المنهج دخل في الموضوع وبالطبع لم يكن حديث الإفك مقصوراً على هؤلاء الأربعة ولم تقتصرالتهمة عليهم بل عندما نستنطق آيات الإفك ونحلل لحنها الخاص بأفهامنا ونضم إلى ذلك العلاقة الحميمة بين هؤلاء وبين فريق المنافقين المحترفين،

واتحادهما في الفكر والرؤية في تمام الأعمال واستناد أحدهما إلى الآخر في جريان الريح لغير صالحهما نقطع يقيناً باشتراك أفراد الفريق كله مع أبي بكر وعمر وابنتيهما وتعاونهم على إفشاء هذه الفرية بعد حياكتها.

كما أن ملاحظة متن رواية الحسين بن حمران يظهر لنا ضمنياً وبجلاء أنّ الأفاكين وأصحاب الافتراء الأصليين استطاعوا بذكاء غريب يفوق حد المعقول تمرير الافتراء على شكل نصيحة يقدّمونها للنبي(ص) لكي لا يتعرضوا للاتهام أو سوء الظن عندما ينكشف الأمر على خلاف ما أخبروا به ولذلك نرى النبي بعد كشف الواقعة وثبوت بطلانها لم يتخذ في حقهم الإجراء اللازم في الشرع حيث لم يجر عليهم حد القذف(١).

أجل هذا النوع من الذكاء من خصوصيات فئة المنافقين المحترفين البارزة بل هو أشد اختصاصاً بالرأسين منهم وينبغي التماس ذلك في رواجهما بين المسلمين في الصدر الأوّل من تاريخ الإسلام وتغلغلهما في المجتمع الإسلامي.

إلى هنا بلغنا الغاية من البحث والتحقيق في «آيات الإفك» وفي الفصل القادم سوف نعمد إلى دراسة الروايات العامية في هذا

---

(١) أقول أنا المحقق: لعلَّ درء الحدّ عنهم يرجع إلى كونهم لمْ يقذفوا السيدة بالفاحشة التي توجب الحدّ وإنّما قذفوها بمقدماتها من الملاعبة والمفاكهة وما شاكلهما ولم يبلغوا بالافتراء الموضع الذي يتحقق به طلب الشهود أو إجراء الحدّ وأنَّ النبي' درأ الحد عنهم بالشبهة «ادرأوا الحدود بالشبهات» والحديث رواه جمع من الحفاظ الشيعة وأهل السنة.

الموضوع إن شاء الله تعالى.

الفصل السابع

في نقد الروايات العامية وتقييمها وإخضاعها للبحث في موضوع " آيات الإفك "

تفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطي هو من أكثر الكتب العامية جمعاً للروايات الخاصةبـ «آيات الإفك» ضبط الكتاب المذكور في المجلد الخامس منه الروايات المعهودة من ص ٢٤ إلى ص ٣٨ .

ونحن الآن نبدأ بأكثرها تفصيلاً وأعظمها وقعاً من سائر الروايات ثم نثني بنقد بقيّتهاوتمحيصه وبحثه:

«أخرج عبد الرزاق وأحمد والبخاري وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابنأبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت: كان رسول الله(ص) إذا أراد أن يخرجإلى سفر أقرع بين أزواجه فأيّتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله(ص) معه قالت عائشة فأقرع بينناقي غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله(ص) بعدما نزل الحجاب وأنا أحمل فيهودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله(ص) من غزوته تلك وقفل فدنونا من

المدينةقافلين آذن ليلة بالرحيل «فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيتشأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه.وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهميحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنّ اللحم إنما تأكل المرأة العلقة من الطعام فلميستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدتعقدي بعدما استمرّ الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي كنت بهفظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوانبن المعطّل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائمفأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمّرتوجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة واحدة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ علىراحلته، فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرينفي نحر الظهرية فهلك فيّ من هلك وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي سلول.

فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعربشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله(ص) اللطف الذي كنت أرى منهحين أشتكي إنما يدخل عليّ فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذاك

الذي يريبني ولا أشعربالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصح وهي متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح فأقبل أنا وأم مسطح قبل بيتي قد أشرعنا من ثيابنا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها بئس ما قلت،أتسبين رجلاً شهد بدراً؟! فقالت أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله فسلم ثم قال: كيف تيكم فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، قالت فأذن لي رسول الله(ص)فجئت لأبويّ فقلت لأمي يا أمّتاه ما يتحدث الناس؟ قالت يا بنيّ هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلّا اكثرن عليها، فقلت سبحان الله فلقد تحدث الناس بهذا؟فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله فأما أسامة فأشار على رسول الله(ص) بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم إلّا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله(ص) بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت شيئاً يريبك؟ قالت بريرة لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنها جارية

حديثةالسن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله(ص) فاستعذر يومئذٍ من عبد الله بنأبي فقال: وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلامعي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول ا لله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربتعنقه وإن كان من إخواننا من بني الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرجوكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة فقال لسعد: كذبت لعمر الله ما تقتله ولا تقدر علىقتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لتقتلنه فإنك منافق تجادلعن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله(ص) قائم على المنبر،فلم يزل رسول الله(ص) يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

فبكيت يومي ذلك فلا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتينويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي فبينما هما جالسان عنديوأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله(ص) ثم جلس ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلهاوقد لبث شهراً لا يرقى إليه في شأني بشيء.

فتشهد حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنّه بلغني عنك كذا

وكذا فإن كنت بريئةفسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فلما قضى رسول الله(ص) مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي أجب عني رسول الله قال: والله ما أقول لرسول الله فقلت لأمي أجيبي عني رسول الله قالت: والله ما أدري ماأقول لرسول الله(ص)، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدّقني والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلّا قول أبي يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

ثم تحوّلت فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببرائتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ولكن أرجو أن يرى رسول الله رؤياً يبرئني الله منها.

قالت فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه لتتحدّر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه، فلما سرّي عن رسول الله(ص) سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك فقالت أمي قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلّا الله الذي أنزل براءتي. وأنزل الله إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر - وكان

ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره - والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين إلى قوله: رحيم، قال أبو بكر والله إني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: فكان رسول الله(ص) يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً قالت وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي(ص) فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»(١).

وهذا نموذج واحد من عشرات النماذج الأخرى التي رويت عن طريق أهل السنّة والجماعة بشأن نزول «آيات الإفك».

وينبغي التوجه إلى أنّ معظم الروايات وأكثرها اعتماداً عند أهل السنة في المسألة ذاتها وآيات الإفك المرتبطة بحكاية اتهام عائشة أيضاً مروية عن عائشة ابنة أبي بكر.

والآن نعمد إلى بحث هذه الروايات والتحقيق حولها مع ذكر عدد من النكات المرتبطة بها:

أولاً: أن الروايات السالفة لاسيّما الروايات التي تذكر حكاية الإفك واتهام عائشة بالتفصيل كالرواية مارة الذكر تدلُّ كلها على ما

---

(١) السيوطي: الدر المنثور، ج٥، ص٢٦، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.

حصل للنبي من شك وسوء ظن بعائشة بعد شيوع التهمةوذيوعها وأنَّ حبه لها قد تقلص فلم يكن كالسابق وطلب منها إعادة التوبة، وشاور في إمكانطلاقها ومفارقتها مع أننا رأينا في آيات الإفك التي بحثناها وهي الآيات العشر كيف ذمّ الله أولئكالمؤمنين الذين خدعتهم الإشاعة فساء ظنهم بالمرأة ذماً شديداً والضرورة حاكمة ببراءة النبي منالاتهام وسوء الظن.

وبناءً على هذا تسقط جميع الروايات المذكورة لأنّها خالفت القرآن ويضرب بها عرضالجدار.

أجل إنَّ مجرد مخالفة هذه الروايات بعد العرض على كتاب الله لها كافٍ في سقوطها ولانحتاج إلى نقدها والبحث حولها ومع ذلك فإنّها لا تخلو من عيوب أخرى نحن نعرض لها بالذكرفيما يلي من الحديث.

ثانياً: ظهر لنا في بحث متن «آيات الإفك» بخاصة ملاحظتنا لكلمة«العصبة» وقيدها «منكم»ودلالتها أن المفترين لم يكونوا إلّا من المنافقين المحترفين وليسوا من العاديين ولا من المؤمنينفلم يكن لهذين الصنفين يد في تدبير هذه المؤامرة وليسوا من واضعي تصاميم الخطط أو مديريشؤونها الأصليين، ولكن مع ذلك فإن الروايات ذكرت أسماءً من قبيل «عبد الله بن أبي سلول» و»حسان بن ثابت» و «مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب» و «حمنة بنت جحش» وهؤلاء جميعالم يكونوا من المنافقين المحترفين كان عبد الله بن أبي سلول من المنافقين الذين لا يكتمون نفاقهمأمام الناس

والمؤمنون كلهم يعرفونه بالنفاق فيجتنبون مباشرته والاتصال به ومراودته ومناجاته،فكيف والحال هذه يصدق على اتهام عرس المصطفى ويعان على الإفك والافتراء عليها، لا سيّماوأن حديث اتهام عائشة جرى بعد العودة من غزوة بني المصطلق وقد فضح عبدالله بن أبي سلولنفسه في هذه الغزوة فضيحة شنعاء استوجبت نزول «سورة المنافقين» فيه وفي إخوانه وأعوانه،ومن الطبيعي أن لا يخدع المؤمنون بأقواله بعد نزول تلكم السورة بحقه بحيث يصدّقونه فيما يفتريهويرويه بحق عائشة ويعينونه عليه إنَّ هذا أمر لا يصدق.

و «حسان بن ثابت» وهو شاعر النبي المعروف وكان يدافع عن رسول الله(ص) طيلة حياةالنبي(ص) ويذب عنه بقصائده ويجيب قريشاً ويرد عليهم هجاءهم ويصون عرض النبي بلسانهوشعره.

ورجل كهذا كيف يتفق مع المنافق ابن سلول ويضم حديثه إلى حديثه في إفك كهذا الإفكيخدش عرض النبي ويعرضه لألسن العدو والمغرضين من ذوي النفاق والشرك.

و «مسطح بن أثاثة» بن عباد بن المطلب وهو مطلبي من المهاجرين، وكان منضماً إلى سائربني المطلب بن عبد مناف في حماية النبي لأنه يعد من بني عمومته(ص) وقد بذل أقصى الجهدبإخلاص في غزوة بدر وكان حاضراً يومها وكان شأنه شأن إخوانه من بني عبد المطلب مقرباً منرسول الله(ص) ومحبوباً إليه وقد ملكه النبي في غزوة خيبر هو وأخته ثلاثين وسقاً

[مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٩٤] وصاحب أمير المؤمنين بعد وفاة النبي(ص) وكان يقاتل معه في حرب صفين جنباً إلى جنب، وطبيعيّ أن شخصاً كهذا لا يتحد مذهباً ومشرباً مع عبدالله بن أبي سلول أبداً ولا يتصور اتفاقه معه في هتك حرمة المصطفى وخدش حياته.

و «حمنة بنت جحش» هي الأخرى بنت عمة رسول الله(ص) وهي من المؤمنات المهاجرات وزوجة مصعب بن عمير رضى الله عنه وكانت تسقي الظمايا يوم أحد وتداوي الجرحى ومن البديهي أن مثل هذه المرأة في هجرتها وإيمانها يستحيل تعاونها مع عبدالله بن أبي سلول المنافق في إدخال الأذى على النبي وتعريض عرضه لقالة السوء.

وبناءً على ما تقدم أن الأشخاص الأربعة هؤلاء ـ الذين لا تربط بينهم روابط خاصة ولايقرب واحد منهم من الآخر بشكل من الأشكال ـ لا تصدق عليهم «كلمة عصبة».

وحينئذٍ ينبغي أن تطرح هذه الروايات جميعها أرضاً لمخالفتها للقرآن وتكون ساقطة من الاعتبار.

أجل سوف نعرض لاحقاً إلى السر الذي حدى بالقوم أن يعصبوا التهمة في جبين هؤلاء الأربعة في قصة اتهام عائشة.

ثالثاً: ظهر لنا جلياً من البحث في متن آيات الإفك أن المصداق الوحيد للجملة القرآنية «والذي تولى كبره منهم» هو رجل متبع ومطاع لفريق المحترفين المنافقين الذين يقتدون به ويستمعون منه قوله بصفة تامة. هو الرجل ذاته الذي يتولى وضع تصاميم الخطط كافة ويتزعم

فئةالحزب الحاكم.

مرّ بكم في حديث «الحسين بن حمدان الخصيبي»[(١)] ذكر اثنين من الوجوه البارزة لهذه الفئةوكلا الرجلين له الطاعة والاتباع منهم ولكن يشهد التاريخ أن أحد الرجلين المطاعين المتبقين هوأبو بكر بن ابي قحافة، بحيث كان عمر بن الخطاب يتبعه اتباع الفصيل اثر أمه ويطيعه طاعة عمياءويدرك مدى صحة أفكاره وطموحاته واتساعها وحسن تصاميمه للخطط الماهرة الدقيقة بناءً علىهذا لا يتعدى صدق هذه الجملة القرآنية «أبا بكر ابن أبي قحافة وحده» «والذي تولى كبره» لأنّه لوكان اثنان لجاءت الآية هكذا «واللذان يتوليان كبره» أو كانوا أكثر ينبغي أن يكون «والذين تولواكبره منكم» من ثم نرى الروايات العامية تتذبذب في مصداق الآية بين عبدالله بن أبي سلول وبينحسان بن ثابت وأحياناً عبدالله بن أبي سلول ومسطح بن أثاثة وأحياناً عبدالله بن أبي وحمنة بنتجحش وقد أثبت التحقيق السابق بطلان هؤلاء قاطبة وتكون النتيجة حينئ أن هذه الروايات المعلنةساقطة من الاعتبار لهذا السبب.

رابعاً: كما عرفنا في تحقيق «آيات الإفك» من النتيجة التي حصلنا عليها أن الغرض من قولهتعالى: «أولو الفضل والسعة» هم جماعة أهل الحول والطول والسلطة والاقتدار من أهل السخاءوالبذل والعطاء وهم طائفة من الأنصار الذين وضعوا طاقاتهم وإمكاناتهم كافة تحت تصرفالإسلام من أجل رفعته ورقيه ورفاه المسلمين المنضوين تحت

---

(١) ح٥ ص٣٠، ٣٥ ، ٤٣.

لوائه ثم الغرض من قوله تعالى:﴿ **أولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله** ﴾ هم مختلف الطبقات المؤمنة التي تسكنالمدينة وكانت موضع العطف والبذل والعطاء.

وأهل السنة والاقتدار.

ولكننا مع ذلك نجد في الروايات السالفة (الروايات العامية) جعلت المعنيّ بالجملة القرآنية»أولو الفضل منكم والسعة» هو أبو بكر بن أبي قحافة وقصرت المصداق للجملة الشريفة﴿ **أولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله** ﴾على مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، وجاء فيالروايات المعنى التالي:

كان مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب يتيماً في حضن أبي بكر تعهّده منذ طفولته وربّاه فيبيته حتى نشأ والتزم بالإنفاق عليه بكل ما يحتاج إليه، ولكنه في حديث الإفك كان مع عبد الله بنأبي سلول وهو واحد من أولئك الأربعة أو الخمسة الذين أشاعوا الإفك والافتراء على عائشة فلمانزلت الآيات تبرء عائشة أقسم أبو بكر أن لا يصل منه إلى مسطح شيء وأن يترك الإنفاق عليهوطرده من بيته حتى نزل قوله تعالى:﴿ **وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله** ﴾ فرجع أبو بكر عن قوله وأعاد الإنفاق على مسطح وردّه إلىبيته وخلطه بأهله.

هذه شذرة مختصرة من حديث مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وأبي بكر بن أبي قحافةالذي ورد في الروايات السالفة، وباستطاعتكم الرجوع إلى الدر المنثور، ولنا أنْ نرجع للتأكد من ذلك.

والروايات هذه ساقطة من جهات عدة مضافاً إلى سقوطها من حيث مخالفتها لصريح القرآن ونحن الآن نخضعها للنقد فنقول:

أولاً: عدّ أبي بكر من ذوي اليسار والغنا والاقتدار موضع شك وتأمل، إذ لا نملك شاهداً حياًعلى هذه الثروة الواسعة التي كانت تحت يد الرجل أو كان يملكها وكل ما ورد من الروايات الدالةعلى ذلك إنَّما ورد عن طريق عائشة وأصحابها الذين يوالوها ويشدّون إزرها وهي موضوعة بتدبيرمن الحزب الحاكم، ولو أن باحثاً أو محققاً قارن بين هذه الروايات والروايات المضادة لها وسلطعليها ضوء النقد والتمحيص لأدرك أن هذا الشك والتأمل لا يخلو من وجه وجيه وأنه سواءوالحقيقة، ويقره المنطق والعقل.

ثانياً: الشك وارد في كون مسطح بن أثاة بن عباد بن المطّلب يتيماً نشأ في حجر أبي بكروكان حتى حدوث قضية اتهام عائشة المزعومة التي وقعت فيما يقال في السنة السادسة من الهجرةبعد العودة من غزوة بني المصطلق منضماً إلى عيال أبي بكر، وهو شك له وجه صحيح ومقبول، بليصح إطلاق الكذب عليه دون الشك لأننا نشاهد بعد الهجرة إلى المدينة عندما انتقل أبو بكر بجميععيالاته إلى بيت حبيب بن أساف في السنح كان مسطح بن أثاثة مع بني عمومته «عبيدة بن الحارثبن المطلب وإخوانه» الذين نزلوا في منزل عبدالله بن مسلمة بن مالك العجلاني في قبا ولم يبرحالإقامة معهم في سفر أو حضر مع أنه لو كان ضمن أسرة أبي بكر لكان ملازماً لهم شأنه شأن أيّ فردمنهم في منزل خبيب بن أساف ولم يفارق أبا بكر

[راجع:سيرة ابن هشام ج ٢ص ١٢٢،مغازي الواقدي ج ١ص ٢٤].

ثالثاً: نرى الروايات تذبذبت بين عده ابن خالة أبي بكر تارة وعده ابن أخته تارة أخرى،واعتبروا أبا بكر خالاً له، من جهة أخرى فإنّ بعض الروايات اقتصرت على ذكر مسطح وحده في عيال أبي بكر وقصرت تهمته على عائشة وحدها ولكن روايات أخرى ذكرت أنّهما يتيمان لا يتيماً واحداً ضمهما أبو بكر إلى عياله وأن الاثنين معاً قذفا عائشة.

وهذه جميعاً أمور تضعّف الروايات، وبإمكانكم مراجعتها في الصفحات ٣١ و ٣٤ و ٣٥ من المجلد الخامس من الدر المنثور.

رابعاً: في هذه الروايات اقتصر على مسطح بن أثاثة من كونه مصداقاً واحداً ل «أولي القربى»و «المساكين» و «المهاجرين في سبيل الله» بينما من كان له أدنى معرفة بالنظم القرآني عندما يستعرض الآية الشريفة﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ يدرك تعدد المصداق للآية التي مضى الحديث عنها.

هل من المعقول أن يكون للكلمات «ذي القربى» و «اليتامى» و «المساكين» و «ابن السبيل» الواردة في مثل هذه الآية الشريفة: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ**

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

مصداق واحد، وهل يصح عقلاً ونقلاً توحيد المصداق هنا.

خامساً: نشاهد في الروايات التي ذكرت اتهام عائشة ونزول آيات الإفك بالتفصيل الموضوع التالي:

خرج النبي إلى المسجد بعد شيوع حديث الإفك وخطب المسلمين بقوله: أشيروا علي في أناس أنبوا أهلي وايم الله ما علمت على أهلي من سوء وانبوهم بمن والله والله ... ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر ولا غبت في سفر إلا غاب معي «فقام سعد بن معاذ فقال: أنا والله يا رسول الله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وكان سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكنه احتملته الحمية فقال: كذبت لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقال: فقام أسيد بن حضير ـ وهو أوسي وابن عم سعد بن معاذ ـ فقال: كذبت لعمر الله ليقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله (ص) قائم على المنبر فنزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت» (٢).

هذا ما كان من أمر الجدال الذي دار بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وطائفتي الأوس والخزرج وقد تضمنته الروايات.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) أخذنا هذهِ الفقرة المحصورة من المعجم الكبير، ج٢٣ ص٥٩٠.

ويكفي في إثبات الوضع لهذه الروايات المذكورة أعلاه التدقيق في تاريخ وفاة سعد بن معاذوتاريخ حدوث التهمة لعائشة ونزول آيات الإفك في تبرئتها.

اتفق الرواة كما نصّت الروايات المشهورة أن «سعداً بن معاذ» توفي بعد مضي شهر واحد أوشهرين من السنة الخامسة من الهجرة النبوية على أثر إصابته بسهم في أكحله أثناء غزوة الخندقوقد ودع الحياة بعد انتهاء غزوة بني قريظة هذا ما كان من أمر وفاة سعد بن معاذ وأما ماله ارتباطبوقوع الإفك على عائشة فقد أجمعت الروايات العامية عن الحديث المذكور أنه وقع بعد العودة منغزوة بني المصطلق (غزوة المريسيع) وقد نصّ جماعة المؤرخين ورواة المغازي مثل ابن إسحاقوابن هشام والطبري ... أن هذه الغزوة وقعت في السنة السادسة للهجرة أي بعد غزوة الخندق وبنيقريظة.

وبناءً على هذا أن سعد بن معاذ بإجماع الروايات من الفريقين توفي بعد غزوة الخندق وبنيقريظة حين انصرم شهر أو شهران من السنة الهجرية الخامسة ولم يكن الرجل على قيد الحياة أصلاً أبّان غزوة بني المصطلق عندما انطلقت التهم ضدها على أثر عودتها من غزوة بني المصطلق ليحدثنزاع بينه وبين سعد بن عبادة وتثور ثائرة الأوس والخزرج على أثر ذلك من تدخل عملاءالقبيلتين، وعلى هذا الأساس ترد الروايات مورد البحث، أجل يمكن التعويل على استنباط معقول يذهب بالإنسان على اعتقاد الوضع لهذه المشاهد كلها من قبل عائشة وأشخاص لهم وزنهم منحزبها لكي تدار على عائشة هالة من التقدير

والتقديس بعد وفاة النبي في المجتمع المسلم ولكي يصنع من النبي والمؤمنين من الأنصار في فترة نزول الوحي معاضدين لها وأعواناً.

سادساً: أفاضت الروايات بنعت صفوان بن المعطل السلمي الرجل الذي حمل عائشة على جمله بالطيب من القول وروت عائشة على لسان النبي في تلك الخطبة اعتذاره إليه ومدحه إياه كمايلي:

«والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط وأنا حاضر ولا غبت في سفر إلا غاب معي»(الدر المنثور ج ٥ ص ٢٦) وأيضاً تذكر عائشة من نزاهته الأمر التالي:

«فبلغ إلى ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله والله ما كشفت كنف انثى قط».

وتضيف عائشة:

«فقتل في سبيل الله»(الدر المنثور ج ٥ ص ٢٧) وتؤكد عائشة تكامل شخصيته العسكرية وحسن أمانته فتقول: وكان سأل النبي(ص) أن يجعله على الساقة فجعله وكان إذا رحل الناس قام يصلي ثم اتبعهم فما سقط منهم من شيء حمله حتى يأتي به أصحابه» (الدر المنثور ج ٥ ص ٢٨).

وأكسب حديث عائشة عن صفوان شرفاً وحيثية خاصة حتى كان مترجموه يذكرونه بهذه الصفات التي أسبغتها عائشة عليه: يقول ابن الأثير في ترجمته: وكان يكون على ساقة جيش

رسول الله(ص) [١].

وهذا نوع من أنواع المناقب التي نحتتها عائشة لصفوان بن المعطل لتبرئه من هذه التهمة.

والآن علينا بحث هذه الفضائل بحثاً دقيقاً لتتجلى لنا صحتها من سقمها، ابتداءً يجب الإلمام بزمن إسلامه وظهوره بمظهر المسلم لكي نطلع على هذه الفضيلة التي أخرجتها عائشة على لسان النبي(ص) بقول ابن الأثير الجزري: «أسلم قبل المريسيع وشهد المريسيع» [٢]. ويا للعجب أن لايكون لهذا المنصب المصطنع في كتب السير والمغازي وجود إلا في موردين: الأول بعد الرجوع من هذه الغزوة ذاتها وسوف يظهر لك هشاشته وعدم صحته فيما يأتي. والثاني في حجة الوداع حين ذكرت روايات الحزب الحاكم: أن زاد النبي ورحله في هذا السفر حمله أبو بكر على جمل وكان الجمل له وأمر غلامه بتعاهده ثم تضيف الروايات أن هذا الجمل ضل في تلك الصحراء فعثر عليه صفوان بن المعطل في ساقة القافلة وأعاد إلى النبي وأبي بكر / المؤلف.

وعندما ندرك زمن إسلامه وأنه في العام السادس الهجري وكان قبلها مشركاً وأسلم قبل واقعة بني المصطلق بزمن قصير ووقعت حادثة الإفك بعد عودته من الغزوة، يثبت لدينا جيّداً وضع المنقبة الأولى التي حاكتها عائشة له عن لسان النبي(ص)، لأنه

---

(١) أسد الغابة، ج٣، ص٢٦/المترجم.

(٢) أسد الغابة، ج٣، ص٢٦/المترجم.

ليس من المعقول أن يقول النبي له فيالمسجد على مسمع ومشهد من المسلمين جميعاً وهو حديث الإسلام الذي سلخ عمره قبل ذلك فيعداوة النبي ومناوئته وإظهار الشرك: «والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط إلا وأناحاضر ولا غبت في سفر إلا غاب معي».

وأما ما يعود إلى تقواه ونزاكته الذين نوهت بهما عائشة وعزتهما إلى صفوان بن المعطلفنقول لها يوجد في مقابل هذه المنقبة ما أظهره من التجاوز لأوامر الحق وعدم اعتنائه برسول الله(ص) وللاطلاع على ذلك نرشد القارىء إلى رواية الواقدي في كتاب المغازي ص ٤٣٦ وهي ترتبطبحديث الإفك ذاته: «فلما قدموا المدينة جاء صفوان إلى جعيل بن سراقة فقال: انطلق بنا نضرببحسان فوالله ما أراد غيري وغيرك ولنحن أقرب إلى رسول الله(ص) منه فأبى جعيل أن يذهب فقالله: لا أفعل إلا أن يأمرني رسول الله(ص) ولا تفعل حتى تؤامر رسول الله(ص) فأبى صفوان عليهفخرج مصلت السيف حتى ضرب حسان بن ثابت في نادي قومه فوثبت الأنصار إليه فأوثقوهرباطاً...»(١).

أنتم تلاحظون أن صفوان بن المعطل الذي وصفته عائشة بالتقوى كيف يقدم على سفك الدمالحرام ولا يعتني برسول الله فلا يؤامره كما طلب منه صاحبه.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج٢٤ ص١٧١، المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٦، ص٣٤٤.

وأما ما زعمته من قتله في سبيل الله، فإنّه لم يقتل مع النبي(ص) وإنما ذكر بعض المؤرخين أنقتله في حرب أرمينية في عهد عمر بن الخطاب وذكر بعضهم أنه في حرب الجزيرة، وقال بعضهم فيحرب الروم في عهد معاوية بن أبي سفيان.

فإذا كان القتل مع معاوية قتلاً في سبيل الله وإلا فينبغي أن يقال:

وأما ما قالته عن تكامل شخصيته العسكرية حيث قالت: إن صفوان بن المعطّل كان في الساقةبأمر رسول الله(ص) حتى يجمع ما يتساقط من العسكر ويرده إلى أهله.

فإننا نقول: هذه الرواية بخلاف ما رواه عنها ابن هشام في سيرته ج ٣ ص ٣١١ والطبري فيتاريخه ج ٢ ص ٢٦٥ فإنّها عزت تأخر صفوان عن الجيش في تلك الغزوة لأمور خاصة بهولأغراض شخصيّة، وليس لأمر رسول الله ولجمع مخلّفات الجيش فقد روى الرجلان عن عائشةالرواية التالية:

«إذ مرّ بي صفوان المعطل السلمي وقد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت معالناس في العسكر».

هذا ما كان من وضع الفضائل والمناقب التي نحتوها لصفوان بن المعطل، أجل وإن لم يجز هذاالنكرة القيمة التي تحملنا على الإطالة في نقد مناقبه إلا أن ذلك لا يخلو من أهمية للبحث حيثتستبين سبل مناقبه المدعاة وينجلي لنا وضع الروايات مورد البحث بالبرهان الجلي والدليل الثابت.

سابعاً: وفي الروايات عيوب أُخرى مضافاً إلى النكات التي مرّ بيانها نظير موضوع التضادوالتعارض الموجود في متونها اللذين لا يمكن تجاهلهما ولا تأويلهما.

والآن عليكم بمطالعة الروايات المزبورة في الصفحات ٢٤ إلى ٣٢ المجلد الخامس من الدرالمنثور للسيوطي وأمعنوا النظر فيها لتلموا بطائفة من الروايات المتضادة والمتعارضة هناك التيسنشير إليها:

أ ـ جاء في بعض الروايات أنّ النبي اصطحب عائشة وحدها في هذا السفر وفي بعضها الآخرأنّها كانت مع أم سلمة في صحبة النبي(ص).

ب ـ جاء في بعض الروايات عن عائشة أنها قالت: لما غادرتني القافلة خلدت إلى النوم فيتلك المفازة حتى أصبحت ووصل إلى موضعي صفوان بن المعطل فأركبني على جمله وبلغ بيالعسكر وفي بعضها الآخر: أنها قالت: كنت على قارعة الطريق حين بلغني صفوان.

ج ـ في بعض الروايات أن عائشة أقسمت يميناً غموساً أنّها لم تكلم صفوان كلمة واحدة بينماتنص روايات أُخرى على أنّه كان بينهما كلام.

د ـ جاء في بعض تلك الروايات أن النبي استشار أسامة بن زيد وعلى بن أبي طالب بشأنطلاقها لكننا نعثر على طائفة أُخرى من الروايات ذكرت زيد بن حارثة مكان ابنه أسامة وعلي بنأبي

طالب(ع). وفي طائفة أخرى ذكر أسامة وعلل ذكره بشهادة أبيه وذهابه عن دار الدنيا من تمشاوره النبي مع الإمام علي(ع)، مع أن شهادة زيد بن حارثة كانت في السنة الثامنة للهجرة فيغزوة موتة بينما كانت غزوة بني المصطلق في السنة السادسة من الهجرة.

هـ ـ صرّحت بعض الروايات على أن الوحي فاجأ النبي(ص) وهو في بيت أبي بكر وبمسمعومشهد من عائشة وأمها فنزلت على النبي «آيات الإفك» بينما صرحت روايات أخرى بخلافذلك.

و ـ ذكرت بعض الروايات أن رسول الله(ص) ضرب عبدالله بن أبي سلول حداً خلا أن حساناًومسطح وحمنة ضربوا تأديباً بينما صرّحت بعض الروايات أن كل واحد من الذكور والأناث حدّواحدّين.

هذه شذرة بل أنموذج من التضاد والتضارب والتعارض الموجود في متن الروايات وهودليل مستقل على سقوط الروايات وعدم اعتبارها.

وعلى أيّة حال فإننا نفشنا قطن الروايات[١] مظنة البحث من جهات مختلفة وأثبتنا دلائلوضعها وفيما يلي آن الأوان في بحث السر ـ وقد وعدنا القارىء به قبلاً ـ الذي جعل حسان بن ثابتومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش من المبغّضين لدى عائشة في الروايات التالية.

(١) التقيد خاص بالمؤلف.

بعد الذي أوضحناه من متون آيات الإفك وأنها لا تنطبق بمعناها الصحيح بل والصريح أيضاًإلا على مارية القبطية، وأنَّها نزلت لتبرئة «مارية» مما افترى به عليها المنافقون المحترفون فيولادة إبراهيم ابن رسول الله(ص).

وليس من نافلة القول أنّ عائشة كانت ركناً أساساً في هذه التهمة والافتراء على «ماريةالقبطيّة».

ولابتغاء هذا السر الأصلي من اتخاذ الأفراد الذين مرت أسماؤهم توّاً مبغضين لعائشة ينبغياعتماد هذه الحقيقة والبحث حول ذلك في إطارها.

ذلك أنّ حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وحمنة بنت جحش لابدَّ منانضمامهم إلى الغاضبين لمارية القبطية من هذه التهمة الباطلة مما أثار حنق عائشة وتنفّرها منهم،وربما بدرت من القوم بوادر تسيء إلى عائشة من قبيل تمردها على الالتزام بقواعد الأدب الخاصبعيال النبي، وانحلال أخلاقها «الذي كشفنا شذرة منه في الفصل الرابع من القسم الحادي عشر منهذا الكتاب» ولابدع أن يطلقوا ألسنتهم بذكر ذلك، ومن الطبيعي أن لا يبلغ ذلك منهم ومنها الحدالذي يخدش كرامة النبي(ص) كالذي فعلته عائشة مما لفقت من حكاية اتهامها بعد عودتها منغزوة «بني المصطلق».

أمّا حسان فقد كان من حقه أن يألم لما قذفت به مارية وأن يبلغ به الغيض والغضب حداًمتناهياً فإنَّ أسباب ذلك مهيأة عنده لأنه كما

مر في الفصل الثاني من القسم الثالث من الكتاب من أنَّ لمارية القبطية أختاً واسمها «سيرين» أهداها النبي(ص) إلى حسان، فأولدها عبدالرحمن ابنه وكانوإبراهيم ابن رسول الله(ص) ابني خالة.

ومن المعلوم أن حساناً مغتبط في هذه الصلة الوطيدة ببيت رسول الله(ص) إلى حد بعيد لاسيما بعد ولادة إبراهيم(ع) باعتبار أن ابنه عبد الرحمن يكون ابن خالةٍ لوحيد رسول الله(ص)ويرى نفسه قد تناهى به الشرف على المسلمين جميعاً من هذه الناحية.

وبناءً على هذا لا تمر القضيّة عليه بسلام وهو يرى عائشة تبهت «أم إبراهيم مارية» وتلصقبقدسها مثل هذه التهمة البشعة، وتريد بهذا أن تهدم بيت عزه وصرح فخره، وضراح كرامته حيثتجتمع هذه كلها عند لقائه ببيت سيد البشر بابنه عبدالرحمن وخالته مارية أم إبراهيم(ع) فلابدع أنيحدث رد الفعل عنده بكشف ممارسات عائشة، وهي ممارسات لم تكن خافية على أعين الناس،وليست باللائقة أيضاً وهذا ما حمله على التشهير بها من هذا الجانب لا سيما وقد كان شاعرأبمقدروه أن يسعفه الحال بتسطير الهجاء في عائشة ويكفي في إثارة الشاعر أن يستاء من أحد منالناس ليوسعه ذمّاً.

وفي هذه الصورة يكون من الضروري حقد عائشة وأعوانها في رسم هذا المخطط الدنيءعلى حسان بن ثابت وأن تضمر بغضه وعداوته، وفي الروايات التي وضعوها جعلوا حساناً أحدمصاديق قوله تعالى: «الذين جاءوا بالإفك» لتغير دفة الموضوع من أساسه

وتحويل مجرى الآياتإلى وجهة أخرى ولا مانع عند عائشة أن تعود إلى موالاة حسان بعد عدائها له حين رأته يوالي عدوأهل البيت وينتسب إلى مخالفيهم ومناصبيهم العداء ويخص منهم علياً(ع) بذرب لسانه ويطلق فيهأقوالاً باطلة بل بالغ في النصب حين امتنع عن مبايعة الإمام أيام خلافته الظاهرية من ثم غيّرترأيها في حسان وعفت عنه وبذلت له الولاء والاحترام وأظهرت إكباره بعد أن كانت تستهين به(١).

هذه حقيقة حسان بن ثابت وما كان عليه وضعه وعلة تذمره من حكاية الافتراء على ماريةالقبطية واتهامها.

وأما ما يعود إلى «مسطح بن أثاثة» من الوضع ومثله «حمنة بنت جحش» فإن علاقة عائشة السيئة بهما ينبغي أن تلتمس في قربهما الرحمي من رسول الله(ص).

أي أن «مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب» وهو من بني المطلب بن عبد مناف وهؤلاء بنوعمومة النبي(ص) وكان لهؤلاء كما سبق بيانه قدم صدق في الدفاع عن رسول الله(ص) وبذل النفسوالنفيس دونه سواءً في الإسلام أو قبل بعثته ولابدَّ من كون مسطح بن أثاثة كغيره من أهله وذويهآلمه الافتراء على مارية ومحاولة نفي ابنها إبراهيم(ع) من أبيه وتلقى الافتراء بامتعاض شديد ولابدَّحينئذٍ من وجود ردّ فعل قاسٍ في مقابل هذا الفعل البذيء حيث ثلب عائشة ثلباً مشيناًوأطلق لسانه فيها وعلى هذا الأساس كان من

(١) المغازي للواقدي، ص٤٣٨، ٤٣٩؛ وأسد الغابة، ص٦.

المبغضين لها.

أما حمنة بنت جحش فهي كما قلنا ابنة عمة رسول الله(ص) وليس بعيداً أن يؤذيها الافتراءعلى مارية ونفي ابنها من رسول الله(ص)[١] مضافاً إلى كونها عقدت لطلحة بن عبدالله(قريبعائشة وابن عمها) بعد شهادة زوجها الأول (مصعب بن عمير رضى الله عنه) وصارت أماً لاثنين من أولادهوهما محمد وعمران وأثبتنا في الفصل الثالث من القسم الثاني عشر من هذا الكتاب أن طلحة كانيميل إلى عائشة وكان يؤذي النبي فيها بحيث نزلت فيه آية تقرعه وتلومه قال تعالى:﴿... **وَمَا كَانَلَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً**﴾سورة الأحزاب.

ولعلَّ هذه الأسباب أثارت حمنة بنت جحش على عائشة حيث تألمت منها حين قذفتمارية القبطية وأنكرت بنوّة إبراهيم من رسول الله واشتد بها الألم من سلوك عائشة حين بلغ بها هذاالحد فأخذت تلومها وتقرعها وتذمها بلسان حاد كشف طائفة من مساويها وسلوكها الذي تلامعليه وأرادت بذلك أن تطامن من غربها وتذل شموخها وتمرغ كرامتها كما فعلت عائشة نفسها معمارية فكانت النتيجة مع حمنة بنت جحش كالنتيجة مع حسان بن ثابت من بغض عائشة لها وتنفرهامنها وعمدت إلى ذمها في الروايات مارة الذكر التي تحكي لنا حكاية الإفك بلسان عائشة نفسها.

---

(١) وهي كذلك أخت ضرتها زينب بنت جحش/ المحقق.

أجل إنَّ ما قلناه آنفاً هو احتمالٍ أكيد يعتبر في نظر الإنسان المحقق احتمالاً عقلانياً واحتمالاًمقبولاً أيضاً ليس من السهل ردّه أو تجاوزه، وأما حشر عبد الله بن أبي سلول المنافق المعروف فيهذه الروايات فالغرض منه إبعاد التهمة عنهم في موضوعاتهم من الروايات والأشخاص، وإلّا فإننافي أول البحث القرآني المرتبط بآيات الإفك أثبتنا أن الافتراء المعهود والتهمة المبيّنة إنما وضعتتصاميمها من قبل المنافقين المحترفين أما المنافقون العاديون فلا ضلع لهم في ذلك ولم يكونواأعضاءً في فريق القذف والافتراء.

إلى هنا ننهي البحث المختص ب «آيات الإفك» وننتقل إلى مختصر تاريخ المنافقين في سورةالنساء إن شاء الله تعالى.

القسم الخامس عشر

فهرس الفصول والمواضيع

تبين في موضوع سورة «النساء».

الفصل الأوّل: متون الآيات ٥١ إلى ٥٩ « **سورة النساء** ».

الفصل الثاني: بحث الآيات: ٥١ إلى ٥٩ من سورة النساء وتحقيقها وإظهار مفاد الكلمات: «**الجبت**»«**الطاغوت**»«**آل إبراهيم**»«**ملك عظيم**»«**أولو الأمر**»في اصطلاح القرآن المجيد.

الفصل الثالث: النكات الملحوظة في الآيات ٦٠ إلى ٧٠ من «**سورة النساء**» والدليل على نزولها في «**المنافقين المحترفين**».

الفصل الرابع: النكات الملحوظة في الآيات ٧١ إلى ٩١ من «**سورة النساء**» والدليل على نزولها في المنافقين المحترفين.

الفصل الخامس: النكات الملحوظة في الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ من سورة النساء والدليل على نزول هذهِ الآيات في «**المنافقين المحترفين كذلك**».

الفصل السادس: النكات الملحوظة في الايات ١٣٦ إلى ١٤٧ من سورة النساء والدليل على نزولها أيضاً في المنافقين المحترفين.

الفصل السابع: استنباط النتيجة من الآيات التي بحثت في هذا القسم من الكتاب (القسم الخامس عشر).

الفصل الأول

متون الآيات

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً (٥١) أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا (٥٢) أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا (٥٣) أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما (٥٤) فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا (٥٥) إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما (٥٦) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً (٥٧) إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا (٥٨) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً (٥٩) ﴾.

وسوف نلقي الضوء شرحاً على ما ينبغي فهمه من الآيات السالفة في الفصل القادم إنْ شاء الله تعالى

* بحث الآيات ٥١ ـ ٥٩ من سورة النساء وتحقيقها وتبيان مفاد الكلمات التالية : الجبت ، الطاغوت ، آل إبراهيم ، ملك عظيم ، أولوا الأمر في لغة القرآن واصطلاحاته الخاصة .....".

أولاً: من أجل إدراك المفهوم الواقعي للكلمتين «**الجبت**»،«**الطاغوت**»المذكورتين في الآية (٥١).

نقول: لم تذكر كلمة الجبت في القرآن كُلّهُ إلّا في هذهِ الآية أمّا الطاغوت فقد تكررت في أكثر من آية واحدة ومن معاني استعمالها في الآيات القرآنيّة الشريفة أنها تقابل تعلق القلب بالله جل جلاله تقابل التضاد ويقال للطاغوت في اصطلاح الوحي ما كان مقابلاً للإيمان بالله سبحانه والتعلق به وخلوص الضمير له؛ ولذا أكّدت الآيات الموحى بها الوصية بالإيمان بالله وعبادته والإخلاص له واجتناب عبادة الطاغوت وتعلّق القلب به:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٦.

أمَّا كلمة الجبت فإنَّها لم ترد في غير الآية (٥١) من سورة النساء، وبما أنها انفردت بذكرها فكل معرفة يراد منها جلاء معناها والإلمام به فلا سبيل لها إلا من هذهِ الآية: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً** ﴾ (١). فقدْ جعل الإيمان بالجبت والطاغوت معاً مقابلاً للإيمان بالله تعالى واستبان لنا أنَّ الجبث كالطاغوت وهو ذلك الشيطان الذي أقيم في الطرف المقابل للتوحيد.

غاية ما في الأمر أنَّ لفظ «**طاغوت**» مشتق من مادة «**طغيان**» والطغيان عمل ظاهرٍ وعلامة تميّزه في تعريف شرك صاحبه وظهر من هذا أنَّ الجبت هو الشيطان الذي استخفى طغيانه وشرّه عن أعين الناظرين وبناءً على هذا لما كان الجبت هو الشيطان الذي ستر شركه عن المشاهدين، وأخفى طغيانه عن أعين الناظرين. فإنَّه حينئذٍ يبدو بالضرورة بظاهر مليح خادع بما يتصنع به من الأحجية من ثم تكون القلوب إليه أميل منها إلى الطاغوت. ويقع موقع الرضا والمحبة من الناس، وعلى هذا يكون أقدر على إغواء الناس من زميله، أجل. أنَّ الجبت هو ذلك الشيطان الذي يحبه المخلوقون.

لذا نرى إطلاق لفظ الجبت في اللغة على الصنم والكاهن وهو مورد حب الآدمي وعشقه وكذلك يطلق على الساحر الذي أوتى القدرة على إخفاء أحابيله وتعبه عن الأنظار .

(١) سورة النساء: الآية ٥١.

جاء في القاموس:

الجبت: الصنم والكاهن والساحر والسحر ...»[(١)].

ويستبان من الكلمتين الجبت والطاغوت المذكورتين في الآية الشريفة: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً**﴾[(٢)].

﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[(٣)].

ألا ترون أنَّ الآية أعلاه كيف جاء الأمر بها بعبادة الله وحده والإيمان به وتجنب الإيمان بالطاغوت وعبادته. والواقع أنَّ مضمون الآيات أعلاه في تعريف الطاغوت هو عين مضمون الآيات الشريفة التالية: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ* وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾[(٤)].

---

(١) الجبت: بالكسر الصنم والكاهن والساحر والسحر والذي لا خير فيه وكل ما عبد من دون الله تعالى/ القاموس المحيط ج١، ص١٢٨.

(٢) سورة النساء: الآية ٥١.

(٣) سورة الزمر: الآية ٨٠ ـ ٨١.

(٤) سورة يس: الآية ٦٠ ـ ٦٢.

في تعريف الشيطان. فظهر لنا في اصطلاح القرآن الخاص أنَّ كلمتي «**شيطان**» و «**طاغوت**»هما التعريف بواقعيّة واحدة. وما ذكر من الخصوصيات واللوازم لأحدهما في القرآن تصدق في انطباقها على الآخر كما جاء ذلك متحققاً في الآيات الشريفة المعروفة بآية الكرسي:

﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

وهذا هو الإدراك الصحيح لمصداق كلمة الطاغوت الذي حصلنا عليه من تدبر الآيات الشريفة من القرآن الكريم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

إيضاح خاص بسورة النساء

سورة النساء آياتها (١٧٦) آية واختص ما يربو على النصف من هذه الآيات بأموال الأيتام والزواج ومحرمات النكاح والإصلاح بين الزوجين والغسل والتيمم والقتل العمد والقتل الخطأ وصلاة الخوف وما إلى ذلك وقد تخلل هذا كله عدد من الآيات في المعارف والسلوكيّات والأخلاق.

ويأتي باقي الآيات من السورة في المنافقين وأهل الكتاب وقد قاربت الآيات الخاصة بالمنافقين ثلث آيات السورة كلها. والآيات المختصة بالمنافقين بصفة صريحة من السورة هي عبارة عن الآيات: ٦٠ إلى ٩١ و ١٠٥ إلى ١١٦ و ١٣٦ إلى ١٤٧ واختص عدد من الآيات على أثر شرح أحوال المنافقين بالتحريض على الطاعة التامة للنبي من المؤمنين.

والغرض الأساس من هذه السورة هو البحث في الآيات المختصة بالمنافقين وتحقيقها ويقتضينا ذلك البدء من الآية ٦٠ فما بعدها في البحث والتحري ولما كان ذلك غير ميسر لنا ما لم ندرك معاني تسع آيات ونبحثها بحثاً مستوعباً. وهذه الآيات مختصة بأهل الكتاب وجاءت سابقة على الآيات المراد بحثها.

لذلك لا مندوحة لنا عن أن نبدأ البحث من الآية ٥١ من سورة النساء إلى آخرها:

أولاً: أهل الكتاب المعهودون مع أنهم الأبالس الذين يضايقون النبي والمؤمنين في الدعوةوالإبلاغ فإنّ مخالفتهم وعنادهم ووقوفهم في وجه الدعوة أكثره يعود إلى اتباعهم ذوي الصفاتالطاغوتية والمتلبسين بثياب الجبت، المعادين للنبي ودعوته الجديدة، ولهم السيادة على أهلالكتاب وهم من أتباعهم المؤتمرين بأمرهم والمتصفين بصفاتهم.

ثانياً: وكما مر في الترجمة الميسرة للآيات، أن لغة الوحي بعد أن أخبرت عن حكم أهلالكتاب الباطل على المؤمنين في الآية (٥٢) فإنها كشفت عن كونهم ملعونين عند الله تعالى ثمتعرضت الآية (٥٣) إلى صفاتهم الخاصة من بخلهم وانحطاط فطرتهم ثم أخبر الوحي في الآيةالتالية عن حسدهم وحقدهم على المؤمنين فقال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِفَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلكاً عَظِيماً**﴾.

ولابدَّ من إبراز أمور في تحقيق هذه الآية:

أولاً: ما هو المقصود من كلمة «الناس» المذكورة في الآية أعلاه، والذين انصبّ عليهم حسدأهل الكتاب ومنهم اليهود المعهودون من قبل.

ثانياً: من هم آل إبراهيم الذين يؤلفون مصداقاً للآية الكريمة.

ثالثاً: ما هو الغرض من الملك العظيم وما هي كيفيّته؟! وكيف آتاه الله آل إبراهيم وصيّرهم قادةللناس وفي الإجابة على الأسئلة التالية نقول:

لا ترديد في كون الناس المذكورين في الآية مورد البحث هم المحسودون لأهل الكتاب من المؤمنين ولكن الجملة الشريفة من الآية: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾(إنّما ذكرت لحمل الحاسدين على اليأس وقطع الرجاء والأمل) واعتبرتهم من آل إبراهيم،فظهر لنا من هذا أن كلمة الناس في الآية، تشمل تلك الطائفة من المؤمنين الذين يعتبرون من آل إبراهيم.

من جهة أخرى لما كانت كلمة «آل» لا تطلق إلا على من له اختصاص ذاتي بمن تضاف إليه فيكون على هذا المقصود من «آل إبراهيم» في الآية الشريفة هم المؤمنون المعدودون الذين لهم اختصاص ذاتي بإبراهيم وقد أصابهم حسد أهل الكتاب.

وبما أنّ محسودي أهل الكتاب زمن النبي(ص) لم يكونوا من ذريته المتفرعين من إسحاق ويعقوب وسائر أنبياء بني إسرائيل لأن هؤلاء موضع تجلة واحترام من أهل الكتاب كافة فلابدع أن تختص اللفظة «آل إبراهيم المذكورين في الآية المبحوث عنها» بذرّية إبراهيم الطاهرين المولودين من ولده «إسماعيل» وهذه لا انطباق لها مطلقاً إلا على محمد وآل محمد(ع) .

أجل أن كلمة آل إبراهيم ذكرت في موردين من القرآن الكريم وفي كليهما تختص بمحمد وآل محمد(ع). الأول في الآية التي بحثناها توا والآخرى في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [1]. والدليل على أن المقصود من آل إبراهيم في الآية أعلاه هم محمد وآل محمد هو التالي:

إنّالله استثنى «آل عمران» وهم عبارة عن مريم وابنها من آل إبراهيم وقابلهم بآل إبراهيم ومن المسلم به أنّه لو كان القصد من آل إبراهيم هم ذريته الطاهرة من نسل إسحاق ويعقوب فإنمريم وولدها عيسى داخلان في عدادهم وليسا منفردين عنهم أو مقابلين لهم.

ومن هذا التقابل بين «آل إبراهيم وآل عمران» ندرك جيّداً أن القصد من «آل إبراهيم» في الآية(٣٣) من «سورة آل عمران» هم الذرية الطاهرة من نسل إبراهيم المولودون من ابنه إسماعيل أيضاًوهم محمد وآل محمد وعلى أية حال فقد اتضح مما سلف جواب السؤال الأول والثاني بصورةمشرقة.

أي أنّه من الواضح البيّن أن القصد من كلمة «الناس» المحسودين من أهل الكتاب هو فيالدرجة الأولى الذات النبوية الكريمة ثم أهل بيت النبي بتبعه الذين حددت هويتهم «آية التطهير»وسائر آيات الولاية ثم إن القصد من آل إبراهيم المذكورين في الآية المبحوث عنها الذرية الطاهرةلإبراهيم من نسل إسماعيل التي لا تصدق على غير محمد وآل محمد(ع).

---

(١) سورة آل عمران.

والآن نأتيك بالجواب عن السؤال الثالث:

إنّنا نرى أنّ الله تعالى ذكر حكومة محمد وآل محمد وإمارتهم في الآية المحققة بقوله: «ملكاً عظيماً» ووصف ملكهم بلفظ «عظيم» في حين لا نراه وصف ملكاً أو حكومة أو سلطاناً لنبي أو غيره بهذا الوصف من هذا التعبير المتفاوت نلم بأن ملك آل محمد وولايتهم أسمى وأعلى وأغلى من ملك أي ملكٍ وحكومة أي حاكم وسلطنة أي سلطان جميعاً وهذا الملك والولاية يفوق ملك السلاطين والأنبياء من أولهم إلى آخرهم.

أجل يجب أنْ ندرك أن «ملك محمد وآل محمد العظيم» هو أعظم من ملك يوسف وداود وسليمان وجميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وسلطانهم وأعلى وأعز وأغلى لأنه لم يوصف ملك واحد من هؤلاء بلغة الوحي بلفظ «عظيم»، إنَّ الملك العظيم والولاية والقيادة والحكومة الممتدة التي حباها الله لمحمد وآل محمد وأكرمهم بها، ينبغي أنْ يكون هو الملك العظيم المصاحب لامتداد ملك الله وولايته جل جلاله في هذه الآية «ولله ملك السموات والأرض» وقد اصطفى الله تعالى هؤلاء المقرّبين المتميّزين ورفع درجاتهم على سائر خلقه.

والعجيب في الأمر أن كلمة الملك في كلام الوحي كله من أوله إلى آخره لم يوصف «بالعظمة والكبر» إلّا في موردين وكلاهما يرتبطان بحكومة محمد وآل محمد وملكهم وولايتهم. الأول في الآية التي بحثناها والآخر في «سورة الإنسان» المختصة بتبيين أحوالهم

وذكر رتبهم والإخبار عنهمحيث يقول:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ (١).

نعم هذا هو «الملك العظيم» الذي جعل الله أصحابه بتعبير آخر «شهداء على أعمال الخلقونعتهم بذلك» فقال:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْإِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ (٢) *

(١) سورة الإنسان: الآية ٢٠.

(٢) من الواضح أنَّ الجزء الشريف من الآية ﴿ **هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾ ناظر إلى الدعاء الوارد في الآيات الشريفة ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾سورة البقرة. وهذا دعاء إبراهيم لذريّته الطاهرة الذين هم «**الأمة المسلمة**» نفسها من نسل إسماعيل. وعلى هذا التقدير أصحاب الحدس القائل: إنَّ الآية الشريفة: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾سورة البقرة. ينبغي أنْ تجيء في السياق الطبيعي للآيات من سورة البقرة بعد الآيات الواردة فوق هذا الكلام ولكن الحزب الحاكم تصرف عمداً في نظام الآي وصيّرها بين الآيات النازلة في القبلة كي يضيع المعنى والمفاد الواقعي لها في بيان مقام أهل البيت الأئمة من كونهم شهداء الأعمال ولعل صلتها بدعاء إبراهيم للأمة المسلمة في الآيات السالفة وعدم صلتها بآيات تغيير القبلة مؤيد لهذا المذهب ومن أجل مزيد الإطلاع على القاري أنْ يرجع إلى الفصل السابع من القسم التاسع عشر تحت عنوان: البحث في النظام الترتيبي والتركيبي للسور والآيات القرآنية ليعرف مبلغ التصرف في نظام الآيات التركيبي/ المؤلف.

وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٢) .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ ﴾ (٣) .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ (٤) .

ومن الثابت المقطوع به أن الإنسان الفطن يدرك جيداً من خلال المقارنة بين الآيات أعلاه مع بعضها البعض والتحقيق فيها أن مقام آل محمد في الشهادة على الأعمال أفضل وأعلى من مقام الأنبياء والرسل قبل في الشهادة على أعمال أممهم لأن لغة الوحي تعبر عن هذا المقام المعهود المختص بآل محمد بجملة «شهداء على الناس» ولكن في الأخبار عن شهادة أنبياء السلف ورسلهم، أنها على أمتهم فحسب.

وبتعبير آخر «العارفون بالكتاب المكنون» وهو الباطن «للكتاب المبين» والمحيط به.

(١) سورة الحج: الآية ٧٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ١١٠.
(٣) سورة النحل: الآية ٨٩.
(٤) سورة النساء.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(١).

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

وبتعبير آخر... ولما اتصف لصفة الخيال واتخذ صفة القانون الدنيوي وصار فيظرف العقود كانت له «صورة فرض الطاعة» و «فرض الولاية»:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٣).

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَوَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْرَاكِعُونَ﴾(٤).

النكات المذكورة تظهر من العلاقة الدائرة بين الآيات الشريفة أعلاه مع بعضها البعضوتستفاد من عقد المقارنة بينها وقد ذكرت في مواضع مختلفة من هذا الكتاب وكشفنا عن جذورهالأصلية بصفة بيّنة فارجعوا إلى مظانها منه إن شئتم.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة الواقعة.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٥٥.

وعلى أية حال فـ «الملك العظيم» لمحمد وآل محمد ينبغي أن يكون على هذا النحو، وإلا فمن الواضح أن ملك رسول الله(ص) الظاهري وحكومته الدنيوية لم يكن زمان نزول الآيات الشريفة من سورة النساء يستغرق حتى جزيرة العرب نفسها ولم تكن مكة يومئذ قد فتحت ولم تلق قبائل العرب للنبي زمام القيادة.

دع هذا كله ودقق النظر في ملك وسلطان ينتشر المنافقون المحترفون في ربوعه المسكونة ومثلهم المنافقون العاديّون وقد ضيقوا الخناق في عصيانهم وتمردهم على رسول الله(ص) فإنه لايعد ملكاً مستطاباً ولا سلطاناً مرغوباً فيه حتى يذكره الله بخير ويثبته في كلامه الموحى به على نبيّه ويضبطه هذا الضبط المحبّب.

ثالثاً: ما ظهر لنا بيانه من «الملك العظيم» لمحمد وآل محمد(ص) وعرفناه من صلة الآيات(٥١ إلى ٥٩) مع بعضها البعض، ويؤيد هذه الصلة الألفاظ والرواية المعتمدة في دلالاتها في الآيات المذكورة عقيبها ويظهر لنا من مجموع هذه النكات ما يلي:

أولاً: الغرض من كلمة «أولي الأمر» المذكورة في الآية الشريفة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾**(١) (وهي آخر آية من الآيات ا لتسع التي يجري البحث فيها) هم الأئمة المعصومون من آل محمد(ص) لأن هؤلاء العظماء وحدهم يمكن أن يكوّنوا مصداقاً ل «آل إبراهيم» الذين ورد ذكرهم في الآيات

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

المتقدمة على هذه الآية.

ثانياً:المراد من «التنازع» المذكور في جملة «فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول»هو التنازع الحاصل بين المؤمنين أنفسهم مع بعضهم البعض وليس تنازعهم مع أولي الأمر نفسه.

توضيح المطلب:

لما تحقق لدينا أن الله تعالى وهب محمداً وآل محمد أعظم ملك وأعظم سلطان وجعل هذهِ الذوات المقدسة في مرحلة يوم القيامة ـ الذي هو غيب العلم وباطن كل الوجود ـ حكاماً وقادةعلى وجه مطلق وقال في بيان ذلك السلطان المختص بهم في ذلك الأوان وأخبر عنه بقوله: ﴿**وَإِذَارَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً**﴾ (١).

علمنا بالضرورة من حيث اقتضاء البرهان أنّ هذه الذوات المقدسة هم أولو الأمر أيضاً علىوجه الإطلاق في ظاهر العالم وهو الدنيا وطاعتهم على المؤمنين واجبة والنزاع معهم والجدالباطل ومخالفتهم حرام.

أجل لما كانت القيامة باطن البرزخ والبرزخ باطن الدنيا فتكون القيامة غيب الغيب للعالموباطن الوجود.

وكل فيض ينزل إلى برزخ الدنيا من قبل الحق تعالى فقد تنزل إليه من تلكم المرحلة: ﴿**اللهالَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ**

(١) سورة الإنسان: الآية ٢٠.

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ...﴾ [(١)].

وبناءً على هذا التقدير نقول:

لما أعطى الله الأمر في مرحلة «غيب الغيب» للعالم إلى محمد وآل محمد(ص) ووهبهم السلطان الأعظم والملك الأعظم وجعل في هذه المرحلة «الطاعة» لهم وهم أولو الأمر فينبغي أنْ يكون لهم ذلك في الدنيا بالضرورة وتتعلق بهم الإرادة التشريعية الربانية وتكون تلك الذوات المقدسة شأنهم شأن النبي نفسه لهم الطاعة المطلقة وليس لأحد مخالفتهم أو النزاع معهم.

أجل، إن هذه المسألة من كون الطاعة المطلقة لمحمد وآل محمد مسألة فطريّة للمؤمن وليس من حاجة إلى صدور أمر معهود فيها.

لأنَّه عندما ثبت لنا بما لا يقبل الشك أن هؤلاء العظماء هم المقربون الممتازون عند الله تعالى في مرحلة القيامة و «غيب الغيب» للعالم وهم يحيون في سعة الإطلاق لكل الأوصاف الحقّة يكون من البديهة بمكان أن المؤمن الذي يوجد في محيط هذه الأوصاف مطيع لهم وموكل قلبه بهذه السعة المطلقة التي يعيش في مرحلتها وهنا تشاهدون أن الأمر من قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾** يصدر من مصدر الوحي، ومن الوضوح أنه يعني في الدرجة الأولى فريق المنافقين المحترفين ليلزمهم بامتثاله ومن بعدهم المنافقين

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

العلابين[١] وضعيفي الإيمان من المسلمين، وإلّا فهل أن إطاعة المؤمنين الواقعيين لله ولرسوله وللإمام المعصوملها صلة بصدور أمر كهذا.

إن من الضروري العلم بأن صدور هذا الأمر إنما كان لإلزام أولئك الذين تشملهم الآياتالتالية:

﴿ألَمْ تَرَ إلى الّذِينَ يَزْعُمُونَ أنّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أنْ يَتَحَاكَمُواإلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾[٢].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إذَا هُمْيَسْخَطُونَ﴾[٣].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فَإنْ أصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأنَّ بِهِ وَإنْ أصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىوَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾[٤].

وغيرهم وإلّا فإن من البديهي للمؤمن أن يكون مشمولاً لهذه الآية الشريفة: ﴿لَيْسَ البِرَّ أنْتُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِوَالنَّبِيِّينَ

(١) نصب جمع المذكر السالم هنا بتقدير لفظ (يعني) الذي نصب مع الأول: «المنافقين المحترفين»/ المحقق.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٤) سورة الحج: الآية ١١.

وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ (١).

فإطاعتهم وامتثالهم لأوامر النبي والإمام المعصوم أبداً لا يحتاج إلى صدور أمر محبّذ لهمعلى ذلك وبناءً على البيان المتقدم لا يسعهم إلّا الطاعة لمن ملك عليهم شغاف قلوبهم وهاموا بهوجداً وحباً واتخذوه معشوقاً لهم.

ثم إن ما قلناه في تبيّن مصداق أولي الأمر إنما كان من حيث سياق الآيات الواقعة موقعالبحث وتمييز الناحية الدلالية منها. فإن الآية التي تفرض طاعة الرسول وأولي الأمر جاءت عقيبالآيات الشريفة التالية: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَالكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً** ﴾.

أما من أراد تمييز أولي الأمر من ملاحظة متن الآية الشريفة التي وردت بها الكلمة وهي قولهتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍفَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ فينبغي أنيكون بحثه كما يلي: وذلك حين نرى في الآية الشريفة الواقعة موقع البحث أن طاعة أولي الأمرساوت في الإطلاق والوجوب طاعة الله ورسوله دون تقييدها بأي قيد ينافي

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

الإطلاق نعلم علماًيقينياً بأن أولي الأمر المذكورين في الآية هم المصونون بالعصمة الإلهية والمتمكنون منها والآمنون من الخطأ والانحراف والزلل من ثم وجبت إطاعتهم بصفة مطلقة.

وإلّا فإنّ من الضروري أنْ لا تكون طاعتهم واجبة مطلقاً لو فقدوا العصمة وتعرضوا للسقوطفي بؤرة الذنب والخطأ وجنحوا إلى الهوى والهوس.

فكيف يكون ممكناً لمن يعيش عيشة الأفراد العاديين وتتنابه الهواجس البشرية السافلة نظيرالحرص والطمع والأنانية وعبادة الذات وما شاكلها من آلاف الصفات الشيطانية. وفوق ذلك كلهعندما يقعد مقعد الحكم الوثير ويتسنّم غارب الرئاسة ويقود المجتمع فإنه سوف يتعرض قهراً لحبالجاه وحب الرياسة (التي تعد جوراً لكل ما يأتيه المرء من الذنوب حسب قول الشارع الشريف):«وآخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الجاه»(١).

وفي لغة الوحي أن طاعة أشخاص كهؤلاء هي مساوية لطاعة الله ورسوله وهيواجبة وجوباً مطلقاً، ومع خلوهم من العصمة لا يتأتّى منهم ذلك إطلاقاً.

لا يقال: إن قيد كلمة «منكم» بعد المجيء بلفظ أولي الأمر في الآية الشريفة ومثلها كلمة منهمفي الآية: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ**

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص١٨١ ونسبه إلى بعض الصلحين: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرئاسة. الفتوحات المكية، ج١ ص٤٠٩ و ج٤ ص٤٥٥ ونسبه إلى القيل/ المحقق.

أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ (١) ليدل على أن أولي الأمر ليسوا من المعصومين بل هم أناس عاديّون شأنهم شأن غيرهم من الناس وقد نالوا نوعاً من الزعامة والولاية على الناس.

لأن هذين القيدين «منكم» و «منهم» ذكر لنفس النبي أيضاً كما قال سبحانه: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ (٢).

﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ (٣).

وعلى أية حال فإنَّ إطلاق وجوب الطاعة لأولي الأمر في كلام الوحي أكبر دليل على لزوم العصمة لهم.

وأيضاً ينبغي أن يفسر النزاع أو الجدال المذكور في الآية على أنه نزاع بين المؤمنين أنفسهم وليس بينهم وبين أولي الأمر لأنّه بعد أن ثبتت طاعتهم بصورة مطلقة فمن البديهي يكون النزاع معهم ومخالفتهم حراماً.

وبصرف النظر عن هذا فإن خطاب ﴿**فإن تنازعتم في شيء**﴾ قطعاً هو الخطاب مع الذين خاطبهم الله بقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ و ﴿**أطيعوا**﴾ وهم المؤمنون أنفسهم.

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥١.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٢.

لا يقال: لو كان معنى التنازع في قوله تعالى:﴿**فإن تنازعتم في شيء**﴾ هو التنازع بين المؤمنين أنفسهم فلماذا قال:﴿**فردّوه إلى الله والرسول**﴾ عند نشوئه فجعل القضاء والفصل راجعين إلى الله ورسوله عند بروز النزاع وحدهما.

والجواب عن ذلك: أنه من البديهي أن أحكام الشرع منحصرة بالأحكام المذكورة في القرآن وسنة النبي(ص) وحينئذٍ يكون الرجوع إلى أولي الأمر عند نشوء النزاع رجوعاً إلى حكم الله وسنة رسوله في الواقع، ومهمة أولي الأمر في مثل هذه الحالات إنما هي مهمة المفسر والمبين لحكم الله وسنة رسوله لذلك لم يشر الله إلى الواسطة الذين يبلغون الأحكام وهم أولي الأمر لأن فصل الخطاب يتم بحكم الله وسنة رسوله والتبليغ لا يشكل ركناً أساسياً هنا.

أجل لما كانت الجملة في الآية الشريفة:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ تعتبر ذات جنبة تمهيدية ومقدمة لما بعدها قطعاً جاء التفريع عليها في الجملة التالية:﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ وجاء الأمر بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر في صورة نشوء التنازع وبروز الخلاف لإظهار حق ذلك من باطله وإضافة الجوانب المعتمة منه.

إذن يكون المراد من التنازع المذكور بالضرورة هو التنازع الحادث بين المؤمنين أنفسهم.

خلاصة المطلب:

بما أننا في الآية مورد البحث عرفنا أن وجوب إطاعة «أولي الأمر» مساوية لطاعة رسول اللهفي وجوبها وإطلاقها فإننا نفهم من هذا أن إطلاق وجوب إطاعة رسول الله مبنية على ملكة العصمةالتي أودعها الله فيه وبه نتوصل إلى نفس الفهم بالنسبة إلى أولي الأمر فإن إطلاق وجوب طاعتهممبني على العصمة المودعة فيهم من الله تعالى، وبناءً على هذا لا يكون أولو الأمر إلا الأئمةالمعصومين(ع)، ولا تصدق هذه الجملة على غيرهم بحال من الأحوال. وهؤلاء العظماء أنفسهم«آل إبراهيم» الوارد ذكرهم في الآية ٥٤ الذين آتاهم ملكاً عظيماً وجعله موكولاً بالطرف وبناه علىقانون دنيوي يظهر في صورة «فرض الطاعة» و «فرض الولاية» وطبع بهذا الطابع العظيم، وعلىهذا التقدير يظهر أن الآية الشريفة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِمِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌوَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (١) ، والآية الشريفة:﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَوَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٢) يعرفان كلاهما حقيقة واحدة ويعبّران عنها، وكلام الوحي هنايوجب طاعة تلك الفئة التي أثبت فرض ولايتها في آية الولاية وقد بين رسول الله(ص) هذه الحقيقةبياناً بعد بيان في «حديث الثقلين» وحديث المنزلة، وحديث السفينة وغيرها.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٥.

وعلى أية حال يتضح لنا في بياننا المتقدم أن كلمة «أولي الأمر» وإن كانت عامة بحسب الوضع اللغوي وتشمل جميع الحكام والأمراء والوجوه البارزة في المجتمع ولكنها في اصطلاح لغة الوحي الخاص لا تطلق إلا على الأئمة المعصومين، ولا يدخل تحت مفهومها كائن آخر غيرهم.

ولا يخفى على القارئ أنه كما مر بيان أن العصمة شرط أصلي في وجوب إطاعة أولي الأمر المطلقة التي أثبتناها في البحث القرآني السالف، فإن الروايات الشيعية رأت ذلك لازماً في القضية وقد ذكروا أن أولي الأمر جميعهم هم الأئمة، ولم يشذ عن ذلك شيعي واحد، وأنت لو بحثت كتب الحديث ظهراً لبطن لما وجدت رواية واحدة تطلق لفظ أولي الأمر على غير الإمام المعصوم من ثم أوجبوا إطاعته إطاعة مطلقة.

وبناءً على هذا فإن كل من أراد الاستدلال بوجوب إطاعة أولي الأمر على ولاية غير الإمام المعصوم فقد أضل الطريق وحرّف مفاد الآية الشريفة.

إلى هنا أنهينا البحث والتحقيق لتسع آيات مورد البحث من الآية ٥١ إلى الآية ٥٩ من سورة النساء والآن نبدأ البحث للآيات ٦٠ إلى ٩١ و ١٠٥ إلى ١١٦ و ١٣٦ إلى ١٤٧ من السورة نفسها وهي متصلة بتاريخ المنافقين في سورة النساء.

ونسأل من الله العون والتوفيق.

نزول الآيات ٦٠ ـ ٧٠ من سورة النساء في المنافقين المحترفين

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦) وَإِذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً (٧٠) ﴾.

نستخلص من الآيات الكريمة أمور:

أولها: أنّ صلة الآية الأولى وهي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ**

إلى الله وَالرَّسُولِ إنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَخَيْرٌ وَأحْسَنُ تَأوِيلاً﴾ بباقي آيات الفصل صلة واضحة لا خفاء عليها لأننا حين نشاهد الأمرالمذكور في الجملة الشريفة: **﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا الله وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولِي الأمْرِمِنْكُمْ﴾** قد اتخذ وضعاً تمهيدياً للتفريع المذكور في جملة**﴿فَإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهوَالرَّسُولِ﴾** والهدف الأصلي للآية فرض الطاعة وتحريم الاحتكام إلى الطاغوت ولزوم الرجوعإلى حكم الله ورسوله وعندئذٍ يكون الاتصال الوثيق للآيات التالية بهذا الهدف واضحاً وضوحاً تاماًبالضرورة.

ونلاحظ جيّداً أن الله تعالى بعد الآية الأولى (آية ٥٩) عرض لخطيئة تلك الفئة منالمسلمين الذين يريدون نفض أيديهم من رسول الله ورفع خصوصياتهم ونزاعاتهم إلى حكومةالطاغوت مع دعواهم الإيمان بالقرآن والكتب السماوية الأخرى (الآية ٦٠) ثم أعلن بصورةظاهرة عن إعراض المنافقين العلني عن الاحتكام إلى رسول الله(ص) وفنّد أعذارهم ورد عليهمادعاءهم الذي كانوا ينحتونه لتبرير أعمالهم (الآية ٦١ و ٦٢) وعقيب هذا الموضوع ترون الحقسبحانه ينص على وجوب إطاعة رسول الله(ص) بصورة مستمرة من أول الآيات مورد البحث إلىآخرها ويرغب المسلمين في الطاعة الكاملة لحكم الله وأمر رسول الله ويشجعهم على ذلك.

أجل ربما عرض لنا في القرآن الكريم مواضع منه تحث على وجوب إطاعة الله ورسوله(ص)في آيات متواصلة متصل بعضها

ببعض وتأمر بالإعراض عن الطاغوت وترتب النتايج الدنيويةوالأخروية على الاتباع التام للنبي(ص) ولكنها مواضع نادرة بالقياس إلى هذه الطائفة من الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ... يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُواإِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ... وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ... فَلا وَرَبِّكَ لايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ... وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُعَلَيْهِمْ﴾.

إنَّ هذا التشديد في الأمر بالنسبة إلى إطاعة الله ورسوله والإعراض عن الطاغوت في الآياتالتي عرضناها للبحث تدلنا على أن طائفة من المسلمين الذين لهم أثرهم الظاهر في المجتمع المسلمالجديد، قد جنحوا إلى الإعراض عن النبي والإقبال على الطاغوت وقد امتنعوا علناً عن الرجوع إلىالنبي وطلب حكومته في مسائل الخصومة والنزاع فنزلت هذه الآيات لردعهم ودفع شرّهم.

ثانياً: ينبغي أن تكون الطائفة المومى إليها من فريق «المنافقين المحترفين» هذا الفريق الذيتغلغل بأساليبه الخادعة في المجتمع المسلم وصار موضع الاحترام من أكثريّة عامّة المسلمين وبسطائهم ليكون بأعماله وسلوكه قدوة لهذه الأكثرية.

ولعلَّ أوضح دليل على كون هذا الفريق هو من المنافقين المحترفين قوله تعالى: **﴿الَّذِينَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾**ذلك أن المنافقين العاديين لا يرون أنفسهممن المؤمنين

بالكتب السماوية المنزلة قبل القرآن أبداً. وهذه العقيدة مختصة بالمنافقين المحترفينالذينيتصدرون الأحداث كما يتصدرون مجالس النبي(ص) دائماً ويرون أنفسهم المؤمنين الواقعيين بالله تعالى ويرونالنبي باستثناء الآيات المنزلة عليه إنساناً عاديّاً نظير غيره من بني البشر يصدر منه الخطأ مثلهم وبناءًعلى هذا أسقطوا من الاعتبار جميع الروايات الدالة على نزول هذه الآيات في المنافقين العاديينأمثال معتّب بن قشير، وجلاس بن الصامت وغيرهما وعدّوها روايات موضوعة.

والملفت للنظر هنا أن بعض الروايات الشيعية اعتبرت الزبير بن العوام من الفريق الذي نزلتفيه الآيات التي عرضناها للبحث كما قال علي بن إبراهيم القمي بشأن نزول الآية ٦٠ :

إنّها نزلت في الزبير بن العوام فإنّه نازع رجلاً من اليهود في حديقة فقال الزبير: ترضى بابنشيبه اليهودي؟ وقال اليهودي: ترضى بمحمد؟ فأنزل الله: ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بماأنزل إليك وما أنزل من قبلك. الآية(٢) .

نعم، بعد ما اتضح أن الآيات السالفة نزلت في المنافقين المحترفين فإن الروايات العاميةالأخرى التي رويت في الموضوع نفسه لا أساس لها وإليك نموذجاً من هذه الروايات نذكرها كمايلي:

أ ـ أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبّان والبيهقي من طريق الزهري، أن عروة بن الزبير حدث عن الزبير بن العوام أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع رسول الله(ص) إلى رسول الله في شراح من الحرّة كانا يسقيان به كلاهما النخل فقال الأنصاري: سرح الماء تمر، فأبى عليه، فقال رسول الله(ص): اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله إنْ كان ابن عمك فتلوّن وجه رسول الله(ص) ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر ثم أرسل الماء إلى جارك، واسترعى رسول الله للزبير حقه وكان رسول الله(ص) قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه السعة له وللأنصاري فلما أحفظ رسول الله الأنصاري استرعى للزبير حقه في صريح الحكم فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. الآية(١).

نُلاحظ هنا أن عروة بن الزبير أساء إلى ساحة النبي القدسية بنسبة الشهوة والغضب الشخصيّ إليه لرفع معنوية والده الزبير بن العوام [أحد المنافقين المحترفين الذين كشفنا عن هويّته بوضوح فيما سبق من الكتاب] ولا يهمه بعد ذلك التضحية بالنبي من حيث نسبته إلى الأغراض الشخصية والجنوح مع الهوى.

---

(١) الدر المنثور، ج٢، ص١٨٠.

نعم إنَّ صاحب العقل والإنسان ذا اللب يعلم أن عروة ابن الزبير أراد أن يقلب الواقعة بنفعوالده فوضع حديثاً يزعم فيه أن الآية:﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ ...**﴾نزلت في تأديبخصم الزبير ولكنّ العاقل يدرك أنّها تماماً بعكس هذه المزعمة وأن الزبير نفسه لم يرضخ لحكمالنبي(ص) وأن ما قاله علي بن إبراهيم بشأن نزول الآية صحيح لا ريب فيه.

ب ـ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود قال: اختصمرجلان إلى رسول الله(ص) فقضى بينهما فقال الذي قضى عليه ردّنا إلى عمر بن الخطاب فقالرسول الله(ص) نعم انطلقا إلى عمر فلما أتيا عمر قال الرجل: يا ابن الخطاب قضى لي رسول الله(ص) على هذا فقال: ردّنا إلى عمر فردّنا إليك فقال: أكذبك؟ قال: نعم.

فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فاقضي بينكما فخرج إليهما مشتملاً على سيفه فضربالذي قال ردنا إلى عمر فقتله وأدبر الآخر فاراً إلى رسول الله فقال: يا رسول الله قتل عمر واللهصاحبي ولولا أني أعجزته لقتلني! فقال رسول الله(ص): ما أظن أن يجترىء عمر على قتلالمؤمنين، فأنزل الله: فلا وربك لا يؤمنون الآية، فهدر دم ذلك الرجل وبرأ عمر من قتله فكره اللهأنْ يسنّ ذلك بعد فقال: ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم إلى قوله ـ أشد تثبيتاً.

وفي حديث آخر له صلة بنفس الحكاية، أنهم بعد ردّهم قضاءً قضاه النبي(ص) بدأوا بأبي بكرثم ثنوا بالرجوع إلى عمر وبعد قتل

ذلك الرجل بيد عمر نزل جبرئيل من السماء يحمل من الله لقب«فاروق» لعمر بن الخطاب.

إنَّ واضعي أحاديث كهذه الأحاديث في الوقت الذي أرادوا أن يضفوا على الحزب الحاكمدرجات رفيعة ومقامات عالية وأن يرفعوهم في حياة رسول الله إلى عرش﴿ **أُوْلِي الأَمْرِ** ﴾ أرادواكذلك أن يظهروا للناس أنَّهم حتّى في عهد النبي كانوا ملجأ الأمة ومفزعها وأن القضاء موكول إليهممن قبل النبي(ص) وسائر الناس، ولما كان الناس في الأعم الأغلب همجاً رعاعاً بمنأىً عنالمعارف الإسلامية اتخذوا في أحاديثهم الموضوعة رؤية المثل القائل: «أراد أن يصلح حاجبهفأعمى عينه» ذلك أنهم رووا لرؤساء حزبهم نقائص تثبت أنهم بصريح القرآن من أهل النار.

خذ على سبيل المثال الرواية السالفة القائلة بأن عمر بن الخطاب ارتكب خطيئة القتل العمدلمؤمن وكان النبي(ص) قد نفى عنه قتل مؤمنين اثنين عمداً وبناءً على ما تقدم من هذا الحديث أنَّ عمر ارتكب ذنب قتل مؤمن عمداً وبحكم الآية التالية يكون مخلداً في النار: ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناًمُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾(١).

فلو قيل: إن في هذه الرواية ورد نزول هذه الآية بعد الواقعة: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىيُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ فهي تنفي الإيمان عن الرجل المقتول بيد عمر.

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

فإننا نقول: إنَّ إيمان المقتول الظاهري قبل نزول الآية مقطوع به ومسلم به فلماذا قدم عمر على قتل رجل يحكم الإسلام بإيمانه وإن كان ظاهرياً ويعد من المسلمين، نقول إن الرجل كان منافقاً وعلى فرض نفاقه فهل أن المنافق يقتل في حكم الإسلام وإنْ كان قتل المنافقين العاديين من الفروض الإسلامية فلماذا لم يقتل النبي أحداً منهم؟!

وأقبح من كل ذلك ما أعلن في آخر الحديث من أنَّ الله كره أنْ يكون عمل عمر سنة يقتفيها الآخرون لذلك أنزل قوله تعالى:

﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ...**﴾ الآية.

فإنْ كان ما فعله عمر سنة حسنة فلماذا لا يقتدي به المسلمون وإنْ كان عملاً قبيحاً فلماذا يعتبر من مناقب عمر ثم لنسئل ما هي الصلة بين هذه الآية الشريفة: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**﴾ وبين كراهة الله أن يكون قتل عمر سنة يقتدي بها المسلمون.

وعلى أية حال فقد ظهر لنا في تفسير الآيات المبحوث فيها كيف قدّمت «هيئة وضع الحديث لجهاز الخلافة» فريق المنافقين المحترفين وسعت بالأحاديث الموضوعة أن تبرأ ساحتهم من التأنيب الوارد في الآيات المذكورة.

وفي قبال ذلك يرفعونهم إلى سدّة أولي الأمر في عهد رسول الله(ص) .

ولكن مع قطعنا بأنّ الآيات السالفة نزلت في «المنافقين المحترفين» لم يبق شك بأنّ رؤوس المنافقين شملهم التقريع والتأنيب المذكور في الآيات السالفة لهذا عمدت «هيئة جهاز وضع الحديث للخلافة» إلى دفع ذلك عنهم وصيانة ماء وجوههم بما وضعت وكان هذا غرضاً رئيساً لها.

ثالثها: كما مرّ في البحث القرآني المتصل بالآية (٥٩) آنفة الذكر أنَّ لفظ «أولي الأمر» في اصطلاح لغة الوحي والسنة القطعيّة لا تطلق إلا على الأيمة المعصومين فحسب، وهؤلاء الذوات المقدسة جعلت من قبل الله تعالى ملجأ للمؤمنين ومأوىً لهم ويأتي دورهم في المرتبة الثانية بعد النبي(ص) فقد أمر المسلمون بالرجوع عند حدوث الخلاف بينهم أو في المسائل التي يجهلونها إليهم لفض الخلاف ورفع الجهل.

وبناءً على هذا نقول: كما أوجبت الآية الشريفة ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ إطاعة النبي على كلّ مسلم في ظاهره وباطنه فيما يخص جسمه ويتصل بمسائله النفسيّة، ومن لم يصل إلى مرحلة التسليم القلبي للنبي بوجه تام فإنّه لم يبلغ الإيمان الواقعي به وينسلخ منه إلى النفاق فإن هذه الصورة نفسها صادقة مع أولي الأمر أي «الأئمة المعصومين» فمن أنكر واحداً منهم ولم يبلغ مرحلة التسليم التام أو قدم غيرهم عليهم أو ساواه بمنزلتهم فإنه لم يتوصل إلى الإيمان الواقعي حينئذٍ ويكون من أهل النفاق.

رابعها: أن الدقة في مفهوم الآية الشريفة: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ والآية الشريفة: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾ تجعل المرء في حيرة من أمر التوصل إلى إدراك المعنى الواقعي للإيمان والمصداق الحقيقي للمؤمن لأنّه كما تلاحظون أن الآية الشريفة ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ لم تطبع إيمان امرىء بطابع الصحة إلّا إذا كان مسلماً تسليماً مطلقاً للنبي من الناحية القلبية، ولا يخامر باطنه إحساس بالتبرم والضيق حتى من أشد أحكام النبي عسراً ويتقبلها راضياً مغتبطاً ويعلم يقيناً أنها الحق لا يصح العدول عنها وإنْ كانت شديدة على القلب صعبة القبول فهل يمكن وجود هذا النوع من الناس أو يمكن لإنسان أن يقع عليه حكم شديد الأثر قاسياً ثم هو يتقبله راضياً دون أن يحدث في نفسه ضيقاً أو تبرماً؟! ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**﴾ وفي الحقيقة أن إيماناً كهذا لا يتأتى إلّا بين الحبيبين وأن المحب وحده لا يتبرم بأمر حبيبه الذي ملك عليه شغاف قلبه، ويتدله بحبه ويشعر في قرارة نفسه أنه يهيم وجداً به وبكل ما يمت إليه بسبب أو نسب حتى التكاليف الشاقة.

أجل هؤلاء هم المؤمنون الواقعيّون الذين يرثون الفردوس ويصافحون أهل الصراط المستقيم ويقيمون معهم من قبيل الأنبياء

والصديقين والشاهدين على الأعمال والصالحين.

﴿ومَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾.

إلى هنا أنهينا البحث والتحقيق في الآيات ٥٩ إلى ٧٠ من سورة النساء ونقول عوداً على بدء:إن التحقيق فيها كشف لنا بصورة جلية أن اتجاه القول في خضم هذهِ الآيات، كان حول «المنافقين المحترفين» فلننظرفيما تبقى من الآيات لندرك اتجاه القول فيها يتناول أي فريق من الفرقاء المعنيين.

البحث في الآيات ٧١ ـ ٩١ من سورة النساء وأنها نزلت في المنافقين المحترفين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤) وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (٧٩) مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ

فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٨١) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦) اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (٨٩) إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (٩١) ﴾.

كان هذا عرضٌ للآيات (٧١ إلى ٩١) من سورة النساء والآن نعالج بالتحقيق مفادالآيات والغرض الأساس من نزولها فنقول:

لما كانت الآيات أعلاه آخذ بعضها برقاب بعض وهي من جهة السياق الواحد تتصل فيما بينها اتصالاً جدّ وثيق من هنا نعلم بأنها نزلت في مصاديق متحدة وأن التوبيخ المذكور فيها يختصبجماعة معينة وفريق خاص ولكي ندرك القوم الذين عنتهم الآيات ونزلت فيهم والفريق الذي تشيرإليه الآيات بصفة ثابتة فعلينا أن نصل إلى ذلك من أحسن السبل وأولاها بالتحقيق وذلك باستدلالصفاتهم وخصوصيّاتهم من الآيات آنفة الذكر حتى يكون تعيين المصاديق علينا سهلاً ميسوراً.

والصفات التي بينتها الآيات للفريق المعني هي على النحو التالي:

أولها: أن الفريق المذكور مؤمن «بالله» يتقبله ويثبت له مقام الربوبية، حيث يستفاد هذا الأمرمن جملة «قد أنعم الله عليّ» المذكورة في الآية (٧٢) وجملة «قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال»الوارد في الآية (٧٧) وجملة وأن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله الواردة في الآية (٧٨)بصورة جلية.

ونحن نلاحظ في الجملة الأولى: أنهم اعتبروا لطف الله يعمهم وحدهم وأدلوا بذلك بغروربيّن.

وفي الجملة الثانية رفعوا عقيرتهم بقول «ربّنا» وفي الجملة الثالثة: اعترفوا أنّ النعمة التيتصيبهم هي من عند الله سبحانه.

ثانيها: تجدهم خلافاً للمؤمنين الواقعيين الذين يؤمنون بالله وإلى جانب ذلك يوالون رسول‌الله ويحبونه ويبذلون له الود والطاعة التامة، ولكن هؤلاء لا يهتمون بأمر النبوة ويتدخلون في‌الشؤون الخاصة بالنبي ويدسون آنافهم في مسار الدعوة ويخالفون عن أمره ويرون ذلك غير ملزم‌لهم وصفة لهم أخرى هي تدخلهم فيما يخص أمن المسلمين وخوفهم ودعتهم دون الرجوع إلى‌أوامر النبي(ص). يظهر ذلك واضحاً في الجمل الشريفة التالية من الآيات: «وإن تصبهم سيئة يقولواهذه من عندك» الواردة في الآية (٧٨) والجملة: «بيّت طائفة منهم غير الذي تقول» الواردة في‌الآية (٨١) والجملة: «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به» الوارد في الآية (٨٣) يتجلى‌لنا مما تقدم أن هؤلاء وضعوا بين الله وبين رسوله حداً فاصلاً، فلم يثبتوا للنبي أيّ امتياز اللهم إلا‌تلقي الوحي والتبليغ به ولا مانع لديهم من حلول غيره محله في هذا الأمر، واعتبروا النبي كأحدهم‌يجوز عليه الخطأ والاشتباه، لذلك نرى الآية التالية كذبتهم حول ذلك بصورة علنية بقوله تعالى:﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً**﴾ تنص هذه الآية على أن‌طاعة رسول الله لا تفترق عن طاعة الله ومن فرّق بين النبي وبين الله فقد ارتكب إثماً مبيناً.

ثالثها: أن الفريق هذا مع كونه داخلاً في عداد المسلمين ولكن لغة الوحي لم تصنّفه في‌المؤمنين الواقعيين ولم يصدق إيمانهم ولم يصدّقهم الوحي عليه.

وهذا الموضوع مضافاً إلى الإشارات الخاصة به التي تخللت الآيات التي جرى التحقيق عنها فإنَّ الآية التالية تحقيقاً أثبتت ذلك عنهم:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً﴾.

نلاحظ هنا أنَّ الآية آنفة الذكر تأمر النبي(ص) بالقتال بنفسه لا التكليف عليه وحده وبأمر بتحريض المؤمنين على قتال العدو معه (تنهاه عن الاعتماد على الفريق المنافق وأن يشغل نفسه بهم).

ويتجلى لنا من خلال هذا الإدراك أن أصحاب هذه الصفات عراة من خلقية الإيمان، وأنهم يعيشون في نفاق متجذر في المجتمع بحيث لا يترك تحريض النبي وترغيبه أثراً في نفوسهم وعلى النبي أن يتركهم لنفاقهم مع الحذر منهم مضافاً إلى ذلك أن البرهان حين أثبت خلوهم من الإيمان أنّهم يرفعون عقائرهم بنداء (ربنا) وضمناً لا يهتمون بأمر النبي ولا يعتنون به وأقبح من ذلك عقدهم الاجتماعات ليلاً للتدبير في رد أوامر رسول الله ومخالفته، يتضح من هذا كله بما لا يقبل الشك بل الجزم واليقين أن القوم من المنافقين المحترفين.

لأنَّ المنافقين العاديين مازالوا موالين لاعتقادهم الأول من الوثنيّة وعبادة الأصنام السابقة في الوجود على الإسلام فلا يؤمنون بالربوبيّة المطلقة وهناك أمر آخر وهو أن المنافقين العاديين لما كانوا شرائم متفرقة لا يشدهم إلى بعضهم البعض نظام خاص بجماعتهم ثم هم في عيون المؤمنين بل حتّى أقرب الناس إليهم أذلاء صاغرون،

فلاقدرة لهم في وضع المخططات وإدارة الاجتماعات الليلية للتدبير ضد رسول الله وضد أوامره وتشريعاته.

خلافاً للمنافقين المحترفين الذين باجتماعهم على خوان الدين ومواصلتهم الضرب على وتره وترديدهم لكلمة الله والرب، وتظاهرهم بالحرص على مصلحة المسلمين صاروا عند حديثي العهد بالإسلام من الوجهاء في الملة ووجدوا نفوذاً دينياً لهم بين عوام الناس من المسلمين ولما كان لهم نظام حزبي ولهم عديد وعده وسلوك متميّز استطاعوا الوقوف في وجه النبي(ص) ورد أوامره ومخالفة نواهيه، وإعلان العصيان أحياناً مع النبي(ص) .

[فيما سبق بيّنا الوجوه التي تميّز بها المنافقون المحترفون عن المنافقين العاديين وللاطلاع التام على المطلب المذكور عليكم بالرجوع إلى هذهِ المواضع من الكتاب].

وعلى أية حال، لما ظهر لنا من التنبيهات المتقدمة أعلاه أن الآيات (٦٠ إلى ٧٠ من سورة النساء(نزلت في المنافقين المحترفين، فإن الآيات التي وقعت موقع البحث أيضاً نزلت في الجماعة نفسها مع فارق واحد هو أن الآيات الأولى تضمّنت إعراضهم عن النبي ووبّختهم على طلب الاستقضاء عند الطاغوت وتقديم حكمه على حكم النبي ونفورهم من حكم النبي(ص).

وهذه الآيات كشفت عن نزوعهم إلى ترك الجهاد والتخفف من أعبائه وإيجاد المعاذير لهم للتخلف عن حضور المواجهة مع الكفار.

رابعها: يظهر من الآية التالية ظهوراً جلياً أن المنافقين المحترفين الذين سلف الحديث عنهم‌هم من طبقة المهاجرين: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّاكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾.

زيادة إيضاح:

الآية أعلاه أظهرت إحدى الخصوصيات الثابتة للفريق المذكور على النحو التالي:

أنهم كانوا يطلبون القتال مع الكفار ويهمون بالقيام به دون أن يؤمروا وأنّ نبيّهم قدْ أمرهم‌بترك ذلك وبإقامة الصلاة وأداء الزكاة ولكن لما وجب عليهم القتال عزّ على عدة منهم تقديم‌أرواحهم وكانوا يخشون العدو أكثر من خشيتهم الله تعالى واحتجوا علينا على أننا سارعنا في‌إيجاب الجهاد قبل أوانه.

وهنا يلح علينا سؤال أن القضية أعلاه ترتبط بمن؟ وتتصل بأي فريق من المسلمين؟!

وفي الجواب نقول: من المقطوع به أن الفريق المذكور لم يكن من مسلمي المدينة المعبّر عنهم‌بالأنصار، لأنّهم قبل هجرة النبي إليهم لم تكن لهم مواقف مع أهل الكتاب وهم اليهود الذين‌شاطروهم السكنى

حول دين الإسلام لكي يحملوا أنفسهم على جهادهم من دون إذن كذلك ليسَ لهم مع كفار قريش مواجهات حادّة وأما بعد الهجرة فلم يطل بهم المكث حتى نزل وجوب الجهادمن الله بصورة رسمية ولم تتح الفرصة يومها للأنصار بالتفكير في الجهاد المتسرع غير المأذون بهفضلاً عن ممارسته.

إذن بالقطع واليقين أن مصداق الآية ومورد التوبيخ والتقريع فيها هم فريق من المسلمينالمتواجدين في مكة القاطنين فيها والذين هاجروا بهجرة النبي إلى المدينة ووجب عليهم القتالأيضاً كغيرهم من المسلمين وأمروا بمناوشة الكفار القتال.

والآن لنمعن النظر في الروايتين التاليتين لنعرف نوعية هؤلاء الأفراد:

١ ـ أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه البيهقي في سننه من طريقعكرمة عن ابن عباس: أنّ عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبيّ(ص) فقالوا: يا نبيّ الله كنا فيعز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم.

فلمّا حوّله الله إلى المدينة أمره الله بالقتال فكفوا فأنزل الله: «ألمتر إلى الذين قيل لهم كفّواأيديكم» الآية.

٢ ـ أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: كان أناس منأصحاب النبي(ص) وهم يومئذ بمكة قبل الهجرة يسارعون إلى القتال فقالوا للنبي(ص): ذرنا نتخذمعاول

فنقاتل بها المشركين، وذكر لنا أن عبد الرحمن بن عوف كان فيمن قال ذلك فنهاهم نبيّ اللهعن ذلك قال: لم أؤمر بذلك. فلما كانت الهجرة وأمروا بالقتال كره القوم ذلك وصنعوا فيه ما تسمعونقال الله تعالى: «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتّقى ولا تظلمون فتيلاً».

[سيكون بمستطاعكم بحث الروايات ومطالعتها في «الدر المنثور»(ج ٢ ص ١٨٤) فيتفسير الآية مورد البحث].

وأنتم تلاحظون أن هذا الفريق هو عبارة عن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه اللصيقين بهويعرف الجميع أصحابه أنهم من المنافقين المحترفين ومن طبقة المهاجرين، وأنهم حين كانوا قبلالهجرة إلى المدينة وقبل أن تتوفر لهم شروط الجهاد ويكتسبوا القوة والمنعة تحمسوا للقتال من عندأنفسهم، دون أن يؤذن لهم ولكنهم بعد الهجرة تقاعسوا عن القتال مع أن ظروف الجهاد مواتية،وتكدّروا من وجوبه عليهم، كل ذلك يرشدنا إلى أن حماسهم الأول لم يكن للدين والإيمان وإنماكان تعصباً لأنفسهم ضد المشركين الذين ثلبوا أعراضهم واستهانوا بهم وامتهنوهم، واستعلوا عليهموتكبّروا.

كما تظهر ذلك لنا الجملة الواضحة في الرواية: «كنّا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرناأذلة» وتؤكد المعنى الذي جلوناه لكم، وإلّا لو كان اندفاعهم الأول للقتال حماية للإسلام ودفاعاعنه وذهاباً به نحو التقدم والعلو فإن الأمر بعد الهجرة انقلب والأحوال تغيّرت وأصبحت الظروفللجهاد جد مساعدة وينبغي عليهم حينئذٍأنْ يستبشروا بذلك ويسروا بوجوب الجهاد وصدور الإذنبمقاتلة الكفار

وأن يعلنوا بالغ استعدادهم للقتال بجد وجذل كمقداد بن الأسود الذي أظهر ذلك من نفسه وأبان عن شوق زائد وعلاقة مفرطة للمواجهة مع المشركين ومثله فعل المؤمنون الواقعيون ووقفوا موقفه في وقعة بدر وهي المواجهة الأولى للإسلام مع الكفار بصورة رسميّة ورأينا على العكس منهم أبا بكر وعمر بن الخطاب وسائر إخوانهم حين أظهروا السخط من هذه المواجهة وتكدّرت خواطرهم واشتدوا على النبي ليحملوه على ترك القتال على كل حال.

ارجعوا مجدداً إلى مختصر تاريخ المواجهة مع الكفار في غزوة بدر من «القسم الثامن» من الكتاب وطالعوه بدقة ليثبت لكم صدق ما ذهبنا إليه.

وعلى أية حال تجلى لنا من البحث في الآيات التي عرضناها للبحث أنها نازلة في المنافقين المحترفين بخاصة المهاجرون منهم وأنها وبّختهم توبيخاً حاداً لاعراضهم عن القتال وتهربهم من أعبائه وتظهر هذه النكتة مضافاً إلى الاستخراج الذي أقمناه بالنسبة للآية (٧٧) من الآية الشريفة التالية ظهوراً بيّناً: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً**﴾ لأنّه من المقطوع به أن القرية الظالم أهلها هي مكة والآية آنفة الذكر تهيج المسلمين ليقاتلوا كفار قريش. ويعملوا على نجاة مستضعفي تلك المدينة من قبضة ظالمي قريش ومستبدّيهم ومن المعلوم أن الأنصار ومثلهم

المؤمنون الواقعيّون (مثل علي بن‌أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث ومصعب بن عمير والمقداد بن الأسود وعماربن ياسر وغيرهم) ليس لديهم مانع يمنعهم من قتال كفار قريش، إنّما كان المانع لدى أولئك‌المنافقين المحترفين من طبقة المهاجرين (نظير أبي بكر بن أبي قحافة، عمر بن الخطاب، عبدالرحمن بن عوف) ومن شابههم من إخوانهم الموافقين لهم في الرأي والعقيدة، الذين ما كانوا على‌استعداد لقتال يوقفهم وجهاً لوجه مع قادة قريش وزعماء المجتمع المكي.

[في المقطع الأول من القسم السادس عشر من هذا الكتاب كلام يرتبط بإقامة العلاقات‌السياسية بين فريق المنافقين المعهود وكفار قريش وبيان العلة الأصلية لأمثال هذا الميل والجنوح‌إلى جهة الكفار فمن أراد جلاءً أكثر فليرجع إلى هناك].

وفي الختام نركز على نكتتين ونرى ذكرهما من الأمور الضرورية للبحث:

النكتة الأولى:

بعد الذي كشفناه من أن الآيات التي عرضناها للبحث نزلت في ذم وتوبيخ المنافقين‌المحترفين وتقريعهم لا سيّما المهاجرون منهم فإن مفاد الآية التالية والغرض الواقعي من نزولهايتضح أكثر وأكثر:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْلَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ

وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلّا قَلِيلاً﴾.

زيادة إيضاح:

فيما مضى ثبت لنا أن كلمة «أولي الأمر» في الاصطلاح الخاص بلغة القرآن تطلق على الأئمةالمعصومين من آل محمد(ع) وبناءً على هذا فإن الذم والتقريع المذكور في الآية أعلاه مرتبطبالمنافقين المحترفين لا سيما قادتهم من المهاجرين وبهذا يتضح أن المنافقين المحترفين المتحدثعنهم لما كانوا كارهين للقتال مع الكفار ويخالفون النبي في مواجهتهم سراتهم من ثم راحوا يشيعونالأخبار التي تصلهم من موضوعة وغير موضوعة في جماعة المسلمين وذلك لما في قلوبهم منالأمراض وما ينطوون عليه من الأغراض ليثبطوا الهمم ويضعفوا العزائم ويحدثوا ارتباكاً فيالجماعة المسلمة المقاتلة حتى يعرضوا عن القتال ويتم للمنافقين ما أرادوا وفي هذا الموضوع أكثرالوحي من لومهم وتوبيخهم فقال: ﴿**وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَىالرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ الآية، ويميزوا الصادق من الكاذبمن الأخبار التي تصلهم وبناءً على هذا أن المعنيّ بلفظ «لعلمه الذين يستنبطونه منهم» الوارد فيالآية ليس غير النبي(ص) والإمام علي بن أبي طالب(ع) لأن هذين السيدين العظيمين لم يكن أحدغيرهما عند نزول الآيات يستطيع إجراء عملية الاستنباط وأن يكون مرجعاً دينيّاً للمسلمين أجللما تيقنا أن كلمة﴿**أُولِي الأَمْرِ**﴾ المذكورة في الآية هي نفسها أولوا الأمر

المذكورة في آية فرض الطاعة وفي بحثنا حول آية «فرض الطاعة» أدركنا أن لا مصداق تنطبق عليه هذه الآية إلّا الأئمة المعصومون من آل محمد(ص) وهؤلاء العظماء هم الجماعة التي بمستطاعها أن تكون مصداق «آل إبراهيم» لا غيرهم الذين صاروا محسودي أهل الكتاب.

إذن يتجلى لنا بصورة جيدة أن رسول الله(ص) والإمام علي يوم نزول الوحي بالآيات آنفة الذكر هما وحدهما المرجع لأهل الدين وصاحبا أهلية الاستنباط للأمور التي تعرض لمجتمع المسلمين.

والذي لا ينبغي أن يجهل: أنّ الإمام علي بن أبي طالب عرف قبل نزول «آية التبليغ» بأنّه المصداق المبين لكلمة «أولي الأمر» من هنا نفهم أن المعاصر لرسول الله في المجتمع المسلم هو علي بن أبي طالب لذلك عرف بأنّه أولوا الأمر وشهر بذلك.

أجل: إنّ صاحب الوعي والإدراك الفطن عندما يجد نفسه قبل نزول آية «فرض الطاعة» في قبال آيات تذكر فيها أعلى المقامات وأرفع الرتب المعنوية لعلي بن أبي طالب(ع) فإنه يدرك تبعاً لذلك أن علياً المعاصر لرسول الله(ص) هو الرجل الثاني بين المسلمين وأنه عرف بذلك واشتهر به على لسان الخاص والعام وعلى هذا ينبغي أن يكون ملجأ للمسلمين ومفزعاً لهم.

وأنتم عودوا إلى الآيات المذكورة في هذا الكتاب والتي ذكرت مع الأبحاث السابقة حيث تلقي الأضواء على شخصيّة الإمام علي بن أبي طالب(ع) حتى يثبت لكم صدق ما نقول «في القسم السادس من الكتاب» الذي قصرناه على الآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٧ من سورة البقرة

رأينا على الجانب الآخر للآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٧ وفي نقطة متقابلة لها تماماً وهي قد نزلت في نعت عمر بن الخطاب نجد نعت علي بن أبي طالب(ع) في الآية ٢٠٧ جاء على النحو التالي: ﴿**وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾.

في القسم التاسع من الكتب واختص ببحث الآيات ١٢١ إلى ١٨٠ من سورة آل عمران رأينا أنَّ علي بن أبي طالب بعد رسول الله(ص) أثبت الأفراد من فريق «الشاكرين وشهداء الأعمال» الحاضرين في غزوة أحد.

في «القسم العاشر من الكتاب» المختص ببحث الآيات ٩ إلى ٢٧ من سورة الأحزاب رأينا أنّ علي بن أبي طالب أعلى إنسان وأعظمه رفعة وامتيازاً وأسمى مؤمن حقيقي كان حاضراً في غزوة الأحزاب، ذكر على النحو التالي:

﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَابَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**﴾(١).

وفي الفصل الخامس من القسم «الحادي عشر من الكتاب» المختص بالتحقيق حول الآية الكريمة «آية التطهير» رأينا أن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسنين عرّفوا على أنهم أهل بيت العزّة والطهارة الذين سمت عصمتهم وطهارتهم على طهارة جميع الأنبياء

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣ ـ ٢٤.

والمرسلين وأصحاب الصراط المستقيم فكانت أعلى درجة وأرفع مرتبة.

أجل إن المجتمع المسلم في عهد رسول الله(ص) أدرك بعد نزول «آية التطهير» وهو يشاهدالنبي يقف على باب علي بترتيب مقصود ويرسل الصلوات تترى عليه وعلى زوجه الصديقة وشبليهعلى أنهم أهل البيت الذين نزلت فيهم الآية وعبرت عنهم بهذا اللفظ الشريف ثم يتلو آية التطهير رفعاًلمنزلتهم وإعلاناً لمقامهم أدرك هذا المجتمع أن ولديه الحسن والحسين هما الوارثان لمقام «أوليالأمر من بعده» بخاصة وأن هذا الإدراك متسق مع ما درجت عليه حياة العرب من كونها حياة قبلية اتساقاً تاماً.

بناءً على هذه الروايات التي رواها الفريقان عن رسول الله(ص) في تكريم علي وأولادهالطاهرين إلى الحد الذي تتفق متونها مع البحوث القرآنية السالفة وتخلو من العيوب الأخرى التيترويها الرواية، فإنّها مقبولة وإنْ كانت قبل نزول آية التبليغ وحكاية يوم الغدير.

وفي الحقيقة أن نزول آية التبليغ وحديث يوم الغدير في أواخر عمر النبي كانت له جنبة إلزاميةعرفية وتقرب من قوانين القبيلة وهو كبيعة الشجرة التي جرت بعد صلح الحديبيّة على أثرالمضايقات التي أجراها عمر بن الخطاب وأعوانه بسبب عقد قرار الصلح فأخذ النبي عليهم البيعةلئلا يخالفوه بعد ذلك ويسلموا لأمره تسليماً، ومما يؤسف له ويحز في النفس أن عمر بن الخطابوأصحابه وأعوانه لم يهتموا بأمر البيعة أيضاً، وواصلوا مخالفاتهم لرسول الله بعدها وأوضح

نموذجلمخالفاتهم ما فعلوه في بعث أسامة وتخلفهم عن اللحاق به وما ردّوا من الكتاب الذي طلبه النبيليكتبه لهم حتى لا يضلوا بعده [حوادث صلح الحديبية ذكرت في المقطع الأول من القسم السابععشر من الكتاب فارجعوا إليه هناك].

النكتة الثانية:

لابدَّ من ا لعلم بأن ثلث الآيات الأخير التي عرضناها للبحث (يعني من الآية ٨٥ إلى ٩١ منسورة النساء) مع أنها نزلت في تأنيب المنافقين وتقريعهم وبيان سوء أفعال المنافقين المحترفينفإنها في نفس الوقت ترتبط بجماعة من «المنافقين العاديين».

توضيح ذلك:

بعد أن بيّن الله تعالى الأثر الذاتي «للشفاعة الحسنة» و «الشفاعة السيئة» في الآية ٨٥وأوجب ردّ التحية بأحسن منها أو مثلها في الآية ٨٦ وأخبر عن يوم الجمع وأن الله سبحانه يجمعالناس يوم القيامة ويجزيهم بأعمالهم في الآية ٨٧ جعل الآيات التالية متفرعة عما تقدمها منالآيات فقال:﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُوَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْأَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْوَلِيّاً وَلا نَصِيراً * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ**

صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾.

يظهر من الآيات أعلاه بخاصة من الآيتين (٨٩ ـ ٨٨) بوضوح أن عدداً من الكفار قدموا المدينة وشهروا إسلامهم عند النبي ثم رجعوا إلى قومهم وأعانوا الكفار منهم على كفرهم وكان ذلك سبباً في طروا الاختلاف بين المسلمين من أجلهم فرأى جماعة من المسلمين أن إسلامهم السابق مدعاة للعناية بهم واحترامهم ولم ترَ هذه الجماعة جواز قتالهم وخالفت في شن الحرب عليهم ولكن المؤمنين الآخرين رأوا أن تعاونهم مع المشركين بعد إسلامهم دليل على كفرهم فاعتبر الله قتالهم أمراً لابدَّ منه فكان نشوء اختلاف على هذا السبيل سبباً في نزول الآيات آنفة الذكر، وتقريع الجماعة المدافعة عنهم بشدّة وتكذيبهم.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾.

يدلُّ سياق الآيات مورد البحث ومثلها الآيات المؤنبة والمقرعة أعلاه بقيودهما الخاصةدلالة واضحة على أن الجماعة المدافعة هي نفسها «المنافقون المحترفون» من طبقة المهاجرينوالمنافقون الذين شملتهم حمايتهم هم من كفار أهل مكة وقد استقروا في حمى هذهِ الجماعة.

ذكر الطبرسي في ذيل الآية «فما لكم في المنافقين فئتين...»عن مجاهد والحسن بشأن نزولهما الرواية التالية:

«نزلت في قوم قدموا المدينة من مكة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا إلى مكة لأنّهماستوخموا المدينة فأظهروا الشرك ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة فأراد المسلمون أنْ يغزوهم فاختلفوا، فقال بعضهم لا نفعل فإنهم مؤمنون، وقال آخرون إنهم مشركون فأنزل الله فيهمالآية» (١).

هذا وإن لم تنسجم بعض الجملات الواردة في الرواية مع لحن التوبيخ والتقريع الشديدينالمذكورين في الآيات لكنها تؤيد المذهب السابق على كل حال، وهو أن المنافقين الذين وقعواتحت الحماية هم من منافقي أهل مكة العاديين وبالطبع فإن من حماهم هم المنافقون المحترفونمن طبقة المهاجرين وقد وقعوا تحت طائلة اللوم والتقريع والتأنيب على لسان الوحي في الآياتالسابقة.

---

(١) مجمع البيان، ج٢، ص٨٦.

وعلى هذا التقدير يتضح لنا أن الطائفتين اللتين منعتا من قتال المؤمنين في الآية ٩٠ هم ما عدا المنافقين العاديين المذكورين وحكم هؤلاء هو نفسه الوارد في الآية (٩١): **﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾**(١) وقد صدر الإذن في قتالهم.

إلى هنا نختم البحث والتحقيق في الآيات ٧١ إلى ٩١ من سورة النساء ونقول عوداً على بدء: إن الآيات (٦٠ إلى ٧٠) كما نزلت في المنافقين المحترفين فإنَّ الآيات المعروضة للبحث أيضاً نزلت في نفس الجماعة، والآن نواصل البحث في الآيات الباقية المختارة.

---

(١) سورة النساء: الآية ٩١.

الفصل الخامس
النكات الملاحظة في الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ من سورة النساء تدل على نزول تلكم الآيات في المنافقين المحترفين أيضا

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣) ﴾.

تبيّن لنا من الآيات السبع أعلاه بصورة واضحة أنّ جماعة من الخائنين ارتكبوا ذنباً ثم نسبوه إلى غيرهم وعمدوا إلى الاجتماع ليلاً للمداولة في إثبات ذلك وإحكام التهمة على غيرهم ونصب الحبائل ووضع التصاميم والخطط.

ثم يظهر من الآية ١٠٩ أيضاً أن جماعة من المسلمين أعلنوا حمايتهم للخائنين المعهودين وسعوا سعياً حثيثاً لإلقاء التهمة آنفة الذكر في عاتق أولئك الأبرياء الذين سبق ذكرهم.

وكذلك يستفاد من الآية ١١٣ أنّ جماعة معينة من حماة الخائنين سعوا جادين في تحويل النبي(ص) إلى جهتهم ليعلن دفاعه عن الخائنين المعهودين وحمايته لهم وبما أن الله تعالى تعهّد لنبيه بحمايته وصيانته فإن وسوسات تلك الجماعة لم تترك أيّ أثر في النبي(ص) وأدّت الحال إلى نزول الآيات التي تلوناها تواً.

من جهة أخرى فإننا نشاهد عدداً من المسلمين تزعموا الدفاع عن الخائنين وسعوا سعياً دائباً لكسب النبي إلى جانبهم وحمله على مشاركتهم في الدفاع عنهم من ثم نعلم علماً يقيناً أن لأولئك المدافعين وجهة اجتماعية بين المسلمين وأنَّهم محل احترامهم وتقديرهم لذلك كثر الدفاع عنهم.

ثم إن نزول الآيات يشعرنا اتكاءاً على مجموع ما قيل في المسألة إنَّما كان من أجل إشعار تلك الجماعة من المسلمين الذين مالوا إلى ناحية الخائنين المعهودين ببله وغفلة أو أن ذلك لغرض في نفوسهم ومرض في قلوبهم وراحوا يدافعون عنهم.

وعلى هذا التقدير نعلم من خطاب «ولا تجادل» المذكور في الآية ١٠٧ وإن كان موجهاً إلى النبي إلا أن له معنى «إياك أعني واسمعي يا جارة» والغرض الأساس من هذا الخطاب هو تنبيه تلك الجماعة من المسلمين الذين صاروا حماة ومدافعين للخائنين

المعهودين. وإلّا فكيف يكون من اللائق والممكن أن رسول الله(ص) يحمي ويدافع عن تلك الفئة التي نص القرآن على اتصافهابالرذائل: «خوان، أثيم، يبيّتون ما لا يرضى من القول، يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً و...»ويعلن حمايته لها والعياذ بالله ويقع بسبب ذلك البريء هدفاً لسهام البلاء والتهمة.

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىوَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِوَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾.

يجب أن يُعلم من الآيات الثلاث أمران:

أولها: أن الاستثناء المذكور في الجملة «لا خير في كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقة أو...»استثناء منقطع لأنَّ الذين وصفوا في كلام الوحي بقوله: «خواناً أثيماً» ينبغي أنْ لا تكون فيوجودهم نقطة مضيئة حيث وصفت خيانتهم وذنوبهم بصيغة المبالغة وبالصفة المشبّهة.

أجل إنَّ الكلمتين «خوان» و «أثيم» يدلان على أنّ الخيانة ملأت وجودهم وأنّ جرائمهممتصلة ودائمة. وبناءً على هذا المعنى فقوله: «إلّا من أمر بصدقة أو...» يأتي على شكل «لكن منأمر بصدقة أو...» والاستثناء المذكور لا يتضمن أية إشارة تكون صالحة

للخائنين المذكورين.

ثانيها: يظهر من الآية الشريفة: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾** وأن ظاهرها تعليل للجملة «نوله ما تولى ونصله جهنموساءت مصيراً» وتدل على أن الخائنين من أهل النار.

أقول: يظهر من الآية الشريفة بشكل واضح أن من شاق الرسول وخالفه وعاداه فقد أشركبالله ويحشر يوم القيامة مع القوم الذين أشركوا.

هذا ما كان من البحث الأولي في الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ من سورة النساء والآن نبدأ بالبحثالمعمق النهائي:

إنّ مجموع النكات التي استلّت من الآيات الاثنتي عشرة تدل على أنها أيضاً نزلت فيالمنافقين المحترفين لأنه:

١ ـ نلاحظ في الآية ١٠٧ أن الخائنين المعهودين جرى تعريفهم بكلمتين اثنتين «خوان» و»أثيم» أي بصيغتين هما: المبالغة، والصفة المشبهة، وهذا يفيد أن خبثهم بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه.

٢ ـ نرى في الآية ١٠٨ وصفهم بالجملة «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله» وفيهاإشارة إلى تلونهم بذي وجهين لخداع العوام والمغفلين وفي جملة «وهو معهم إذ يبيّتون» إظهارلتكفلهم في اجتماعات ليلية على شكل خلايا وفيها يتناجون بالمؤامرات ووضع الخطط والتدابيرمن أجل هدفهم وتمريره وتركيزه.

٣ ـ وفي الآية ١٠٩ أنّها عرفت عدداً من المسلمين بدفاعهم عن الخائنين المعهودين وفيذلك دلالة على كونهم يتمتعون بحب الناس وولهم.

٤ ـ وفي الآيات ١١١ ١١٠ و ١١٢ ترون أن هؤلاء الخائنين فرضوا من المعتقدين باللهولذلك عرضت أعمالهم القبيحة على سبيل النصح والوعظ والإرشاد.

٥ ـ في الآية ١١٥ أيضاً تلاحظون أن كشف حالهم بلغ درجة أنهم أظهروا مخالفتهم للنبيوحقدهم عليه في نفس الوقت الذي تيقنوا فيه بهداية الله وألمّوا بها.

٧ ـ وأخيراً جعلت الآية ١١٦ حدود عداء المتظاهرين بالإسلام للنبي في حدود الشرك باللهواعتبرت ذنوبهم لا تغفر أبداً.

جميع هذه الخصوصيات هي نكات تدل عليها الآيات التي عرضت للبحث عن المنافقينالمحترفين.

وبناءً على هذه الحكاية أن الآيات التي عرضت للبحث (الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ من سورةالنساء) تبقى حاكية عن منافق أو عدد من المنافقين المحترفين الذين أجرموا أو خانوا ورموا بفعلهمهذا بريئاً ولما بلغ النبي ذلك هبّ المنافقون المحترفون لا سيما السراة منهم لحماية الخائنينالمعلومين وبحسب ما يتحلّون به من الصفات الشيطانية والنفوذ الذي يملكونه بين العامّة منالمسلمين ليجعلوا المناخ السائد طبقاً لضوابط الظواهر القضائية مماشياً لما يتمنّونه ويطمحون إليهليحملوا النبي على مناصرة الخائنين المعلومين لما كان النبي(ص) عالماً

بأعمالهم الشائنة ودخائلهم الخبيثة وخططهم المزورة.

ومن جهة أخرى رأى ضوابط الحكم قد رتّبت ونظمت على شكل ممالأ لهم وهو لا يريدخلافاً لضوابط القضاء بل ليس بالإمكان ذلك طلب من الله تعالى أن يظهر له الحق وظل يترقب نزول الوحي عليه بالحق الثابت، وفي محيط كهذا نزلت الآيات الشريفة المعروضة للبحث ودفعت بصدور الخائنين المعهودين والذين دافعوا عنهم وحموهم إلى الوراء وميّزتهم بأعمالهم في المجتمع المسلم حتّى عرفهم الخاص والعام.

والآن بعد اتضاح وضع الآيات المذكورة من وجهة نظر البحث القرآني سيظهر لنا تهافت الروايات التي وضعها «جهاز وضع الحديث المختص بدائرة الخلافة» بشأن نزول تلك الآيات وتسرّبت إلى الجوامع التفسيرية والحديثيّة ونحن نكشفها على النحو التالي:

نقل السيوطي في الدر المنثور (ج ٢ ص ٢١٥ إلى ٢١٩) ما مجموعه ثلاث عشرة رواية في سبب نزول الآيات التي عرضناها للبحث وحصروا الآيات في حكاية ذات أبعاد من النوع التالي: أنّ رجلاً من الأنصار ويدعى «بشير بن الأبيرق» ويكنّى أبا طعمه سرق من عم قتادة بن النعمان درعاً وطعاماً فجاء قتادة وبعض من أهل بيته إلى بيت السارق يلتمس بضاعته، فاتهم بشير شخصاً آخر بالسرقة ونفاها عن نفسه فأخبر قتادة النبي بذلك ورجاه في استرجاع ما سُرق من عمه، ولما علم أقرباء السارق بذهاب قتادة إلى حضرة النبي(ص) أقبلوا إلى النبي يقودهم قريب لهم يدعى «أسيد بن

عروة» وشكوا قتادة وعمه إلى النبي واتهموه بالافتراء بالسرقة على رجل صالح منهم وعادوامن حيث أتوا وأقبل بعدهم قتادة يستوضح الخبر من النبي(ص) فأنبه النبي تأنيباً شديداً لاتهامهرجلاً صالحاً بالسرقة دون أن يملك حجة عليه فعاد قتادة إلى عمه مطأطأ الرأس وأخبره بما جرى بينه وبين النبي(ص) فلجأ عمه إلى الله وطلب منه العون فأنزل الله الآيات المذكورة وفيها تأنيب بشير بن الأبيرق وأصحابه وأمر الله النبي أن يستغفره عما ناله من قتادة باللوم والتأنيب دونما سببـوهذا ملخص تلك الحكاية التي وردت مروية في ثلاث عشرة رواية وقد جمعها السيوطي منالجوامع الأولية وضبطها في تفسيره «الدر المنثور».

وأنتم تلاحظون أن الروايات خلت من وجود أثر للمنافقين المحترفين بصفة مطلقة وحلمحلهم رجل آخر يدعى بشير بن أبيرق وهو من الأنصار كما أنَّ المدافعين والذابين عنه هم من طبقةالأنصار القاطنين في المدينة مع أنَّ البحث القرآني أثبت أنَّ الآيات التي سبق بحثها ترتبط بـ «المنافقين المحترفين» وجلهم من المهاجرين ومن أهل مكة كذلك ولا صلة لهم بالمنافقينالعاديين.

وأما الأحاديث الواردة في تفسير السيوطي فإنّها مخدوشة من جهات عدة مضافاً إلىسقوطها عند عرضها على القرآن:

أولاً: لازم صحة الروايات أن النبي(ص) قضى بالحكم دون أن ينظر في بيّنة الطرفينودلائلهما وصحة الادعاء وسقمه وحاشاه من ذلك.

ثانياً: طبقاً لتلك الروايات يكون عصيان النبي مسلماً به وثابتاً.

ثالثاً: أن الروايات المذكورة بلغت بالآيات حداً بحيث تجاوز توبيخها «بشير بن الأبيرق»وأصحابه إلى رسول الله(ص) بحيث يظهر منها أن الذم والتوبيخ متوجه إلى شخص رسول الله(ص)نفسه.

رابعاً: أن الروايات المذكورة تتضارب فيما بينها مثلاً سمّت بعض الروايات صاحب المال»رفاعة بن زيد» عم قتادة بن النعمان بينما جاء اسم ابن الأخ في الروايات الأخرى «أبو طعمة بن الأبيرق» وفي بعضها الآخر أنه رجل يهودي، في بعض الروايات: أن السرقة يومها تمّت والقوم فيالحضر وفي موضع آخر أنّها كانت في إحدى الغزوات.

في بعض الروايات أن المتاع المسروق كان أمانة لرجل من الأنصار أودعها عند طعمة بنالأبيرق، وفي بعضها أنه نقد «لرفاعة بن زيد» عم قتادة.

وجاء ذكر المتاع المسروق على أنه درعان وسيف وشيء من الطعام وفي بعضها الآخر أنّه درع واحد.

وذكرت بعض الروايات أن المبرّأ هو «لبيد بن سهل» وفي بعضها الآخر أنه رجل من اليهودوفي بعضها أنه «أبو ملك الأنصاري» وغير ذلك.

والذي يؤسف له ويحز في النفس أن الروايات المذكورة تسرّبت إلى كتب الشيعة أيضاً منحديث وتفسير ويظهر عليها

الصحة عند من رواها أو جمعها في كتابه مع أن العيوب التي ذكرناهاسند ثابت على كونها موضوعة، أجل يجب الاعتراف وإن كان مرّاً بأنَّ الروايات الشيعية تتعرض لما تعرضت له روايات أهل السنة والجماعة وفي غير الموارد التي ميّزتـروايات المدرستين وأحاديثهما عن بعضها البعض من الاختلافات الأصولية فإنَّ في ما تبقى منهاتركت ثقافة الحديث السنّية أثرها الواضح. وهذا أمر يدعو إلى الأسى والأسف، ولذلك كما ينبغي أن يجري نقد هادف ومعمق للمتون الروائية السنية كما جرى بعض من ذلك في هذا الكتاب، فإنَّ المتون الشيعية أيضاً ينبغي أن يجري لها نفس النقد في تمام المجالات ومن هذا الطريق الدقيق يحكم بالصحة أو السقم عليها رواية رواية.

وإلى هنا ننهي البحث والتحقيق في الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ من سورة النساء.

ومن الجدير بالذكر: كما أن الآيات ٦٠ إلى ٧٠ و ٧١ إلى ٩١ أثبت البحث فيها نزولها فيالمنافقين المحترفين فإن البحث أعلاه أثبت بأن الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ نزلت في الفئة نفسها.

والآن نعود إلى بقيّة الآيات بالبحث والتقصي في الفصل القادم لبيان وجهة النظر فيها.

الفصل السادس
النكات الملاحظة في الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ من سورة النساء تدل على أنها أيضا نزلت في المنافقين المحترفين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

تَخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧ ﴾.

ونقول في بحث الآيات أعلاه:

إن الصفات والخصوصيّات في الآيات آنفة الذكر التي اعتبرت في المنافقين المذكورين للبحث لا يمكن تطبيقها هنا إلّا على المنافقين المحترفين.

توضيح ذلك:

إنّ واحدة من الخصائص الظاهرة في الآيات أعلاه التي اعتبرت في المنافقين المتحدث عنهم هي في قوله تعالى: ﴿**يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ ومفادها كالتالي:

إن المنافقين المنظور إليهم في البحث هم قوم تميل قلوبهم إلى الكافرين ويتخذون منهم أحباباً وأولياء ويشيحون بقلوبهم عن المؤمنين ويعادونهم ويبغضونهم ولا يقرّبونهم وتشير الخصوصيات المذكورة إلى أن المنافقين المشار إليهم هنا هم المنافقون المحترفون كما أن المؤمنين الذين يقفون في الخندق المقابل لهم هم المؤمنون الممتازون الذين ثبت إيمانهم بمعايير الله والقرآن فكان إيماناً كاملاً لأن من كانت الرذيلة المعهودة صفة ذاتية لهم فمن الثابت المقطوع به أن ذاتهم تخلو

من أية نقطة نورانيّة من ثم تراهم يقعون على أشكالهم ويبادلونهم المحبة والود وينفرون من المؤمنين لأنهم مظهر الصفات الفاضلة والسجايا الحميدة نفرة تامة ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أجل إن المنافقين العاديين لما كان أساس إسلامهم الطمع بالمال والمنال والمنافع الدنيوية وكان خبثهم ورداءة طينتهم لم يبلغا مستوى ما عند المنافقين المحترفين من الخبث ورداءة الطينة لذلك لم تتمكن منهم تلك السجيّة في بغض المؤمنين كما تمكنت من إخوانهم المحترفين، فكيف يصح من قوم فقراء يعيشون في البؤس والمسكنة واختاروا الإسلام طمعاً في المصالح الدنيوية والوصول إلى النفع المالي وحصول المنال المطلوب بغض قوم طيّبين أطهار تامي الإيمان لا يصدر من ذاتهم المباركة إلا الخير والبركة والتواضع وحل المشاكل وإعانة المحرومين ومساعدة المكروبين وقد تحلوا بجميع الفضائل والصفات الإنسانيّة وهم أهل الإيثار عند الإنفاق ويبذلون الود والمحبة لجميع الناس وهم إخوة رحماء لكل من عرفهم. أقول كيف يصح من المنافقين العاديين بغض هؤلاء الصفوة إن هذا أمر لا يصدق.

أجل، إن هذه الخصوصية لا تصدق إلا على المنافقين المحترفين الذين هم نوعاً ما من القرشيين ولهم ثروة وتمكن ولهم مع الكفار أرحاماً وأغياراً مصالح مشتركة فهم دائبون في التعاون على وضع الخطط والأحابيل معهم وأيضاً إن إسلامهم لم يكن من اليوم الأوّل إلا لغرض في نفوسهم ومرض في قلوبهم والهدف الأكبر لهم هو النفوذ في المجتمع

والحصول على الوجهة الاجتماعيةالمتميّزة بين الغوغاء وفئام الناس حتى يوجدوا المناخ الملائم لقضم الرئاسة والسيادة ويهيئواالأرضيّة المناسبة لخلافة حزبهم وهذا الفريق وحده هو الذي لا ينسجم مع المؤمنين المخلصين ولايجري ماؤهم معهم إلى آخر النهر

ولما رأوا المؤمنين تاميّ الإيمان والصالحين هم وحدهم المعارضون لأهدافهم «مائةبالمائة» والمعطلون لطموحاتهم لذلك قطعوا أي علاقة لهم معهم وقابلوهم بالصدود والنفرة وأسرّوابغضهم في قلوبهم وحقدوا عليهم في الباطن.

وإلا فإنّ الضرورات قاضية أن يكونوا على حالة حسنة مع المؤمنين البسطاء وحديثي الإيمان والمسلمين الضعفاء إيماناً، الذين ما زالوا يرسفون في قيود الرذائل الجاهلية والصفاتالهمجيّة ولم يدركوا فكاكاً منها ولهم مع المنافقين في الباطن وجوه التقاء.

نعم، ليس لهم مع هؤلاء عداء ملحوظ ولا كره مرفوض، ولا خلاف لهم معهم بخاصة وأن المنافقين المعلومين يعقدون الآمال على رواجهم بين هذه الأنماط من المسلمين ذوي الإيمانالضعيف لإمكان تنامي قدرتهم في خداعهم وازدياد قدرتهم في تعكير الماء واصطياد السمك منهوتسهيل ذلك لهم بسببهم.

وهنا نكتة جديرة بالذكر بل ذكرها لازم أنّ الخصوصية المذكورة في الجملة﴿ **يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ذكرت مرتين فحسب في القرآن كله، المرة الأولى في الآياتالمعروضة للبحث والأخرى في الآيات ٢٨ إلى ٣٢ من سورة

آل عمران التي بحثناها في بدء القسمالتاسع من الكتاب وثبت من خلال البحث أن غرض الآيات المعهودة هو تعريف «المنافقينالمحترفين».

ثم إن في جملة﴿ **يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ** ﴾ مضافاً إلى الخصوصيةالمذكورة نكاتٍ أخرى اشتملت عليها الآيات التي جرى بحثها وكل واحد منها يثبت المطلبالمعهود في الجملة آنفة الذكر وكلها تدل على أن المنافقين الذين خضعوا للبحث هم المنافقونالمحترفون.

وبعض هذه النكات كما يلي:

أ ـ الجملة﴿ **إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً** ﴾ الواردة فيالآية١٣٧ بما أنها تعبر عن مراتب النفاق الأشد والأصعبـفإنّها تدل في التبادر الأولي علىالمنافقين المحترفين، ولذا لما تعرضت الآية الشريفة لذكر توبتهم:﴿ **إلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأصْلَحُواوَاعْتَصَمُوا باللهِ وَأخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأوْلَئِكَ مَعَ المُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المُؤْمِنِينَ أجْراً عَظِيماً** ﴾مضافاً إلى إعلان التوبة بنت ذلك على شروط ثلاثة «وأصلحوا، واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم»واعتبرت هذه الشروط لازمة في قبول توبتهم والأمر الذي لا يقبل الجدل أن من كان يحيى فيأحط دركات النفاق فقد حمل هذه الشروط الثقيلة وإلّا فإن المنافق العادي لا يتصور ذلك في حقه لأنّه غالباً ما يكون من البسطاء والبدائيين الذين لا يتوقع منهم صدور توبة مثل هذه التوبة، بل ليسبمقدورهم فعلها مع ما أنيط بها من الشروط

الثقيلة التي تكبلهم بالقيود الصعبة بل التوبة البسيطة لهمبمثابة إيمانهم البدوي كافية.

ب ـ لما كانت الآية الشريفة﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَاوَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَوَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَجَمِيعاً** ﴾ فيها الإشارة إلى تكليف كان قد فرض قبل ذلك بمكة ونزلت به الآيةالشريفة التالية من سورة الأنعام لأنها من السور المكية:﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَافَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِالظَّالِمِينَ** ﴾ بناءً على هذا يكون المنافقون المقصودون بهذا الكلام والذين عنتهم الآيات ١٣٦ إلى١٤٧ من سورة النساء هم ممن أسلموا في العهد المكي وقد فقهوا التكليف المومى إليه في سورةالأنعام ومن الطبيعي أن هذا الشأن لا ينطبق إلا على المنافقين المحترفين وهم من طبقة المهاجرينأيضاً(١) وعلى هذا التقدير فكما ثبت لنا من تحقيق آية ٧٧ من سورة النساء)في الفصل الرابع(أنالمنافقين المعنيين هم من

---

(١) النكتة الأخرى التي تستبان من مقارنة الآية ١٤٠ من سورة النساء مع الآية ٦٨ من سورة الأنعام أنَّ الخطاب المذكور في آية سورة الأنعام وإنْ كان المقصود بظاهره النبي، وهو نازل لبيان تكاليفه الشخصية ولكن تظهر المقارنة بين الآيتين أنَّ التكليف مرتبط بالمسلمين الذين يعاشرون كفار قريش بالحسنى ويقيمون معهم الصلاة الودية وبالطبع لا يشمل ذلك إلا رؤساء المنافقين المحترفين الذين لهم وحدهم هذا الودّ والعلاقة مع الكفار وفيما تقدم من الكتاب أثبتنا عمق صداقتهم وإخلاصهم لهم/ المؤلف.

طبقة المهاجرين كذلك ظهر من تحقيق الآية أعلاه ومن إلقاء نظرة فاحصةعلى آية سورة الأنعام أن الآيات التي جرى بحثها فعلاً هي في المنافقين المحترفين أيضاً.

وإلى هنا انتهى بنا البحث في الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ من سورة النساء ونقول عوداً على بدء: إنهكما أثبت البحث في الآيات ٦٠ إلى ٩١ و ١٠٥ إلى ١١٦ أنها نزلت في المنافقين المحترفين فإنالتحقيق أعلاه أثبت أن الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ لها ارتباط جدّ وثيق أيضاً بتلك الفئة.

وبناءً على هذا أن المباحث التي ترتبط بتاريخ المنافقين المحترفين في سورة النساء استبانتبصورة واضحة وتجلى لنا أن جميع الآيات الخاص نزولها في المنافقين هي في المحترفين منهموالغرض الأساس من نزولها هو توبيخهم وتأنيبهم وذكر تعويقهم مسيرة الدعوة!

الفصل السابع

استنباط النتيجة وأخذها من الآيات التي بحثت في هذا القسم من الكتاب "القسم الخامس عشر"

أراكم قد أدركتم أنّ في المجموع من الآيات ١٧٦ من سورة النساء ستاً وخمسين آية منهاوهي تناهز ثلث آياتها نزل في المنافقين وعرفنا أن المنافقين المعنيين هم المنافقون المحترفون وعندما نربط هذا الموضوع بزمن نزول سورة النساء التي نزلت بحسب ترتيب النزول في الفترةالواقعة بين نزول سورة الأحزاب وسورة الفتح فسوف نرى أن نزول سورة النساء حدث بعد غزوةالأحزاب - أي بعد السنة الخامسة من الهجرة - حيث لم يكن ذكر لصلح الحديبيّة ولا أثر لقطع دابراليهود في خيبر ولم يحدث فتح مكة.

وبناءً على هذا يظهر جيّداً أن المنافقين المحترفين قبل انتشار الإسلام ومع بقاء كفار الجزيرةالعربية على كفرهم لا سيما القرشيون منهم كانت لهم هذه الصولة والنفوذ في المجتمع المسلم ولهمهذه القوّة والقدرة ، كما رأينا من جهة أخرى بناءً على ما كشفته الآيات ٦٠ إلى ٧٠ من سورة النساءأن المنافقين في فصل من فصول احتياجهم إلى رأي الحكم فإنهم لا يرجعون بذلك إلى رسول‌الله(ص) بل إلى الطاغوت من أهل الكتاب بحيث نزلت الآيات المذكورة في توبيخهم

وتأنيبهم منجهة أخرى بناءً على ما أقرته الآيات ٧١ إلى ٩١ من سورة النساء أن المنافقين المحترفين كانوايحيدون عن القتال مع كفار قريش ومن أجل ذلك كانوا يعقدون الاجتماعات ليلاً ليخالفوا رسولالله والمؤمنين في مثل هذه الحروب، وكذلك يعمدون إلى الحرب النفسية في إشاعة الأخبار الكاذبةلتضعيف معنويات المؤمنين في القتال ورأينا في ختام الآيات أن هذا الفريق المنافق المحترف بمساندة المنافقين العاديين من أهل مكة المرتدين إلى الكفر فسفّهوا رأي المؤمنين في هؤلاءالمرتدّين ودافعوا عنهم دفاعاً شديداً.

من جهة ثالثة وبناءً على ما قررته الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ نراهم قد اكتسبوا قدرة فائقة فيذلك المجتمع بحيث أمكنهم رمي الجرائم والذنوب التي يرتكبها إخوانهم في أعناق الأبرياءويبذلون في سبيل ذلك جهداً خارقاً لتهيئة المناخ المساعد لذلك وصنع مشاهد كاذبة محبوكة بمهارةفائقة ليحملوا المسلم البسيط بناءً على ظواهر الضوابط القضائية المزوّرة على تأييدهم ويذهبون إلىأبعد من ذلك حيث يحملون رسول الله نفسه على أن يكون معهم بما يبذلون من كذب وتزوير إلى أننزل الوحي وأنجاه الله من شرهم والتأثر بفعل أحابيلهم:

﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَايَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله

عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (١).

ومن جهة رابعة أن الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ من كلام الوحي تخبرنا أن الفريق المذكور قطع كل علاقته مع المؤمنين صحيحي الإيمان وكاملي الإيقان، ولم يبق على شيء من المحبة بينهم وبينه وفي مقابل ذلك رهن قلبه عند الكفار الذين عاش معهم قبل ذلك في مكة وكانت له معهم مراودات في المجالس والمحافل واتخذ منهم أولياءً وإخواناً له واتّحد معهم قلباً وقالباً.

أجل عند مشاهدة وضع كهذا وفي قبال ظرف كهذا الظرف عندما يطلب المنافقون المحترفون من طاغوت أهل الكتاب قضاءاً لهم وحكماً يقضي بينهم ثم هم ينأون بأنفسهم عن معالجة المواجهات مع كفار قريش ويوجدون المناخ المساعد لإشاعة الأخبار الموضوعة الكاذبة الموحشة لتضعيف معنويات المؤمنين مضافاً إلى دفاعهم المستميت عن المنافقين ووضعهم تحت الحماية ويقفون معهم في خندق واحد ضد المؤمنين، وأعطف على هذا كله عداءهم السافر للمؤمنين الصادقين وتعاطفهم مع كفار قريش ومحبتهم لهم وبما أن هذه المظاهر وجدت في المجتمع المسلم واشتهرت بعد اشتهار علي أمير المؤمنين بأنه المصداق الأوضح والأجلى لـ«أولي الأمر» يصح لنا أن نسيء الظن بهذه الجماعة التي أطلقنا عليها «فريق المنافقين المحترفين» أنَّ صلاتهم بطواغيت أهل الكتاب وسراة قريش الكفار والمنافقين العاديين إنما هي صلات سياسية لحرمان أهل

(١) سورة النساء: الآية ١١٣.

بيت العصمة والطهارة من «أولو الأمر» وقيادة المسلمين والولاية عليهم ورد ذلك كُلّهُ إلى ذلك الفريق الذي نعتناه لكم.

والآن نخصص القسم التالي من الكتاب لبيان العلاقات السياسية بين المنافقين المحترفين معالفرق التي أشرنا إليها وكشفنا شطراً من سلوكها حتى يستبان لنا حكم الآيات وكلام الوحي وقضاؤه في هذا المضمار أو المجال.

القسم السادس عشر

صلات المنافقين المحترفين السياسية

فهرس الفصول والمواضيع:

متون آيات سورة محمد(ص)

الفصل الأول: زيادة إيضاح يختص بسورة محمد وزمان نزولها.

الفصل الثاني: بحث الآيات ١ إلى ١٩ من سورة محمد.

الفصل الثالث: بحث الآيات ١ إلى ٣١ من سورة محمد وإثبات الصلات السياسية بين المنافقين المحترفين وبين كفار قريش.

الفصل الرابع: تحقيق في النظام التركيبي للآيات ٢٠ إلى ٣١ من سورة محمد.

الفصل الخامس: بحث الآيات ٣٢ إلى ٣٥ من سورة محمد في بيان التكليف الخاص بالمؤمنين في قبال المنافقين المحترفين.

متون آيات سورة محمد:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ
(٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ
وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى
لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ

أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾.

الفصل الأول

بيان حول سورة محمد وزمان نزولها

هذه السورة حسب النزول تعد السورة المدنية التاسعة وتتصل بالنصف الثاني من فترة العشرسنوات للإسلام في المدينة لأن نزولها بعد نزول السور الطوال كالبقرة وسورة الأنفال وسورة آل‌عمران وسورة الأحزاب وسورة النساء وسور أخرى غيرها.

وينبغي على هذا أن يكون نزولها في وقت تنامي قوّة الإسلام وضعف المشركين وكفار قريش‌وتضائلهم وعلى هذا الأساس ركبهم اليأس من فوزهم بالنصر على الإسلام.

من ثم وبناءً على هذا التقدير عمل فريق «المنافقين المحترفين» «الذين في قلوبهم مرض»الذين برزت رؤوسهم في مكة إلى الوجود في العهد الأول للإسلام وكما أشرنا فيما تقدم من الكتاب‌أنهم سعوا دائماً لنيل الوجهات الدينية بين المسلمين وتكوين شخصيّتهم الاجتماعية في المجتمع‌المسلم لكي يتسنّى لهم بلوغ الهدف المنشود بهذه الوسائل من الترؤس والتقدم في المجتمع المسلم‌ومن الطبيعي أنهم لم يخف عليهم الوضع الراهن للإسلام من تنامي قدرته واتساع قوته يوماً بعد يوم ويظهر من هذا بما يؤمل له أن يكون فارس الحلبة في الجزيرة العربية كلها وأن يسود هذا الدين القبائل‌العربيّة فيها لذلك خامرهم شعور طاغ بعقدة الرئاسة وتحركت فيهم هذه العقدة من ثم

عمدوا إلى عقد التحالف فيما بينهم وبين الاتجاهات الأخرى المضادة للإسلام

من جهة أخرى لما كانت خلافة النبي بناءً على المقولات السائدة في تلك الفترة لا يصح حلولها إلا في قومه وأفراد عشيرته الأقربين وهم يرون رأي العين أنّ شخصيّة ما من هذه العشيرة لاتحمل المميزات التي تحملها شخصية علي بن أبي طالب(ع) من بين بني هاشم كلهم لذلك علموا أن الحكم من بعد النبي لابدَّ وأنْ يكون مختصاً به وبولديه من بعده الحسن والحسين(ص) وهما سبطا رسول الله(ص)، وأرضيّة الواقع مهيأة لهم، وهؤلاء ما فتىء الوحي يقر لهم ويشيد بهم مما يضفي عليهم هالة من القدسية بين المسلمين.

وقد شاهدوا الإشادة بهم في سور أخرى قبل نزول سورة محمد(ص) مثل سورة الأنفال، وآل عمران والأحزاب، وسورة النساء فعبّرت عنهم لغة الوحي بذي القربى و «أهل البيت» المختصين بالمصطفى وأعلنت آية التطهير بصورة رسمية عن عصمتهم المعنوية وطهارتهم بخاصة في عدد من الآيات من السور آنفة الذكر كما سلف ذلك في بحوث الكتاب المتقدمة، وركّزت الآيات على شخصيّة علي(ع) فأبرزتها بصورها الحقيقية، وأعلنت عن كونها بعد النبي هي المصداق الأظهر والأجلى لأولي الأمر في المجتمع المسلم، وحينئذ يكون من الضروري وبناءً على هذه النكات الواضحة أن يكون تباني الفرقاء السياسي يدور على محور الخلافة والزعامة من حيث كونها صائرة بعد النبي إلى أهل بيته فلابدَّ

من زحزحتهم عن هذا المقام المعد لهم بأية وسيلة كانت وبأي ثمن.

وهنا في سورة «محمد» يتجلى نموذج من تبانيهم السياسي مع الكفار المشركين (والمتبادر من هذا التعبير هم كفار قريش لا سيما الفرع الأموي منهم أي أبو سفيان ابن حرب وأتباعه) وسوف يظهر عياناً عند بحثنا للآيات المذكورة.

ولا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إلى أن آيات «سورة محمد» في نفس الوقت من أروع الآيات التي تكلمت عن المنافقين وكشفت حقيقتهم وعرفتهم، وأعلنت للملأ صفاتهم وخصوصيّاتهم النفسية بشكل كامل وبطور مشرق بيّن.

والآن وفي الفصول التالية نعمد إلى الشرح الميسّر للآيات المذكورة وإلى تحقيق معناها بعدفهم مبناها.

الفصل الثاني

تحقيق الآيات ١ إلى ١٩ من "سورة محمد" وبحثها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) ﴾.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) ﴾.

من بين هذه الآيات الأحدى عشرة لا ينبغي تناسي الآية التاسعة منها ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾.

لأنّ الجملة التي ختمت بها الآية «كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم» التي جيء بها لتعريف المشركين والكفار هي الوحيدة التي تضع أيدينا على شأفة الداء من حيث الدلالة على أصل معرفتنا لهذه الاتصالات السياسية القائمة بين «المنافقين المحترفين» وبين المشركين وفي المستقبل القريب سوف يوقفنا البحث على نماذج واضحة من هذه الاتصالات.

أجل: ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم... ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾.

وهنا جاء في شرح الآية السادسة عشرة عن حديث الذين طبع الله على قلوبهم وسؤالهممن الذين أوتوا العلم أنه كان على سبيل الهزء والسخرية ولم يكونوا جادين به ودليلنا على ذلك أن سؤالهم لو كان على سبيل التفقه والتعلم من الذين أوتوا العلم لكانموردا لمدحتهم والثناء عليهم من الله تعالى لأنهم بمسلكهم هذا إنما عملوا بالآية﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾(١) وسلكوا الوجه الصحيح للعلم والتفقه في الدين.

لكننا رأينا الآية تلومهم لوماً وتعنفهم تعنيفاً وتعبّر عنهم بأنهم في قلوبهم مرض وأنهم اتبعواأهواءهم نفهم من هذا كله أن سؤال القوم بعد مفارقتهم لمجلس النبي(ص) وتركهم إياه من «أولي العلم» كان سخرية منهم وهزءً وتحقيراً لكلام الوحي، وللنبي(ص)، وأعطف على ذلك أن هذا الفريقالذي وجد طريقه إلى مجلس النبي(ص) في السنوات الواقعة في النصف الثاني من فترة السنواتالعشر التي قضاها النبي في المدينة قبل وفاته، وكان يظهر للناس أن الغرض من تغلغله في المجلسطلباً لأقوال النبي وتقرباً منه، ليزداد إقبالهم على كلام الوحي ومعرفتهم له، ولكنهم ما إن يغادروا المجلس حتى يبدأوا بالاستهزاء والسخرية من النبي، ويطلقوا ألسنتهم في الغضّ من قدره وما من ريب في كونهم من «المنافقين»لأنَّ فرصة الدخول لمجلس النبي لم تكنمتيسرة ساعتئذٍ لمشركي قريش وكفارهم ولا لليهود وأحبارهم الذين يقطنون المدينة.

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٣.

إذنْ يظهر لنا بحق وصدق أن هؤلاء القوم من المتظاهرين بالإسلام الذين يصطحبهم المسلمون معهم إلى مجالس النبي ومحافله مع أصحابه وخاصته ويشاركون القوم في حضور المجالس النبوية، ويستمعون إلى نزول الآيات والاستماع إلى أحاديث النبي(ص) .

إلا أن الإلمام بحقيقتهم وهل هم من المنافقين العاديين أو المحترفين، يحتاج إلى دقة نظر وتأمل زائد ونحن نشير إلى ذلك في ذيل هذا الحديث موضحين واقع حالهم:

أولاً: أن المنافقين العاديين لما كان نفاقهم بادياً للعيان لتظاهرهم به وعدم تخفيهم هانوا على المؤمنين ونظروا إليهم بعين التحقير والاستهانة، وكان أهل الإيمان يجتنبون ويتركون مراودتهم والجلوس معهم ويحترسون منهم ومن شمائلهم ومن الواضح أن قوماً لهم هذه المميزات لا يمكنهم حضور مجالس النبي بل يفرون منها ما وسعهم ذلك ووضعهم هذا على خلاف ما درج عليه المنافقون المحترفون الذين داروا في فلك النبوة حرصاً على ماء وجوههم ووجوه أصحابهم وزملائهم فما برحوا يدورون حول النبي ويحضرون مجالسه ليخفوا نفاقهم ويظهر كذباً وادعاءاً شدة تعلقهم بدعوته.

ثانياً: يبين لنا من لفظ «يستمع» المذكور في الجزء الشريف من الآية«ومنهم من يستمع إليك» أن هذا الفريق يظهرون الحرص على سماع أحاديث النبي ويستعملون الدقة في ذلك وأحياناً يسترقون السمع للنبي(ص) .

نعرف ذلك من تحليل هذا اللفظ على ضوء اللغة لأنَّ الاستماع معناه «الإصغاء» وهو إصاخةالسمع بالقصد والإرادة كما ورد في الآيات الأخرى بهذا المعنى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُوَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١).

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (٢).

وبناء على دلالة هذه الكلمة المذكورة أن الفريق المشار إليه هم «المنافقون المحترفون»حتماً، وإلّا فإن المنافقين العاديين لا إرب لهم بالاستماع إلى أحاديث النبي(ص) لكي يظهرواالرغبة من أنفسهم في الإصغاء إليها ويبذلوا الدقة من أفهامهم في الاستماع إلى آيات القرآن الكريم.

ثالثاً: نشاهد في آيات أخرى تحيط بها الظروف نفسها أن الله تعالى خاطب بهذا الخطاب ذاته المنافقين المحترفين فقال:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْإِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْكَافِرُونَ * أَوَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْيَذَّكَّرُونَ﴾ (٣).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٢) سورة طه: الآية ١٣.

(٣) سورة التوبة.

فتبين مما تقدم أن الفريق المشار إليه في الآيات التي جرى بحثها أيضاً هم المنافقون المحترفون وعلى أية حال فإن الذي يوصل أهل التحقيق من هذا الفصل إلى النتيجة المتوخاة هي الآيات الاثنتا عشرة التي سوف يجري بحثها في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

تحقيق الآيات من ٢٠ إلى ٣١ من سورة محمد وبحثها وإثبات الروابطالسياسية بين المنافقين المحترفين و " كفار قريش "

﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال
رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم (٢٠)
طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم (٢١) فهل عسيتم إن
توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم (٢٢) أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم
وأعمى أبصارهم (٢٣) أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٢٤) إن الذين ارتدوا
على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم (٢٥) ذلك بأنهم قالوا
للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم (٢٦) فكيف إذا
توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم (٢٧) ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا
رضوانه فأحبط أعمالهم (٢٨) أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم
(٢٩) ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم
(٣٠) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم (٣١) ﴾ .

أنَّ بعض المطالب التي تستفاد من هذه الآيات الاثنتي عشرة كالتالي:

أولاً: من البديهي أنّ الآيات أعلاه نزلت في ذم الفريق﴿ **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾وهم نفس الفريق الذي عبرنا عنه بقولنا: «المنافقون المحترفون» وأنتم تلاحظون أنهم ذكروا بالصفات التالية:

﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾.

يفسدون في الأرض ولا تأخذهم في الرحم رحمة بل يقطعون «أرحامهم» ﴿**أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ..﴾أحاطت بهم لعنة الله من جميع جهاتهم﴿**لَعَنَهُمُ اللهُ**﴾ وأن الله أصمهم وأعمى أبصارهم «فأصمهم وأعمى أبصارهم» ضرب على قلوبهم بالأقفال فكانت مغلقة لا يتسرب إليها لخير ﴿**أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ ارتدوا على أدبارهم وعادوا إلى ما كانوا عليه من الخلق الجاهلي﴿**ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى**﴾. ركبوا رؤوسهم فتسلط عليهم الشيطان «الشيطان سوّل لهم وأملى لهم» لهم خطوط خلفية ومشاهد سريّة. أقاموا عليهم أمرهم «والله يعلم إسرارهم».يتعرضون لضرب الملائكة بسياط العذاب بعد هلاكهم «الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم».

أغضبوا الله تعالى: «اتبعوا ما أسخط الله» لا يحبون رضا الله ولا يتقربون إليه: «وكرهوا رضوانه». أحبط الله أعمالهم وجعلها هباءاً منثوراً «فأحبط أعمالهم»، يتصفون بصفات مسترذلة من الحقد الشديد والإحن والبغضاء «أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن

نخرج أضغانهم».

ثانياً: لما علم أن الآيات أعلاه نازلة في مذمة «المنافقين المحترفين» وتريد بتعداد صفاتهم الرذيلة كشفهم للناس وتعريتهم وتعريفهم فلابد من إعادة النظر في الآيتين ٢٥ و ٢٦ وتقييم التعريف الدقيق للمنافقين الذي جرى فيهما عنهم﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** ﴾.

وهاهنا يلح علينا سؤال:

أولاً: من هم هؤلاء الذين في قلوبهم مرض؟ ومن هم الذين قال لهم المنافقون المحترفون «سنطيعكم في بعض الأمر».

ثانياً: ما المقصود من بعض الأمر هذا الذي وعد المنافقون المحترفون ذلك الفريق بالتعاون معهم من أجله.

ونقول في الجواب عن السؤال الأول:

لما بين الوحي في النصف الأول من السورة أوصاف الكفار ورد في الآية التاسعة واحد من أوصافهم المعرفة لهم في جزء الآية «كرهوا ما أنزل الله» لاحظوا الآية بصورة دقيقة:

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾فتبين لنا من خلال ملاحظة مقدم الآية أن الفريق الذين «كرهوا ما أنزل الله» هم الكافرون.

وبما أن في هذا الشطر من الآية الكريمة لم يجر لأهل الكتاب ذكر مضافاً إلى ما سلف بيانهفي الآية الثالثة عشرة من إخراج النبي من أرض مكة﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَالَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يتبين لنا بالقطع واليقين أن المقصود من الكفار هنا هم كفار قريش و بخاصة الفرع الأموي فإنَّ النظر مصوب إليهم حيث إن زعامتهم منوطة بأبي سفيان وهو الذييقود الأحزاب ويؤلفها لحرب رسول الله والمسلمين.

أجل، من مسلمات التاريخ أن كفار قريش كانوا أشد خصوم النبي وأعظمهم عداوة له، وكانتأنظار مشركي العرب طامحة إليهم ومشدودة بهم من ثم نجد مشركي العرب بعد فتح مكة واستسلامكفار قريش كانوا يأمون المدينة جماعات جماعات ويعلنون إسلامهم إلى الدرجة التي دعيت بهاالسنة التاسعة للهجرة بـ «سنة الوفود».

هذه القرائن مجتمعة تؤيِّد ما ذهبنا إليه من أن «المنافقين المحترفين» كانت مواثيقهم معقودةمع هذا الفريق لاسيما الفرع الأموي منه، ولابدّ من العلم بأن هذه المواثيق لا تعدو كونها سياسيّة فيالوهلة الأولى.

وهذا ما كان يخص السؤال الأول والآن نحوم حول السؤال الثاني فنقول:

لما علم أن المنافقين المحترفين الذين تزعمهم رجلان معروفان هما أبو بكر وعمر لهم معكفار قريش والذين يتزعمهم أبو سفيان مواثيق سياسية تكون حينئذٍ شئنا أو أبينا دلالة الجملة«سنطيعكم في

بعض الأمر» ومضمون الميثاق المعقود بين الفريقين هو موضوع الترأس على المسلمين في مستقبل الزمان والاستيلاء على مقاليد الحكم بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، لأنَّ فعالية الفريقين في العهد الإسلامي سواء في مكة أو المدينة مرتكزة على هذه الرئاسة الدنيوية.

أما كفار قريش فإنَّ علة حربهم لرسول الله(ص) والمسلمين كان سببه الأكبر هو خوفهم من الإسلام أنْ ينهي هيمنتهم على البلاد ويسقط رئاستهم وسيطرتهم ولا يريدون اتباع النبي وهم لايصدقونه على رسالته وقد لقبوه «بيتيم أبي طالب»وحينئذٍ كيف يرضون بسيادته عليهم.

وكذلك المنافقون المحترفون ما كان إسلامهم منذ الوهلة الأولى إلا لغرض خاص في نفوسهم وقد أوضحنا ذلك في الفصول السالفة من الكتاب وسنزيد وضعهم إيضاحاً في مستقبل البحث إنْ شاء الله والحقيقة التي تراها العين أنهم يريدون أنْ يجعلوا الإسلام سلماً لبلوغ مآربهم وغاياتهم منه .

والآن وقد تجلى النصف الثاني من الفترة المدنية للإسلام وقد استنفدت قريش كل قواها في حرب بدر وأحد والخندق ولم ينالوا من الإسلام نيلاً وقد وضعهم الإسلام تحت ضغط قوته المتزايدة.

من جهة أخرى فإن المنافقين المحترفين كما وضح لنا ذلك من سورة النساء ومن دراسة آياتها دراسة مستوعبة في «القسم الخامس عشر» من هذا الكتاب، تمكنوا من إيجاد مبانة لهم في داخل المجتمع

الإسلامي واتساع تلكم المبائنة بما أضيف لهم من العزة والأعداد الجديدة المنتسبةلهم واستطاعوا بما يملكون من الأساليب المراوغة أن يغروا المسلمين البسطاء من الاحتفاء بهموالضرب على أوتارهم وأمكنهم ذلك من جعل الإسلام وسيلة لبلوغ أغراضهم وأمانيهم التييحلمون بها.

وفي وضع كهذا يكون المناخ صالحاً لأية عقود تبرم بين الفريقين، من ثم عمد فريق المنافقينالمحترفين إلى الاتصالات السرية «والله يعلم إسرارهم» مع أبي سفيان والزعامات القرشيّة الأخرى لممالئتهم على محاربة الإسلام.

ولما كان الطرف الآخر لم يخضع لشرائطهم كلها إنْ كان رضاً أو قهراً والمنافقون المحترفونما كان باستطاعتهم تطويعه لقبول كل إملاءاتهم، من ثم اضطروا للرضا بقبول بعض الأمر الذي يتسقمع هواهم، ويلزم كفار قريش أنفسهم بالتعهد به فكان جوابهم لكفار قريش مطابقاً لما صرّحت بهالآية الكريمة:﴿**سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ**﴾.

ومن الضروري أنْ نعلم بأنَّ المنافقين المحترفين ليس بمستطاعهم القبول بكل ما يريدهالمشركون منهم من إلغاء قواعد الإسلام والتجرد منه، لأنَّ آداب الإسلام ورعاية شؤونه هي التيمكنتهم من النفوذ في عمق مجتمعه وصيّرتهم ذوي وجهة مقبولة عند كثير من المسلمين، وبالضربعلى وتر الإسلام استطاعوا أنْ يوجدوا لهم موطىء قدم فيه وبخداعهم للعوام أمكنهم جلب نظرالمسلمين البسطاء إليهم، وعندئذ كيف يمكنهم قبول ما يريده الكفار منهم من طرح آداب

الإسلام وسننه وقواعده عن كواهلهم.

أجل، يمكن لقاء الفريقين على القاسم المشترك بينهما الذي على أساس منه بنوا مواثيقهم وأقاموا عهودهم وتيسر لهم الاتفاق وذلك هو صرف مجرى الحكم ومسير الخلافة بعد النبي(ص)عن أهل بيته وهذا هو الهدف الأصيل لهم وعلى أساس منهم عقد أبو سفيان وأتباعه مواثيقه معهم، لأنّه يصب في مجرى مصلحته.

وعلم المنافقون علماً يقيناً أنه بغفلتهم طرفة عين وتركهم الأمور تأخذ مجراها الطبيعي فإنّ الخلافة بعد النبي سوف تنصرف إلى علي بن أبي طالب وأبنائه الطاهرين لهذا سارعوا إلى التباني السياسي الذي نبهنا إليه لئلا تفوت الفرصة من أيديهم، وراحوا يعقدون الصلات ويقيمون العهودوالمواثيق مع جهات معلومة لصرف الخلافة عن أهل بيت النبي وأولى الجميع بهذه العهود غير المباركة والمواثيق السياسية هم كفار قريش، ومن البديهي قبولهم بكون أبي سفيان وأسرته الأمويةبناءً على مقتضى العهود الغليظة بينهم وبين المنافقين المحترفين شريكاً في حاصل الثمرة المنتظرةمن الرئاسة والخلافة شريطة أن يتفق الفريقان على خطة ينهون على أساسها كل ما كان لآل محمدمن حقوق ومستلزمات.

ولذا شاهدنا بأم أعيننا كيف زحزح آل محمد من الخلافة الظاهرية والرياسة الصورية فورمجيء أبي بكر وحزبه للحكم وكيف سحقت حقوقهم كلها سواء منها الحقوق الدينية والحقوقالعرفية وفي قبال ذلك نجد زعماء الكفار من قريش يمنحون العلاوات والمناصب العالية في الحكمالجديد بل والحساسة أيضاً.

ويحظى أبو سفيان زيادة على ما كان عليه بالتكريم ويولى ولده يزيد وولده معاوية واحداأثر الآخر على حكومة فلسطين والشام وكذلك تصل النوبة إلى عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليدوعمرو بن العاص وغيرهم «وقد كانوا وقت نزول سورة محمد كفاراً مشركين» فينال كل واحد منهمقيادة جانب من الجيش الإسلامي كما يدعونه.

فهذا عمر بن الخطاب وهو من هو في عهد حكمه من اتخاذ الشدة القصوى بحق عماله وأمراءالولايات كمصادرة أموالهم وفرض حياة خشنة وعيش خشن عليهم ووضع أموالهم في بيت المالوقد تصل الحال بأحدهم أن يتعرض لعقاب عمر الصارم نراه في قبال ذلك حين يذهب إلى الشاموبقف على جهاز معاوية الملوكي مع ما فيه من الترتيبات العريضة الطويلة فلم يقف منه موقفالمنكر المحاسب أو الرافض الطالب فحسب بل يشجعه على نمط الحياة الذي اتخذه وسار عليهويبارك له جهوده فيما بنى وجنى ويعظمه تعظيماً منقطع النظير ويظهر إعجابه به ويسميه «كسرىالعرب» (١).

نعم إن هذه العناصر أراد النبي في حياته تربيتهم تربية صالحة واستئلال ما في نفوسهم منالصفات والسجايا الرذيلة وغسلها بنمير المحبة، ذلك حين أنعم عليهم بغنائم حنين فأعطى أبا سفيانويزيد بن

---

(١) أسد الغابة، ج٢، ص٢٧، مختصر تاريخ دمشق، ج٧ ص٣٢٩، تاريخ الخلفاء؛ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢، ص٤٧؛ البداية والنهاية ج٨، ص١٣٤، الترقيم في جميعها آلي.

أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم باسم «المؤلفة قلوبهم» أموالاً طائلة واختار رجلاً كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد لإمارة بعض سراياه ومع كل الذي صدر منهم من الخيانات والأفعال الجاهلية المذمومة فإنه(ص) تجنّب جهد الطاقة أن يكسر نفوسهم وأن يسد الخلل الذي صدر منهم في حق الأمة ونبيّها، وحق الجيش، وسعى سعياً حثيثاً لحملهم على جادة الحق والصواب إلا أن خبثهم الباطني ورداءة ذراتهم أبت عليهم أن يقابلوا ألطاف رسول الله بالشكر والامتنان وأنّ ينزعوا عما هم عليه من الانحراف والنفاق أو يحبب لهم الإيمان فينصبغوا بصبغته ويؤمنوا بالله ورسوله إيمان الحق والمحبة بل بعكس ذلك فقد قربوا من المنافقين المحترفين أكثر فأكثر لما بين الاثنين من التشابه الذاتي والتماثل النفسي لذلك ما فتىء أحد الفريقين من الدنو للآخر والاقتراب منه إلى الدرجة التي صاروا بعد اختيارهم الإسلام من الأعضاء المبرزين في فريق المنافقين المحترفين ويجدّوا في إطفاء نور أهل بيت العصمة والطهارة «والله متم نوره».

وعلى أية حال فهذا ما كان من أمر جزء الآية الكريمة «سنطيعكم في بعض الأمر» التي يمكن إيجازه بتباني المنافقين المحترفين السياسي مع كفار قريش وفرع الشجرة الملعونة الأموية من أجل صرف الخلافة عن أهل بيت النبي(ص) وتضييع حقوقهم الأخرى.

نعم إن معنى هذا الجزء من الآية في التفسير الشيعي جاء على النحو الذي ذكرنا ونتحفكم برواية علي بن إبراهيم هذه على شكل نموذج يحتذى:

قال: نزلت فيهما وفي أتباعهما وهو قول الله عزّ وَجلّ الذي نزل به

جبرئيل على محمد(ص)»ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر» دعوا بني أمية إلى ميثاقهم لايصيّروا الأمر فينا بعد النبي(ص) لا يعطونا من الخمس شيئاً وقالوا إن أعطيناهم إياه لم يحتاجوا إلى شيء ولم يبالوا إلا أن يكون الأمر فيهم قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر الذي دعوتمونا إليه وهو الخمس لا نعطيهم منه شيئاً(١).

خلا أنه يجب أن يعلم أن في الأحاديث المذكورة حدث لبس عند الراوي فلم يدقق النظر في مفاد الآية الشريفة فقد اعتبر الجملة سنطيعكم في بعض الأمر من جهة أنها مقول قول بني أمية مع أن المعنى واضح من كونها قول المنافقين المحترفين.

ومن جهة أخرى فإن لفظ في بعض الأمر حمل على الخمس مع أن البحث الصحيح في القرآن يظهر أنه يخص الزعامة والخلافة بعد النبي وقيادة المسلمين.

ثالثاً: بعد أن اتضح لنا بأن المنافقين المحترفين أقاموا مع زعماء قريش حلفاً سياسياً لكي يحولوا بين أهل البيت وبين الوصول إلى الخلافة بعد وفاة النبي(ص) وأن يختصوا بها هم أنفسهم إذا اتضح كذلك أن المقصود من لفظ «توليتم» في الآية﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ هو ولاية المسلمين ورئاستهم والتحكم فيهم، وأنَّ لغة الوحي حذّرت المنافقين

---

(١) تفسير البرهان ج٤، ص١٨٧ ـ المؤلف، ونجد هذهِ الرواية في كثير من الكتب الشيعية كالكافي، ج١، ص٤٣١، بحار الأنوار، ج٢٣ ص٢٧٦؛ الصافي ج٥، ص٢٩.

والمتحزبين معهم من خطر ذلك﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴾.

أجل، إن الآيات المذكورة هي خلاصة الآيتين ٢٠٤ إلى ٢٠٦ من سورة البقرة اللتين نزلتا فيعمر بن الخطاب وقد مرَّ بيانها في القسم السادس من هذا الكتاب.

الإفساد في الأرض. تعبئة العساكر باسم الدين. نهب أموال الناس وحربها. وقطع صلة الرحم.حرمان أبناء النبي من حقوقهم المسلمة، وافقارهم وفرض الفقر عليهم والعوز وإيصالهم إلى محطةالهلاك.

رابعاً: وبناء على ما مر في الأرقام المسلمة ظهر لنا أن كلمة «أضغانهم» الواردة في الآية:﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ** ﴾ أنها حسد المنافقين المحترفينالشديد وضغنهم الثقيل على علي بن أبي طالب لأنه الرقيب الشاخص والممتاز في مسألة الحكمالذي ما زال مؤيداً من الله ورسوله، ويتجلى لنا أيضاً أن لفظ «لحن القول» في الآية الكريمة﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ هو إشارة إلىروية الخطاب الذي يلحنون به فيصرفونه إلى الكناية والرموز والسخرية حيث جروا على هذا النهجفي حديثهم عن علي أو حديثهم معه وذلك كاشف عن شدّة بغضهم له وعداوتهم وحقدهم عليه﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْبِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** ﴾.

روى السيوطي في الدر المنثور الرواية التالية ج ٦ ص ٦٦: أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ـ رض ـ في قوله: ولتعرفنهم في لحن القول قال: ببغضهم عليّ بن أبي طالب(ع) وقال في نفس الصفحة أيضاً:

وأخرج ابن مرودیه عن ابن مسعود ـ رض ـ قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ـ ص ـ إلا ببغضهم عليّ بن أبي طالب(ع).

وروى الطبرسي في «مجمع البيان»)ج ٥ ص ١٠٦) عن عبادة بن الصامت الرواية التالية:

قال: كنا نبور أولادنا بحب ـ علي ـ فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رشده.

لابدَّ من أنكم لاحظتم كيف كان بغض علي بن أبي طالب(ع) في القرآن والحديث علامةعلى وجود النفاق في المرء.

وإلى هنا نختم التحقيق في الآيات الاثنتي عشرة التي وضعناها قيد البحث (الآيات ٢٠ إلى ٣١سورة محمد) وأوضحنا معناها بصورة جليّة والآن نواصل هذا البحث بطريقة أخرى فنقول:

١ ـ لا ريب في أنَّ سورة محمد(ص) من السور المدنية، ولا جدال في ذلك، لأنَّ في آياتها ذكرالقتال وهو خاص بالسور النازلة في المدينة.

٢ ـ كذلك لا جدال في أنَّ السورة نفسها من السور ذات الصلة بالنصف الثاني من فترةالسنوات العشر من وجود الإسلام في المدينة أي أنها مرتبطة بالفترة التي ظهرت فيها قوة الإسلامالظاهرية لأنَّها على خلاف حكم القتال في النصف الأوَّل من الفترة وتشهد بذلك أمثال هذه الآيةالشريفة: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...**﴾ (١) فهي تدل على أن المجتمعالإسلامي لم يزل في دور التكوين ولم يقوَ الآن على الوقوف على قدميه، وتشهد الآية التالية منسورة محمد: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...**﴾ (٢) نرى أن اقتدار المسلمين بلغ حداً أن أجيز لهم بعدضرب العدو وقلعه وقمعه في ميدان الحرب أخذ الأسرى واعتقالهم في حوزة المسلمين حتى إذاوضعت الحرب أوزارها منّوا عليهم إما بالفكاك من الأسر دونما فدية أو أخذها منهم وإطلاقسراحهم.

ومن الواضح أنّ وضعاً كهذا لم يكن حاصلاً للمسلمين إلّا في النصف الثاني من فتراتالسنوات العشر في المدينة حيث إنَّ كفار قريش قد استنفدوا طاقاتهم كلها في حرب بدر وأحدوالخندق دون حصولهم على مكسب معقول وقد بدى الضعف والانهيار يراود مجتمعهم بشكلصريح وملحوظ هذا من جانب ومن جانب آخر أنَّ

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

(٢) سورة محمد: الآية ٤.

الهزائم المتتابعة التي نزلت باليهود من سكان المدينة في غزوة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة هزّت مجتمعهم وطوّحت به وأوشك على التلاشي ولم تصمد قوتهم في وجه الإسلام بل آلت إلى الضعف والانهيار، ونزلت سورة محمد في ظروف سائدة كهذه الظروف وفي هذا الأوان أجيز للمسلمين القبض على الأسرى بعد ضرب المقاتلين وقتلهم وقمعهم.

٣ ـ ولا جدال أيضاً في نزول ما يقرب من نصف سورة محمد في كفار قريش وتدل على ذلك دلالة صريحة الآية التالية: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ...**﴾ (١).

٤ ـ وكذلك لا جدال في نزول النصف الثاني من السورة في المنافقين المحترفين فإن ذكر من في قلوبهم مرض «الذين في قلوبهم مرض» مرّة في الآية الشريفة: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ**﴾ (٢) دليل واضح على ذلك.

٥ ـ ولا جدال أيضاً في أن المنافقين المحترفين ارتدّوا في «مشاقتهم» للرسول ومخالفتهم إياه بحيث دعوا كفار قريش سراً إلى التعاون معهم، وأن كفار قريش أصحاب النفع فيما دعوا إليه من قبل

(١) سورة محمد: الآية ١٣.
(٢) سورة محمد: الآية ١٩.

المنافقين المحترفين فاشترطوا لأنفسهم وقبل أولئك الشرط، كل هذا الذي تقدم لا يجادل فيهأحد، كما تدل على ذلك الآيتان الشريفتان: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُالْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِالأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾.

أجل، إن الحوادث المذكورة (استدعاء كفار قريش من أجل التعاون القريب مع المنافقينالمحترفين) وقعت في زمان فقد فيه كفار قريش جميع قدراتهم وقد استهلكت قوتهم العسكريةالحروب مثل بدر وأحد والخندق ولم يحصل بأيديهم شيء ذو بال منها وقد وقعوا تحت ضغط قوّةالإسلام المتنامية ومن جهة أخرى فإن المنافقين المحترفين كما بدا ذلك من الآيات المختصة بهممن سورة النساء وقد أوضحنا ذلك في القسم الخامس عشر من الكتاب فقد بدأ نفوذهم في داخلالمجتمع الإسلامي يزداد تغلغلاً وتنمو أعدادهم بشكل ملحوظ وتزداد عدتهم قوة.

وبالطبع إن الدعوة من جهة المنافقين المحترفين لكفار قريش وقد تمّت بنحو سرّي وتدعوهمإلى التعاون معهم تعاوناً قريباً كانت على شكل ظاهرة محصورة داخل مثلثٍ تشكل قوة الإسلامالمتناهية يوماً بعد يوم ضلعاً من أضلاعه وضلعه الثاني مؤلف من تغلغل المنافقين المحترفين الزائدفي المجتمع المسلم أما ضلعه الثالث فهو كائن من الضعف الطارئ والانهيار الوشيك المداهم لكفارقريش من هذه الجهة يمكن أن تكون دعوة التعاون بين الفريقين متضمنة دعوة كفار قريش إلىالإسلام

الظاهري لأن بقاءهم على الشرك لاسيّما وقد تضاءلت قوتهم وتناقصت قدراتهم عن ذي قبل ليس بذي نفع لأي تعاون ينشأ بين الفريقين وهذا أمر من الوضوح بمكان.

وبناءً على هذا فإن الفريق المدعو إلى التعاون يكون مستعداً للاصطباغ بصبغة الإسلام في الظاهر ويظل على ما هو عليه سابقاً في الباطن ليتسنّى له التعاون مع المنافقين المحترفين، على نحو قريب ولابد حينئذ من اشتراط الطرف المدعو بأن يكون له نصيب في الغنيمة أي في حال بلوغ المنافقين المحترفين إلى آمالهم المنشودة أن يكون لكفار قريش مظهري الإسلام سهم ملحوظ في هذه الآمال، وأنّ جزء الآية الكريمة: «سنطيعكم في بعض الأمر» يحكي عن هذا التلازم وعن قبولهم هذا الاشتراط.

نعم في مثل هذا المناخ خاطبت لغة الوحي «المنافقين المحترفين» بقوله تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ لا يتصور منكم بعد بلوغكم المشارب التي تسعون وراءها إلّا الفساد في الأرض والعبث بمقدرات الأمم وقطع صلات القربى والأرحام.

الفصل الرابع

تحقيق حول النظام التركيبي للآيات ٢٠ إلى ٣١ من سورة محمد(ص)

بناءً على ما اتّضح بيانه في خاتمة الفصل السابق ينبغي أنْ تكون طبيعة نظم الآيات التي جرىبحثها (الآيات ٢٠ إلى ٣١ من سورة محمد) على النحو التالي: الابتداء بذكر ارتداد المنافقينالمحترفين ثم التعرض لموضوع استدعائهم السرّي للتعاون مع مشركي قريش ثم يسوق الجملة فيآخر الخطاب هكذا: «فهل عسيتم ان توليتم» على حين نجد هذه الجملة اللازم تأخرها مقدمة فيالنظام التركيبي المتداول والمعمول به على موضوع الارتداد وموضوع الاستدعاء.

أجل لو أنهم تركوا الآيات منتظمة طبقاً لنزولها ولم يجروا هذا التغيير المقصود في نظمها لماكنا بحاجة إلى بذل هذا الجهد المتعب لفهم معناها ولعلمنا لأول وهلة أن الاتفاق على التعاون وأخذالعهود والمواثيق بين المنافقين المحترفين وكفار قريش كان في الإسلام على المعنى الذي ذكرتهالآية التالية: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ ودلالتها ظاهرةعلى وله القوم بالعرش، ونيل الخلافة الإسلامية وصرفها عن أهل بيت العصمة والطهارة.

ولكن الحزب الحاكم استطاع بمهارته القصوى أن يضع الآية على بعد خمس آيات من مكانهاالطبيعي ومن سياقها الذي وضعها الوحي فيه بتقديمها، لكي يمنع معناها من الاستيلاء على الحكمو الإفساد في الأرض ومنع يد أهل بيت العصمة والطهارة وهم أرحام الفاعلين ... من التصرفـبحقهم وبلوغ ذلك الحق بصفة كليّة، وليكون معنى توليتم الاستدبار وليس ولاية الحكم والسلطان،مع أن جملة:«**أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**» لقرينة واضحة على أن المقصود من توليتم إنما هو الحكم والإمارة والسلطان ليس إلّا.

وعلى أية حال إذا أردتم معرفة ارتباط المعنى بعضه ببعض وسياق الآيات على الوجه المنزل الصحيح فينبغي أن يكون التركيب على هذا الشكل: «ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة فإذا أنزلتسورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم، أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشيطان سوّللهم وأملى لهم، ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلمإسرارهم، فهل عسيتم إن توليتم أنْ تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم اللهفأصمّهم وأعمى أبصارهم، فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، ذلك بأنّهم اتّبعواما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم، أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج اللهأضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم

بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكمولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم».

إلى هنا نختم البحث والتحقيق حول الآيات الاثنتي عشرة التي تناولها البحث (الآيات ٢٠ إلى٣١) ونأتي في الفصل القادم بشرح الآيات ٣٢ إلى ٣٥ «من سورة محمد» وتحقيقها والتي تضمنتبيان موقف المؤمنين من المنافقين المحترفين وما هو حكمهم؟

الفصل الخامس

بحث الآيات ٣٢ إلى ٣٥ من سورة محمد وتحقيق التكليف المختص بالمؤمنين قبال المنافقين المحترفين

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَنْيَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُواأَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ * فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (١).

يستفاد من سياق الآيات ومن الناحية اللفظية أن الآيات آنفة الذكر نزلت في المنافقين أنفسهموتريد تقرير ما يلزم المؤمنين إزاءهم من الأحكام.

نعم عندما نشاهد ببصائرنا أن الجملة «وشاقوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى» المذكورةفي الآية «٣٢» مطابقة تطابقاً تامّاً لمفاد الجمل التالية: «وتقطعوا أرحامكم» المذكورة في الآية(٢٢) «الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى» المذكورة في الآية (٣٥)، «والله يعلم إسرارهم» المذكورة في الآية (٢٦)، «يخرج الله

---

(١) سورة محمد.

أضغانهم» المذكورة في الآية ٢٩، «ولتعرفنهمفي لحن القول» المذكورة في الآية (٣٠)، بالطبع ندرك أن الآيات الجاري بحثها الآن تعني وضع المنافقين المزبور (الفريق الذين في قلوبهم مرض) وتأمر المؤمنين باتخاذ المواقف الصحيحةضدهم: «إياكم أن تنفضوا أيديكم من طاعة الله ورسوله بالتهاون في أمر المنافقين المحترفين وبمصالحتهم فإنكم لو فعلتم ذلك فإنَّ أعمالكم سوف تلحق بأعمالهم من الإحباط والآن وأنتم الأعلون عليهم ولكم السلطة التامة من بينهم، فاستقيموا لهم فإنَّالله معكم ولن يتركم أعمالكم».

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ.. فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾!

والنكتة الجالبة للنظر أن مما يدعو إلى التثبت من صحة الموضوع السالف ويؤكد أن الآيات الجاري بحثها (الآيات ٣٢ إلى ٣٥) «سورة محمد» نزلت في المنافقين وأنها بصدد بيان حكم المؤمنين في قبالهم هو أنه في استعمالات القرآن الخاصة أن لفظ «مشاقة» عندما يرد مع الله ورسوله فإنَّ الفريق المشاقق لا يخلو من أحد اثنين إما في عداد كفار قريش أو أهل الكتاب ولكن عندما ترد المشاقة في القرآن مع الرسول وحده فإنَّ الفريق المشاقق هم المنافقون المحترفون.

والآن إليكم الاستعمال القرآني لهذا اللفظ في الطائفتين من الآيات الكريمة:

الطائفة الأولى:

﴿إذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلائِكَةِ أنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلقِي فِيقُلوبِ الَّذِينَ كَفَرُواالرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّبَنَانٍ*ذَلِكَ بِأنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِاللهَ وَرَسُولَهُ فَإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾(١).

والآيتان من الآيات النازلة في غزوة بدر التي نزلت بشأن كفار قريش.

﴿وَلَوْلا أنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَبِأنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾(٢) الآيتان أعلاه نزلتا في يهودبني النضير.

الطائفة الثانية:

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلَّا مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ أوْ إصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجْراً عَظِيماً * وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَىوَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(٣).

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) سورة الحشر.

(٣) سورة النساء.

الآيتان أعلاه في عداد الآيات ١٠٥ إلى ١١٦ من سورة النساء في المنافقين المحترفين وقدمر بحثها في الفصل الخامس من القسم الخامس عشر من هذا الكتاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُواأَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّواعَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ * فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (١) .

أصولا أن قيد «من بعد ما تبين لهم الهدى» الذي ورد في الطائفة الثانية من القرآن لم يستعملفي القرآن من أوله إلى آخره إلا في موارد ثلاثة وهذه الموارد الثلاثة خاصة بالمنافقين المحترفين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىلَهُمْ﴾ (٢) .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُإِسْرَارَهُمْ﴾ (٣) .

الآيتان أعلاه في عداد الآيات ٢٠ إلى ٣١ «سورة محمد» بحثت في الفصل الثالث من هذاالقسم.

---

(١) سورة محمد.

(٢) سورة محمد.

(٣) سورة محمد.

ولكن المسألة التي تلزم معرفتها هنا هي عن السبب في عد المنافقين المحترفين في الآية (٣٣) والآية (٣٤) من الكافرين والتمييز بين اتجاهيهما حاصل وقد فصل بينهما الوحي في أكثر الآيات.

أقول: هذا موضوع متداول في لغة الوحي، والقرآن الكريم يعتبر المنافقين المحترفين والمنكرين للولاية في زمرة الكافرين وقد صرح بكفرهم الباطني كأن قال:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

لاحظتم كيف جعل الله المنافقين المحترفين (الذين في قلوبهم مرض)ومنكري ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) وخلافته في كلامه الموحى به من الكافرين.

وعلى أية حال، إلى هنا ينتهي بحث الآيات من سورة محمد

---

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة المائدة.

وتحقيقها ونحب أن نلفت الأنظار إلى أن آيات هذه السورة بخاصة الآيات الاثنتي عشرة ٢٠ إلى ٣١ أوضحت ببيان شاف واف أن فريق «المنافقين المحترفين» اتفقوا مع كفار قريش وتبانوا تبانياً سياسياً معهم لا سيما الفرع الأموي منهم على زحزحة أهل البيت عن حقهم وصرف الخلافة عنهم وإنكار حقوقهم المشروعة لهم، وعقدوا معهم الأحلاف وأقاموا العهود والمواثيق.

وهذا الذي عرضناه نموذج من الاتصال السياسي الوثيق للمنافقين المحترفين مع فريق المشركين الذي ذكرنا في هذا القسم والآن نذهب إلى القسم الثاني من هذه الروابط إن شاء الله تعالى.

القسم السابع عشر

الاتصال السياسي بين المنافقين المحترفين والعاديين

وهذا القسم يرتبط ببحث نماذج من الآيات التي يستبين منها الاتصال السياسي الوثيقبين المنافقين المحترفين والمنافقين العاديين، يكفي في ذلك الرجوع إلى «سورة المجادلة» وبحثهابحثاً دقيقاً!

فهرس الفصول والمواضيع:

متون الآيات من سورة المجادلة.

الفصل الأول: تحقيق موجز عن الآيات الأولى من سورة الأحزاب وتتصل بموضوع الظهار.

الفصل الثاني: تحقيق أربع آيات من سورة المجادلة وترتبط بإلغاء أحكام الظهار الجاهلية.

الفصل الثالث: بحث الآيات ١٥ إلى ١٣ من سورة المجادلة التي تثبت للمنافقين المحادثةوالنجوى «بالإثم والعدوان ومعصية الرسول».

الفصل الرابع: بحث الآيات ١٤ إلى ٢٢ من سورة المجادلة وإثبات أصل الارتباط السياسيبين المنافقين المحترفين والمنافقين العاديين.

الفصل الخامس: كلمة حزب الله وارتباطها الأصلي بموضوع التبري في اصطلاح القرآنالمجيد الخاص.

متون الآيات من سورة المجادلة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ
أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢)
وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ
تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ
(٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ
وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ
لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾.

الفصل الأول
تحقيق موجز في الآيات المتصلة
بموضوع الظهار من سورة الأحزاب

الآيات الأولى:

قبل أن نلج البحث ونتناول بالتحقيق آيات «سورة المجادلة»ولأنَّ الآيات الأربع الأولى منها نزلت في إلغاء حكم الظهار الجاهلي، يلزمنا أنْ نلفت النظر إلى سورة الأحزاب وهي من السور النازلة قبل سورة المجادلة وقد جرت الإشارة فيها إلى «مسألة الظهار» (١).

فلننظر في لغة الوحي هنا وتعبيرها عن الظهار بأي أسلوب كان؟

تبدأ سورة الأحزاب بالآيات التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَايُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا

---

(١) الظهار واحدة من السنن الجاهلية المعروفة والمتداولة في ذلك المجتمع، فكل من غضب على زوجته منهم قال لها: **«أنت عليّ كظهر أمي»** فيحكم على المرأة بالإقصاء وتحرم على زوجها ما دام حياً، بلْ لا يصح لزوجها الرجوع إليها فيما إذا تداركه الندم وأراد الرجوع لأنَّ النكاح يعتبر حينئذٍ بمثابة نكاح الأم وهو عندهم **«أحرم الحرام»**منه.

تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * مَا جَعَلَ اللهُلِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْأَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

كما تلاحظون أن هذه الآيات اتخذت التهديد بشكل عنيف في خطابها للنبي(ص) بحيث لمنعثر على نظير له في سائر السور.

فخاطبت النبي بقولها: اتق الله في سنتين جاهليتين هما الظهار والولد المتبنّى ولا تطعالكافرين فيهما، وكان ذلك الأمر عزيزاً على رسول اللهلأنّه كان يخشى من إلغائهما لأنهما منالسنن المتجذرة في المجتمع الجاهلي وإلغاؤها يحمل العدو على التبليغ ضد النبي ودعوته الجديدةمن ثم نرى لغة الوحي توجّهت بالخطاب إلى رسول الله مصحوباً بالتهديد اتقاءاً لقالة السوء كي يعلمالعدو والصديق أن إلغاء هاتين السنتين لا يرتبط بالنبي بوجه من الوجوه وأن الأمر صادر من اللهوحده وأنه هو الذي أمر بإلغائهما.

ثم نجد في سورة الأحزاب الآيات المتضمنة لإلغاء سنة التبني الجاهلي تنزل على رسولالله(ص) وتأمره بالزواج من زينب بنت جحش رأساً ليخط على جميع الأحكام الخاصة بهذا النوعمن التبني خط البطلان.

نعم، وإن لم تؤدِّي هذا الإجراء إلى قطع ألسنة السوء من الخصوم والمناوئين بشأن الولدالمتبنى ولم يكفّوا عن إيذاء النبي(ص) وبلغ ذلك منهم إلى الحد الذي هددهم الله تعالى في الآيات٦٠ إلى ٦٢

بالقتل والتصفية، إلا أن نزول الآيات في هذا الموضوع لم يعدم الأثر من حيث الحيلولة بين قالة السوء وبين تأثيرها على ذهنيّة الأمة بالانحراف والجنوح إلى الباطل.

[مرّ في القسم الثاني عشر من الكتاب المطالب المختصة بالأحكام الجاهلية عن الولد المتبنّى والآلام التي تحملها النبي من المنافقين لا سيما المحترفين منهم فمن أراد الاطلاع على ذلك فليرجع إلى هناك].

ولما كان الظهار أشدّ وطأً في المجتمع الجاهلي من حكم «المتبنى» لذلك كان إلغاء أحكامه أصعب من سابقه فلم يتناسب نزول أحكامه أجمع مع نزول بطلان أحكام التبني لذلك نرى حكمه الأول جاء على شكل إشارة مستعجلة في الآية الرابعة من سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿**وَمَاجَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ والغي ابتداءً على هذا النحو ثم تجاوزته الآيات ترقباً لمجيئه على نحو أتم إلى أن مرّت فترة من الزمن على هذا الحكم وحدثت واقعة ظهار في أسرة تحمّل أعضاؤها الهم والعنت من ذلك وجاءت المرأة المظاهر منها إلى النبي(ص) وطلبت منه خلاصاً من مشكلتها لتستعيد حياتها الزوجية كما كانت وشكت همها إلى ربها وهي تسأل الحل.

وبتمام هذه المقارنات أصبح المناخ صالحاً للتغيير وألغيت جميع الاعتبارات الجاهليّة بنزول الآيات الأولى من سورة المجادلة على النبي(ص) لأحكام الظهار، تلك السنن الجاهلية المقيتة

التيتقوّض المجتمعات وتقضي على سعادة الأسر وبعد إيضاح الوضع لنزول آيات إلغاء الظهار وحكمهالجاهلي وإلغاء حكم التبني أيضاً علينا النظر في حقيقة أولئك الكافرين والمنافقين الذين حذرهمالنبي(ص) غاية الحذر وكان مستاءاً من مغامزهم وحصائد ألسنتهم وتبليغهم السوء على النبي(ص)فمن هم هؤلاء ومن أي فريق يصدرون ولأية طائفة ينتمون؟

أما المنافقون فمن المقطوع به أنهم نفس المنافقين العاديين، الذين كانت دواعي إسلامهم علىأساس الاحتفاظ بهويتهم القبلية أو مكانتهم الأسرية، وهم القوم الذين تجدهم يحيون في الخنادقالمناوئة للإسلام ولا يرون لأحكام الإسلام سلطاناً عليهم ولا التزام لهم بها ليس هذا فحسب بلطالما عمدوا إلى مخالفة أحكامه ووسوسوا لأتباعه الجدد لزرع النفاق في نفوسهم بهذه الوسوسة،وهذا مقبول من جهة طبيعة الأجواء التي يعيشها المنافق.

وكان خوف النبي من هؤلاء قبل نزول الآيات بهذا الشأن معقولاً لأنهم ساعة نزول الآياتمن سورة الأحزاب في أواخر السنة الخامسة من الهجرة تنامى عددهم في المدينة إلى درجةمشهودة ولذا كان بإمكانهم توظيف هذين الحكمين لتجذرهما في المجتمع الجاهلي في سوءالدعاية ضد النبي(ص) ولابدع في قبول العقل لهذه الملاحظة ولكن ما هو السبب في خشية النبيمن أهل الكفر. فهل أن النبي(ص) يخشى الكافرين المعروفين الذين لا يعدون كفار قريش وسائرالمشركين وعباد الأصنام القاطنين في شبه الجزيرة العربية،

حين يبلغ الأحكام الإلهية ولو فرضناجدلاً إمكان ذلك فلماذا لم يخشهم في تبليغه ما هو أشد نكاية بهم وأعظم وقعاً عليهم من حكمي التبني والظهار وهو شن الحرب على عبادتهم الأصنام وإبطال الشرك وتعريضه نفسه الشريفةلمختلف الأغراض والأعراض.

أضف إلى ذلك حقيقة أخرى لا محيد عنها وهي نزول القرآن فهل كان الكفار يلقون بالاً له أويعبأون بآياته حتى يقال عنهم إنَّ بساط تبليغهم ضد النبي والطعن في دينه يطوى بمجرد نزول آياتتهددهم وتتوعدهم أو يقال: بأن بيان النبي الأحكام الدينية المتصلة بإبطال حكم التبني الجاهليوالظهار باعث على إثارتهم ومعهم أعوانهم من أوباش مكة فيكون صنع حرب جديدة بعد حربالأحزاب في متناول أيديهم ومن الواضح أن الجواب على أي احتمال من هذه الاحتمالات لم يكنإيجابياً.

وبناءً على هذا فإن «الكافرين» المقصودين هنا بالحديث (الذين ورد ذكرهم في سورةالأحزاب) هم غير أولئك المعروفين بكفرهم المتحققين في كل حديث يساق عنهم فهؤلاء الكافرونينبغي أن تكون لهم منزلة المنافقين العاديين، الذي يشاركون المسلمين العيش في وسط واحدويتنفسون في مناخ واحد، ولهم نفوذ واسع بين الجماعة الإسلامية، فلابدع أن يكون لقالة السوء منهم أثر على المؤمنين البسطاء والمؤمنين حديثي العهد بالإسلام بحيث يسبب انحرافهم وانقلابهمعلى النبي وكان النبي يخشى هذه الفتنة التي هي بالإمكان إثارتها.

ولا يمكن اعتبار هؤلاء الكفار من مشركي أهل الكتاب لأن النصارى لا يسكنون المدينةوليست موطناً لهم وأما اليهود المدنيون القاطنون في المدينة وفي أطرافها فقد تعرضوا إلى انتكاسةفي ذلك التاريخ أي بعد غزوة الخندق وبني قريظة إلى حد تضاءلت فيه قوّتهم العسكرية وتلاشتبحيث فقدوا القدرة على أيّ عمل مناويء للإسلام حتى الدعاية السيئة مضافاً إلى أن حكم التبنيوالظهار هما من خواص المجتمع الجاهلي ولا ارتباط لليهود أو النصارى به.

إذن ينبغي أن يكون هؤلاء الكفار الذين عناهم القرآن بالقطع واليقين هم المنافقونالمحترفون الذين يحملون على أهل الإيمان ليس هذا فحسب بل يعدون من الزعماء فيهم أيضاً أنّهم هم المنافقون المحترفون أنفسهم الذين سقط القناع عن وجوههم والذين اتخذوا موقفاً من الكفرونكران الجميل طيلة نزول القرآن.

أجل ثبت في الفصل السابق أن لفظ كافر يطلق أيضاً على المنافقين المحترفين بالاصطلاحالقرآني.

ومؤيد آخر لإطلاق كلمة الكافرين في الآيات الأولى من سورة الأحزاب على المنافقينالمحترفين أن الآيات الشريفة في السورة ما فتئت تتقدم بذكر المؤذين والمخالفين لإلغاء الحكمالجاهلي «للتبني» وما يلحق به وتستمر في عرض موضوع إيذائهم وقالتهم السوء بحيث ينجر إلىنزول الآيات التالية:

﴿لئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ

أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ ونجد في هاتين الآيتينلم يجر ذكر للكافرين واستعمل في موضعه لفظ «الذين في قلوبهم مرض» من هذا التقصي لموضعاللفظين يثبت لنا جيداً أن لفظ الكافرين المذكور في أوّل الآيات من السورة نفسها لا يعدو كونه»فريق المنافقين المحترفين» الذين كان النبي(ص) يخشاهم من إلغاء حكم الظهار والتبني الجاهليكما يخشى المنافقين العاديين ونزول الآيات الأولى إنّما كان لإبطال قالتهم السوء ورد دعايتهم ضدالإسلام ونبيه(ص) .

وعلى أية حال نقول: بعد توضيح موضوع التبني والظهار وأن الاثنين في مستوى واحد وهمامن السنن القائمة والمتغلغلة في المجتمع الجاهلي يكون حينئذٍ إلغاؤهما صعباً على المنافقين لا سيّماالمحترفين منهم، الذين ما كان إيمانهم بالنبي(ص) إيمان صدق ومحبّة، ولذلك كان تبليغهم ضد النبيوشريعته مكثفاً وينسحب على مساحة أوسع من المجتمع ولولا نزول آيات التهديد في أول السورةلارتكبوا حماقات أعظم مما هم عليه وبالغوا في الدعاية ضد الإسلام بحيث يؤدِّي ذلك إلى تعرضأكثرية المؤمنين البسطاء للزلل والتيه والخطل ويصبح المجتمع الإسلامي مرتعاً للفتنة وعرضةللتشنج والهيجان لذلك سارع القرآن الكريم بعد عرض ثلاث آيات أو أربع في صدر سورة الأحزابإلى إلغاء هاتين السنتين الجاهليّتين إلّا أن الأمر يختلف في إلغاء حكم الظهار الجاهلي لاحتياجهإلى شرايط تتصل بالبيئة فاقتصر في بقية سورة الأحزاب إلى إلغاء السنة الجاهلية من حكم التبني،إلى أنْ مرَّ على ذلك مدة من الزمن وحدثت أمور أخرى مساعدة لإلغاء حكم الظهار أنزل الله

حكمإلغائه تماماً في أوّل سورة المجادلة.

بعد بيان هذهِ المقدمة يأتي الآن التحقيق في آيات سورة المجادلة.

تحقيق الآيات الأربع الأول من سورة المجادلة التي ترتبط بإلغاء أحكام الظهار الجاهلية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾.

يظهر من الآية الأولى أن نزول الآيات آنفة الذكر مسبوقة بحادثة الظهار التي تصاب بهاالعوائل والأسر، فتتحلل أنسجتها وتتلاشى هويتها وترتادها المشاكل والمعضلات، وموجز القصة أنَّ امرأة مظاهراً منها شكت أمرها إلى رسول الله(ص) وطلبت من جنابه الشريف حلاً لمشكلتها العائلية إلاأن النبي(ص) أبى عليها ذلك لأن الآيات التي تضمنت تفاصيل المسألة وأحكامها لم تكن نازلة بعد؛ لذلك لم تحصل المرأة على حلٍّ يريح لواعجها ويروي غلتها بناءً

على وجود شرائط بيئيّة خاصةليست مساعدة في أوانها فلجأت المرأة إلى الله وشكت أمرها إليه، وهو أعلم بما ينتابها من شدّةالألم، ودعته لإيجاد حل لمشكلتها لهذا السبب أنزل الله على نبيه آيات تضمنت تفاصيل أحكامالظهار ببيان واضح صريح.

والحكاية هي التي وردت في روايات الفريقين من وقوع حادثة الظهار في إحدى الأسرالمسلمة واسم المرأة المظاهر منها «خولة بنت ثعلبه» فقد أرجعت أمرها إلى رسول الله(ص) ولجأتإلى اللهحتّى نزلت الآيات السالفة في الظهار وقررت إعطاء الكفارة في حال وقوع حادثة كهذه ثمالعودة إلى المرأة وهي حل لزوجها.

وما ذكرناه هو جذر الحادثة التي أدّت أخيراً إلى نزول آيات «الظهار»أما كيف صار نزولهذه الآيات سبباً لانزعاج عدد من المسلمين أو المنافقين المحترفين والعاديين على أقل تقديروأدّى إلى عدم رضاهم عن إلغاء هذه السنن الجاهليّة بل معارضتهم لذلك الإلغاء فإنّنا نقول:

طبقاً لما مر في الفصل الأول لما كان موضوع الظهار من السنن المرفوضة في الإسلام وقد مرَّ التنديد به قبلاً في سورة الأحزاب فإنَّ المؤمنين حقاً برسول الله(ص) رفضوا الظهار وتبرأوا منه ومنأهله من أول يوم نزل شجبه ورفضه في حملة الإسلام الأولى ضدّه وقابلوه بما قابلوا به سنن التبنيالمذمومة التي أبطلها الإسلام، وكذلك أبطلوا الظهار من أول وهلة وإلى يوم القيامة.

إلّا أننا نجد هذه السنة الباطلة ما تزال معمولاً بها بعد نزول سورة الأحزاب في طول المدةالتي نزلت بها السور التالية بعدها، بين المسلمين، ومضافاً إلى ما يفعله المنافقون فإنّ المؤمنينالبسطاء كانوا عاملين به أيضاً، وأدّى ذلك إلى نزول سورة المجادلة بالصورة التي كشفنا عنها سابقاً.

ولا كلام لنا في كون الظهار معدوداً من الذنوب عند المؤمنين الواقعيين قبل نزول سورةالمجادلة كما يدلُّ على ذلك الجزء من الآية الكريمة: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراًوَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾ في الآية الثانية، لأن العفو والمغفرة إنما يصدقان في موضع يكون المعفو عنه والمغفور له قد احتقب ذنباً وارتكب معصية.

وعلى كل حال فإننا نرى أنّ الظهار الجاهلي مع نزول سورة الأحزاب واعتبارها الظهار منالسنن الجاهلية المرفوضة في رأي الشرع الشريف ما يزال بين المسلمين معمولاً به لذلك شدد اللهتعالى في أمر الظهار في سورة المجادلة، ورتب على فعله كفارة تلزم الفاعل وجعله على نسقمتدرج ليشمل جميع فاعليه وكان ذلك من أجل اندراج المؤمنين في رعيل المرتكبين لهذا الذنب،وأراد الله تعالى تنقيتهم من جريرته، وشدد في كفّارته ليطهر ذيولهم من ذلك الذنب الكبير.

كما تدلّ على ذلك الجملة من الآية﴿**ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ**﴾ أي والعلم عند الله تعالى شدةالكفارة وإلزامكم بأدائها عند ارتكاب ذلك العمل، من أجل إقلاعكم عن فعله، وكفكم عن ارتكابهذه السنّة

الجاهلية الساقطة، والجملة آنفة الذكر توجد في الآية الثانية وتدل على ذلك أيضاً الجملةمن الآية «ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله» المذكورة في الآية الثالثة، وأفصحت دلالتها على أن تدرجالكفارة على هذه الكيفيّة إنما كان من أجل إيمانكم بالله ورسوله.

ولكن ظهر لنا أن شدّة التكليف كما كان سبباً في إبعاد المؤمنين عن ارتكاب هذا الذنب فقدصار سبباً أيضاً في إقبال المنافقين عليه وتمرسهم بالعناد ليكونوا في الطرف المقابل تماماً للمؤمنينومنتهى القول: إنَّ المنافقين العاديين بما أن إيمانهم عند المؤمنين مطعون فيه وأنهم متهمون علىالإسلام فإنَّ تمردهم على أوامر الشرع لم يشكل ضربة للدين ولا للرسالة أو المرسل، ولم تكنمخالفتهم للنبي في أمر الظهار باعثةً على ضلال أهل الإيمان أو انحرافهم عن جادّة الصواب.

والأمر في المنافقين المحترفين على العكس من ذلك تماماً لما لهم من الوجهة في الدين بينأهل الإيمان ولخفاء نفاقهم بما يظهرونه من الحماس للدين فقد كان بإمكانهم حرف المؤمنينالبسطاء والبدائيين والتأثير على أفكارهم بأدنى تبليغ متصور وربما حملوهم على تصديقهم بأنالحق معهم في رفض «إلغاء الظهار» ونظائره.

أجل إن مخالفات المنافقين وعنادهم وقالة السوء التي يطلقونها بين الناس بإمكانها زعزعةالاستقرار وإثارة الفتنة والشغب بين المسلمين وفي داخل مجتمعهم وبإمكانهم كذلك كسبالمؤمنين ضعيفي الإيمان إلى جانب المخالفين، وعند ذلك يؤلفون صفاً واحداً يدعم بعضه البعضالآخر ضد الإسلام لذلك نرى الآيات التي تناولت

الموضوع تختتم بقوله تعالى: «وتلك حدود اللهوللكافرين عذاب أليم» فقد أشارت هذه التتمة إلى كفر هذا الفريق والحاده ثم تمخضت السورة بعدذلك إلى ذمهم وقمعهم ودعت إلى تمييز هويتهم ليمتازوا عن غيرهم.

فابتدأت الآية فسمتهم «الذين يحادون الله ورسوله» ثم راحت تعبر عنهم باسم «يتناجونبالإثم والعدوان ومعصية الرسول» ثم تلى ذلك قوله تعالى: «قوماً غضب الله عليهم» وتعمد الآيةفي آخرها إلى توجيه ضربة قاصمة لهم فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِيالأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فظهرت بهذه العبارات فضيحتهم.

وفي ختام السورة يحذر المؤمنين أن ينصاعوا لأحدهم ،وينبغي على المسلم أن ينازلهممنازلة العدو وإن كانوا في عداد الآباء والإخوان والأبناء والعشيرة.

ثم إن بغض هؤلاء علامة على رسوخ الإيمان في قلب المؤمن وبلوغه درجة الرضا من اللهتعالى ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ... رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾!

تحقيق الآيات ٥ ـ ١٣ من سورة المجادلة كي نرى هذه الآيات الشريفة فيسورة المجادلة أولاً كيف عرفت «المنافقين المحترفين» وثانياً إلى أي نوع من أنواع الارتباطات السياسية مع فريق المنافقين العاديين أشارت هذه الآيات.

تحقيق الآيات ومعنى المحادة والنجوى

﴿إنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ...﴾.

نجد هنا أن أولى الصفات التي أطلقت على المنافقين المحترفين هي العداء لله ورسوله وكشف هويّتهم المعبّرة عن ذلك. أن «سورة المجادلة» هي السورة الخامسة بعد المائة في ترتيب النزول ضمن مائة وأربعة عشرة سورة هي جماع ما في القرآن من السور ولم يحدث أن جرى ذكر المحادّة والعداء في أي سورة من هذه السور قبل نزولها وهذه هي المرّة الأولى التي تنطق لغة الوحي بلفظ المحادّة والعداء من قوم أو فريق بالنسبة إلى الله ورسوله.

نعم في سورة الأنفال من السور التي نزلت قبل سورة المجادلة في الآية الثالثة عشرة منها وردت كلمة «المشاقة» ومخالفة كفار قريش مع الله ورسوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وجاءت نفس الكلمة في الآية الرابعة من سورة الحشر كلفظ المخالفة من يهود بني النضير مع الله ورسوله ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب.

وكذلك في الآية الخامسة عشرة بعد المائة من سورة النساء

وردت كلمة المشاقة ومخالفةالمؤمنين لرسول الله(ص)﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَنُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ خلا أن لفظ «المحادة» ومعه لفظ «العداء»لله ورسولهمن جماعة أو فريق لم يردا في أية سورة من سور القرآن الكريم.

إلا في سورة المجادلة فإنَّها السورة الوحيدة التي تَضمنت هذا اللفظ ولأول مرّة، ومن الواضحأنَّ لفظ «المحادّة» وهاهنا سؤال ملحّ:

محادّة المنافقين المحترفين لله ورسوله ترتبط بأي أمر من الأمور التي نزلت سورة المجادلةبشأنها؟ أتراها مرتبطة بإلغاء سنة الظهار الجاهلية أو أنها ترمي إلى أمر آخر تدرج من نزول سورةالمجادلة حتى بلغ مرحلة المحادّة؟!

بالطبع من سياق الآيات المتحدث عنها يبدو لنا أنه وثيق الصلة «بإلغاء الظهار».

نهاية الأمر أن الأثر التاريخي الذي يدلُّ على أنَّ مخالفتهم العلنية للنبي هل جاءت بعد نزولإلغاء السنة الجاهلية الظهار أو قبل ذلك هذا الأثر مفقود من أيدينا أو أنهم بعد تأليف الحكومةالإسلامية أعادوا النظر في إلغائه، كما خالفوا في أمر الخمس و «حج التمتع» يومها يظهر لنا أنَّ المحادة والعداوة لله ورسوله يدوران حول هذا الأمر الذي كان مدار بحث وجدال ومشاقة بينهموبين رسول الله(ص).

والذي أثير ثانية على أشدّه مع نزول الآيات الأولى من سورة المجادلة، فتعدت عداوتهم منأجل هذا الأمر من مرحلة المشاقة والمخالفة

إلى مرحلة المحادة والعداوة.

وقد أشير فيما سبق في بحث الآيات من سورة محمد (المقطع الأول من هذا القسم منالكتاب) أن سبب المشاقة ومخالفة المنافقين المحترفين لرسول الله(ص) في الأصل كان على تقديمأمير المؤمنين وإعطائه الأولوية والرفعة على سائر المسلمين، وتسليم زمام الأمور بيديه منالسيادة والإمامة ورأينا كيف حدث التباني السياسي مع كفار قريش من أجل تنحية أهل البيت عنحقهم وسلب الخلافة منهم، ومصادرة جميع ما لهم من الحقوق.

نعم، لما شاهد المنافقون المحترفون بأم أعينهم أن النبي عمد إلى سنّتين بارزتين من أهمالسنن الجاهلية وألغاهما بأمر الوحي السماوي وهما «التبني» و «الظهار» وقد كان لهما في الوسطالجاهلي تجذر ضارب بأعماق تربتهم ولم يعتن بهم ولا ترضّاهم ولا أقام لهم قدراً علموا أيضاً أنّ موضوع خلافة علي وإمامته وهي ما فتئت أوضح دلالة على العداء والحقد والبغضاء من لفظالمشاقة أن هذا اللفظ يدلُّ بوضوح على أنَّ العدو المحادد يضمر لعدوه من الحقد والعداء ما يريد أنيقطعه بها إرباً إرباً.

ولكنّ لفظ «المشاقة» دلالته على المخالفة والتفريق من جهة العدو فحسب.

ويتجلى لنا من هذا البحث أن فريق «المنافقين المحترفين» بعد نزول سورة «المجادلة»وتأكيدها على نفي سنة الظهار الجاهلية انقلب عداؤهم للنبي من المخالفات والعناد والوقوف فيوجهه الكريم

عن تنفيذ الأوامر بحيث اكتست صفة المحادة والعداء والبغضاء لله ورسوله وكأنمااتخذوا قراراً أن يهرعوا إلى السيف البتار القاطع في تنفيس حقدهم على الله ورسوله أن يجعلوهماأشلاءً موزعة، فينحّون الله ورسوله ناحية بأية وسيلة كانت لكي يبلغوا غايتهم ويصلوا إلى مرادأنفسهم لهذا نجد هؤلاء القوم الذين لم تتعد مؤامراتهم على النبي(ص) الأسرار طبقاً لمفهوم الآيةالكريمة: ﴿**وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَايُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً**﴾ (١).

فقد صاروا يعقدون الجلسات السرّيةليلاً ويضيفون التصاميم التي تتضمّن القضاء على الدعوة وصاحبها فبلغ عداؤهم إلى مرحلة المحادّةلله ورسوله، وأعلنوها عداوة مكشوفة لا يسترها شيء إذ صاروا بعد الأسرار والعمل في الخفاءيعلنون محادتهم في وضح النهار بجلسات يوميّة بمسمع ومشهد من النبي(ص) والمؤمنين الواقعيينفيناجي بعضهم بعضاً ويتبادلون الأسرار والعين تنظرهم ويشتركون في خطط العداء التي تستهدفالدعوة وصاحبها حيث نزلت الآيات السبع الأخيرة تتضمن هذا الموضوع [الآية ٨١ من سورةالنساء من الآيات التي تضمنت مخالفة عبد الرحمن واتباعه لرسول الله(ص) بشأن الجهاد وقد مرَّ شرحه].

تدور على لسان النبي بأحاديث ثابتة بل ربما تناولتها الآية والآيتان تنزلان على النبيبواسطة ملاك الوحي لابدع أن ينزل

(١) سورة النساء: الآية ٨١.

بإمامة على قرآن يؤيدها ويثبتها من ثم عمدوا إلى مواجهةالأحداث المستجدة حول هذا الموضوع بصرامة وجد بعد نزول السورة.

لذلك وضعت عائشة وحفصة خطة لتصفية النبي والقضاء عليه «كما بيّنا ذلك في بحث آيات سورة التحريم وقد مر سلفاً» وظهر ذلك للعيان في محاولتهم تنفيرناقة النبي في «العقبة»(وقد بحثنا ذلك أيضاً) هذه كلها تعتبرثماراً خبيثة لتلك المحادّة والعداوة لله ورسوله وطفحت كلها على السطح بعد نزول سورة المجادلة،وظهرت بهذه الصورة الخبيثة!

وعلى أية حال فإنّ سورة المجادلة تمتاز عن سور القرآن كلها بأن آياتها محفوفة بذكرالمحادّة وعداء المنافقين المحترفين لله ورسوله وحبذا لو أطلق على هذه السورة.

والآن مع الآيات ذات الصلة بموضوع النجوى والاجتماع السري للمنافقينالمحترفين وحلفائهم لاتخاذ القرارات اللازمة المحادّة:

﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا

تَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾.

بعض المطالب المستفادة من الآيات السالفة كالتالي:

١ ـ لا شك في أن الآيات آنفة الذكر تتصل بنجوى الفريق المعبر عنه «الذين يحادون اللهورسوله» وبإسرارهم، وتريد الآية الإفصاح عن جنس المحادة والعداوة منهم لله ورسوله.

حيث نلاحظ أن الآيات الكريمة عبرت عن اختلائهم ببعضهم ونجواهم بأسرارهم»بالذنب والعداء والمعصية» لرسول الله وذلك أنموذج خبيث للمحادة والعداوة وأيضاً تشاهدون أنعمل النجوى تكرر منهم حتى أدّى ذلك إلى نهي النبي عنه ومن الواضح أن نفس التكرار لدليل آخرعلى شدّة «المحادّة» والعداوة لله ورسوله.

ونلاحظ في المرتبة الثالثة أنهم ما فتئوا يتناجون بمثل هذه المعصية مع تقدم النهي عنهاولكنهم يعودون إلى التناجي بشأنها مجدداً ويسرون حديثها ولم يلقوا بالاً إلى نهي رسول الله(ص)عنها ومن الواضح أن دلالة هذا الأمر على إفادة شدّة المحادة والعداوة والمعارضة أكثر وضوحاً من النكتتين أعلاه.

أضف إلى ذلك أن لغة الوحي أخبرت عنهم بأنهم يحيون النبي عند ملاقاته بغير تحية الإسلاموعن السلام بضده يخاطبون ويزعمون أنهم يحيّونه.

روى السيوطي[١] في ذيل تفسير الآية «٨» من سورة المجادلة الرواية التالية:

أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله(ص) إذا حيّوه: «سام عليك» فنزلت.

انظروا كيف يستبدلون لفظ سام بلفظ سلام (لمضادته إياه في المعنى وموافقته في اللفظ) ويحيون به النبيّ(ص) .

وهذه كلها شواهد حية تخبرنا على أن الفريق المتناجي المذكور في الآيات المتحدث عنهاهم أنفسهم «الذين يحادون الله ورسوله» المذكور في الآيتين المذكورتين قبلاً وقد ظهر أن نجواهما هي إلّا امتداد لمحادّتهم وعداوتهم لله ورسوله، كما هي كشف لما يدور في

(١) الدر المنثور، ج١ ص١٨٤.

تلك الاجتماعات السرّية منهم.

نعم، إن سورة «المجادلة» إنما كانت متميّزة من بين سور القرآن فلأن آياتها طعّمت بذكر المحادة وعداوة هذا الفريق لله ولرسوله كذلك انفردت بكونها السورة الوحيدة من بين سائر السور تحدثت بشكل مفصل عن حديث النجوى وما كان يدور فيها من أسرار هذا الفريق، وما كانوا يبيّتون من التصميم الجاد على عداء رسول الله ومعصيته.

٢ ـ آن الأوان أن نعرف هؤلاء الأعداء والمبغضين المتناجين بالإثم والعدوان ومعصية الرسول من هم وما هي قصّتهم؟!

ولكي نلم بمعرفتهم بطور تام ينبغي الإلمام بمعرفة الزمن الذي ابتدأ به نزول سورة المجادلة، لكي نعرف كذلك بالتحديد في هذا التاريخ نفسه من هذا الفريق المخالف للنبي الذي يكون بمقدوره إظهار العداء والمحادة والبغضاء في المدينة بعقد الاجتماعات العلنية بمسمع ومشهد من النبي والمؤمنين ولا يعتني بنهي النبي عنها ويصر على عقدها وحضورها بصورة علنية، ولم يفتأ يحبك المؤامرات للمؤمنين بعناد وإصرار غير عابىء بما يبديه النبي من النهي القاطع عنها؟!

نقول في تعيين ظرف نزول سورة المجادلة كما مرّ ذلك آنفاً في سابقاً من هذا المقطع بأنّ نزول «سورة المجادلة» كان قطعاً بعد نزول سورة الأحزاب، ولما ذكرت سورة الأحزاب غزوة الخندق وبني قريظة وكذلك تعرضت لذكر بناء رسول الله على «زينب بنت جحش» (وكانت من قبل زوجة لزيد بن حارثة متبنّى رسول الله (ص)) ونزول آية الحجاب وحجب نساء النبي، وهذه كلها حوادث

وقعت في السنة الخامسة للهجرة فتبين لنا من هذا أن نزول سورة «المجادلة» مرتبط بالنصف الثاني من فترة السنوات العشر التي قضاها الإسلام بعد الهجرة في المدينة وأما تحديدالموقع من هذا النصف لنزول السورة فليس لنا وسيلة نبلغ بها هذا الحد الدقيق. إلا أن نعمد إلىحساب العدد الذي نزلت فيه السورة لأنَّ سورة الأحزاب هي السورة الرابعة في ترتيب النزولللسور التي نزلت في المدينة من أصل أربع وعشرين سورة وحينئذٍ ينبغي أن نكشف عن العددالمختص بسورة المجادلة فأيّ عدد من أربع وعشرين يكون خاصاً بها حتى نستطيع تميّز الحدّالتقريبي لنزول السورة.

وفي بحث كهذا نرى أن أربع عشرة سورة بين قصيرة وطويلة نزلت بعد سورة الأحزاب حتّى وصلت النوبة إلى «سورة المجادلة» ونزلت بعدها تسع سور أُخرى حتى كمل العدد ثمانٍ وعشرينسورة ختمت بها السور في المدينة المنورة.

[ذكرنا ترتيب السور حسب النزول في أول الكتاب فراجع].

أجل يمكن النقاش في تقديم بعض السور وتأخيرها إلا أننا نستطيع الجزم على أية حال بأنَّ نزول سورة المجادلة لم يكن في النصف الثاني من فترة السنوات العشر في المدينة وربّما كان نزولهافي أواسط ذلك التاريخ على أقل تقدير.

ويمكن اتخاذ النتيجة مما تقدم بأنَّ تلك الفترة من تاريخ الإسلام استحونت على الكفاروالمشركين واليهود فلا يستطيعون في المدينة المنورة التظاهر بمثل هذا العداء والمحادّة، أما الكفارومشركو العرب

فإنّهم بعد الهزيمة النكراء التي منوا بها في غزوة الأحزاب، لم ترتفع لهم راية وبدأنجمهم بالأفول حتى بلغت الحال بأبي سفيان وهو أعلى قائد من قوادهم أن يؤم المدينة ملتمساً لعلَّ أحداً يجيره، فيجدد عهد الصلح مع رسول الله(ص) في حين هم الذين خانوا به ونقضوه.

إلا أن أحداً من المسلمين لم يجره ولم ينجده فعاد إلى مكة خائفاً فزعاً، ولم يطل الوقت حتّى قضى فتح مكة على كل تدابيره.

ومن الواضح أن في الظرف الذي نزلت فيه سورة المجادلة ليس بمقدور هؤلاء أن يجتمعوافي المدينة بجلسات علنيّة بمشهد من المؤمنين وأن يتناجوا بالإثم والعدوان الظاهر للرسول، كلا إنَّ هذا الأمر خارج عن طوقهم في مثل ذلك الظرف، وأن الفريق المتناجي و «الذين يحادّون اللهورسوله» المذكورين في سورة المجادلة لا يشمل الكفار والمشركين العرب قطعاً ويقيناً.

وأما اليهود فمن الواضح أيضاً بأن شوكتهم قد خضدت بعد انتهاء غزوة بني قريضة وقوتهم قدتهاوت في المدينة ونواحيها وهزموا هزيمة شائنة وأن قبائلهم الثلاث وهم بنو قينقاع وبنو النضيروبنو قريظة وهي أقوى بطونهم وأشدها صولة وأكثرها عزماً فإنهم كانوا يومها في المدينة وقد شتتشملهم واستأصلوا تماماً والذين بقوا بعدهم في خيبر وفدك والمواطن الأخرى لم يلبثوا بعد عامٍوأشهر من غزوة بني قريظة حتى اصطلموا وطويت صفحتهم وذهبت قوتهم من صفحة الوجود فيطول الجزيرة العربية وعرضها واستسلم لقوات الإسلام من بقي على قيد الحياة منهم.

وبناءً على هذا فإن اليهود عند نزول سورة المجادلة لا قدرة لهم على النجوى والمحادّةوالعداء العلني للنبي وأن يعقدوا الاجتماعات الخاصة بذلك والنبي بين ظهرانيهم.

فإذا ما وضح وضع الكفار والمشركين العرب ومثلهم اليهود في هذا الأمر فإنّه يعلم بالضرورة أنّ الفريق المذكور هم حتماً من المسلمين أنفسهم وفي عدادهم ويعيشون معهم في المدينة فيمجتمع واحد.

أجل إن هؤلاء هم «المنافقون» أنفسهم الذين يحيون في المدينة وأطرافها ويعدون فيالمسلمين إلا أنّ الأمر يحتاج إلى مزيد من التأمل والدقة فهل هم من المنافقين العاديين أو أنهم من«المنافقين المحترفين» ونحن نوضح ذلك فيما يلي من البحث:

مع اتضاح هذا الأمر من أنّ قوة الإسلام اطردت بشكل يدعو إلى الإعجاب في بدء النصفالثاني من فترة السنين العشر بعد الهجرة إلى المدينة وازدادت قوة الإسلام في هذا الظرف المزدهربحيث ضيّقت الخناق على الكفار والمشركين واليهود المقيمين في المدينة وأطرافها.

وطوي بساط المخالفين للإسلام سراً وعلانية بعد فتح مكة وطبعاً يثبت بهذا البيان أنّ المنافقين العاديين لم تكن لهم القوّة التي تمكنهم من المحادة والنجوى والعداء العلني لرسول الله ولايستطيعون عقد الاجتماعات العلنية لمعاكسة النبي في أوامرهم كما أنهم ليس لهم القدرة في التغلغلفي اجتماعات المسلمين ومعارضتها.

بخاصة حادث النكبة التي تعرض لها عبد الله بن أبي سلول وسائر أتباعه في غزوة بني المصطلق ونزول سورة «المنافقين» فيهم فقد أذلهم ذلك وجعلهم لا خلاق لهم بين المسلمين بحيث بلغ الأمر بكبيرهم أن يتعرض لمحاولة القتل من ولده وأقربائه، ومن الواضح البين أن وضعاً كهذا لايسمح لهم بالعداء الجاد الصريح بحيث يصرون على الإقامة على الذنب مع نهي النبي عنه وتنزل «سورة المجادلة» بخطابها الخاص عنهم فيهم.

بيّنا فيما سبق من هذا الكتاب حيث أوضحنا العلل الأربع للحديث وأثبتنا بأنّ إسلام المنافقين لا يخلو من أحد أمرين: الخوف، والطمع الدنيوي.

وبناءً على ما تقدم فإنّ هؤلاء المنافقين ما زالوا حتّى في النصف الأول من فترة السنوات العشر من الهجرة النبوية يؤمنون بالنبي على أساس من الطمع الدنيوي ويخضعون للإسلام ويعظمونه إما رغبة أو رهبة كيف يتصور لحالهم أنهم في النصف الثاني من الفترة نفسها وقد تنامت قوّة الإسلام وبلغت أوجها وتمكن النبي من قلاصم الشرك والمشركين وخضع العدو الشرس أمثال كفار قريش ومشركي العرب ويهود المدينة وأطرافها لهذه القوة حيث طوحت بهم ورمتهم أرضاً أن يقوم هؤلاء الضعفاء في وجه النبي ويظهرون له المحادة والعداوة العلنية. كلا إن هذا مما لا يكون أبداً.

وعلى هذا الحساب تثبت لنا النكتة آنفة الذكر أن الفريق الذي نزلت في حقه الآيات المتحدث عنها (آيات المحادة والنجوى) لم يكن

سوى فريق(المنافقين المحترفين)وهذا الفريق وحده هوالقادر على النجوى عندما يجتمع النبي بأصحابه لأمر مهمّ لأنهم معدودون في المسلمين الأوائلوأصحاب الجاه والتقدم فيهم ومن الوجهاء عند الأمة.

٣ ـ بعد أن اتضح لنا أن الآيات المتحدث عنها نزلت بالقطع واليقين في «المنافقين المحترفين» يلح علينا هذا السؤال ما هي فحوى تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وما هونوع صلتها بالآثام والمعاصي؟!

وفي سبيل اتخاذ الجواب الصحيح بدءاً ينبغي التدقيق في مفهوم الآية: ﴿ **إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾وهي الآية الرابعة من الآيات السبع التي تمّ بحثها.

أولاً: ينبغي بأن يعلم أن حرف الألف واللام (ال) الداخلة على كلمة النجوى ليست جنسيّة لأنّها لو كانت كذلك لترتب عليه أن كل نجوى مرفوضة وهي من الشيطان، بينما نجد في الجزءالكريم من الآية «وتناجوا بالبر والتقوى» أن النجوى إذا كانت في المعروف فهي ممدوحة وممجّدةمن الله تعالى، وحينئذ لابدَّ من اعتبار هذه الألف واللام «عهدية» والمقصود منها تلك النجوى التييفعلها المنافقون المحترفون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

ثانياً: يظهر لنا أن الجملة «ليحزن الذين آمنوا» تفيد أن نجوى المعهودين الشيطانية تؤدي إلىحزن المؤمنين الواقعي وغمهم ومن البديهي أن قيد «الإيمان» في هذا الحزن والغم أساس القضيّة،وإلّا فيقتضي

أن يحزن منها غير المؤمنين أيضاً.

ثالثاً: يستفاد من الجملة «وليس بضارّهم شيئاً إلا بإذن الله» أن النجوى التي هي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول المعهودة لا تتم إلا بضرر المسلمين وبما أننا أثبتنا أن قيد الإيمان يشكل أساس يكون معلوماً أن النجوى الشيطانيّة المعهودة تمت بضرر إيمان المؤمنين، من ثم كان حزن المؤمنين من أجل تلك الضربة الموجهة إلى قيادة إيمانهم من جهة أولئك المتناجين.

بعد اتضاح مفهوم الآية المذكورة نحاول الآن البحث عن إيجاد جواب للسؤال المتقدم فنقول:

لما كان الفريق الذي يحزن نجواهم المؤمنين هم فريق «المنافقين المحترفين» ثم إن حزن المؤمنين وغمهم خوفاً من الضربة التي من الممكن توجيهها إلى قيادتهم الدينية واستقرار إيمانهم وأيضاً يكون المؤمنون بمنجاة من هذه الضربة من جهة الفريق المذكور والنبي على قيد الحياة ويحيا بين ظهراني المؤمنين طبقاً للآية الكريمة: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (١) ومثلها من الآيات الأخرى فإنهم والحال هذه آمنون على دينهم وقيادتهم وإيمانهم.

ومن مجموع هذه النكات يظهر لنا: أنَّ النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول للمنافقين المحترفين تدور حول معصية تظهر آثارها

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

السلبيّة بعد وفاةالنبي في المؤمنين وحزن المؤمنين كائنمن أجل ذلك، لذلك أنزل الله على نبيه الآية التالية عزاءً لهم وتقوية لقلوبهم: ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾!

وبناء على هذه المقدمات تكون نجوى المنافقين المحترفين بالإثم والعدوان ومعصيةالرسول متصلة بالمعاكسات الشيطانية التي يجريها هؤلاء الشياطين من أجل تسلط حزبهموتضعيف الجهة المقابلة لهم (أهل بيت العصمة والطهارة ومحبيهم) وبناءً على هذا فإن النجوى تدورحول هذا الموضوع الذي قابلوا النبي من أجله بالمشاقة وبلغ الآن مرحلة المحادة والعداء العلني.

وأصولاً لا يمكن تطبيق النجوى المعهودة للمنافقين المحترفين إلا على معصيتهم لرسول اللهومعاكساتهم له وعدائهم لعلي بن أبي طالب وبغضهم له ومحاولتهم دكّ شخصيات المؤمنينالواقعيين والموالين للإمام(ع) وليس غير ذلك لأن هذه المعصية وحدها هي النقطة المركزيةلفعاليات حزب المنافقين المحترفين ويؤلف بالنسبة لهم القيمة الحياتية.

أجل إن المؤمنين الواقعيين أي الذين لهم تعلق ومحبة بأهل بيت العصمة والطهارة عندمايشاهدون الفريق المضاد يزيد من عدائه وبغضه لأهل بيت النبي ويجتمعون على معصية الله وردطاعته وطاعة رسوله ومعاكسته فإنهم يحزنون حزناً شديداً ويعلوهم الغم والحزن.

فكيف يمكن للموالين وأهل المحبة للنبي وعترته الطاهرة أن يروا عصبة المكر والحيلةيتخذون مختلف الإجراءات لدك العترة المقدسة التي يخلصون لها ويحبّونها ويوالونها هذا الولاءالعظيم ولسحق حقوقهم والقضاء عليهم واراحة أحقادهم في تلك الساحة القدسيّة ثم لا يحزنون ولايشعرون بالهم بذلك؟.

وأخيراً تظهر النتيجة مما تقدم:أنّ موضوع نجوى المنافقين المحترفين في سورة «المجادلة»يدور حول هذا المحور الخبيث الذي تبانوا عليه سياسياً مع كفار قريش وذكرته «سورة محمد».

٤ ـ يظهر مما تقدم من ذكر الأمور الثلاثة أنّ الآيات التالية في سياقها الخاص بها نزلتمعرضة بأولئك المنافقين أصحاب النجوى المذمومة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافسَحُوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ وَإِذَا قِيلَانشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْتَجِدُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواوَتَابَ الله عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

نعم إنّه الفريق نفسه الذي يمثّل في مجلس النبي ويشغلون الأماكن مع القاعدين ثم يتناجونفيما بينهم بما تختزن في صدورهم

من الأسرار ويركّزون خاصة على أولياء علي ومن لهم فيه هوىً ومحبة فيؤذونهم ويزدرونهم ولا يوسعون لهم عند الدخول ومشاركتهم المجلس علاوة على ذلك فإنَّهم ينفردون بالنبي أحياناً ويناجونه ليوحوا إلى الناس بأنهم من خاصته ومقرّبيه، وأن لهم مدخلية أساسية في أعمال النبي الخاصة والعامة كما أنهم لا يتخطون رأي النبي فيما يشير به عليهم يهدفون بهذا إلى عطف رقاب العامة لهم وميلهم إليهم لكي يتسنّى لهم إمرار سياستهم المتبناة بينهم وبين كافة الفرقاء على هذا الخط الماكر ويتقدم بها إلى حيث يطمحون ويرغبون.

وهذه الآيات الثلاث كغيرها من الآيات التي جرى بحثها نزلت على النبي(ص) وفي الآية الحادية عشرة ذمهم الوحي على إشغالهم الأماكن ومنع المؤمنين من ارتيادها وحجز العلماء عنها فنزل الوحي بتأديبهم ثم أمرهم بالصدقة قبل مناجاتهم النبيّ ليظهر للناس شديد بخلهم وعظيم حرصهم على الدنيا ولكي ينجلي للناس أن هؤلاء القوم ليسوا فقط ممن لا علاقة لهم بالنبي ولا قربى لهم منه بل أن مناجاتهم النبيّ ما هي إلّا الخداع والتعمية على الأمة والتظاهر بالخير وليسوا من أهله ونسخ الحكم في الآية الثالثة عشرة حين حصل المطلوب منها ولم تبق حاجة إليها تدعو لاستمرار حكمها. لذلك نزل حكم نسخها عاجلاً.

نعم إن الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ**﴾ وإن لم يرد في منتهى لفظ «النجوى» ومنطوقها يتصل بآداب الحضور في المجالس ومراعاة

شؤون الآخرين من الشركاء فيها من حيث القيام والقعود، وما للحاضرين من حقوق في الآداب المقررة للجالسين في مجلس واحد إلا أن سياق الآيات وتوسط الآية المذكورة بين آيات النجوى لدليل قائم بنفسه على أن الآية التي سلفت لها ارتباط تام في النجوى نفسها الخاصة بالمنافقين المحترفين، وأنها نزلت في الغرض ذاته.

ذكر السيوطي في الدر المنثور (١) في هذا الموضوع الرواية التالية:

«أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: كان الناس يتناجون في المجلس عند النبي (ص) فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ**﴾».

حيث نلاحظ أنه مع عدم ذكر النجوى في متن الآية إلا أن سعيد بن جبير رأى بثاقب فكرته ونقي فطرته أنها مرتبطة بتلك النجوى نفسها.

٥ ـ لا شبهة في أن الآية: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ وهي آخر آية من الآيات السبع التي تناولها البحث ناسخة لحكم الآية التي نزلت قبلها خلا أنّ سؤالاً يعترضنا هنا وهو لماذا وجبت الصدقة بين يدي النجوى؟! وعلى من تجب الصدقة؟ وهل عمل بها أحد قبل أن تنسخ،

(١) ج٦ ص١٨٤.

ولماذا رفع حكمها بهذه السرعة؟

ونجيب على التساؤلات أعلاه بما يلي:

نظراً للقيد المذكور في الآية ١٢ حيث يقول سبحانه: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾وكأن الآية رتبت الصدقة على واجدها أما فاقدها فتطرح عنه وبهذا يتجلى لنا أن حكم الصدقةمشرّع لغير الفقراء وحين ندقق في لسان الآية القائل: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْصَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ نجدها أوجبت الصدقة على ذوي اليسارمن المسلمين الذين كانوا يكثرون نجوى رسول الله ويسرون إليه القول ولما وجبت الصدقة عليهمانفضوا عن النبي بأجمعهم هرباً من الفقر وتركوا النجوى وأقوال السر مع رسول الله.

ومن الضروري العلم بأن هؤلاء لم يكونوا من المؤمنين ميسوري الحال من طائفة الأنصار، لأنَّ كلام الوحي طالما وصف هؤلاء المؤمنين من الأنصار وإن كانوا من الطبقة الفقيرة بالبذلوالعطاء والجود والكرم ومدحهم على ذلك فقال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْقَبْلِهِمْيُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَبِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (١).

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

وبناءً على هذا إن الذين عنتهم الآية هم أولئك المنافقون قطعاً، وأكثرهم من المهاجرين بلكادت تكون هذه الأكثرية مستوعبة، وكما قلنا آنفاً إنهم يخادعون الناس بنجوى رسول الله والانفرادبه ليوهموهم بأنهم من أخصائه والمقربين لديه، فلما نزل حكم الصدقة كفوا أيديهم خوفاً علىأنفسهم من الفقر.

ذكر السيوطي في «الدر المنثور»(١) عن هذا الموضوع بحق واحد منهم الروايةالتالية:

«أخرج الطبراني وابن مردويه ـ بسند ضعيف ـ عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ فقدّمت شعيرة فقال رسول الله(ص)إنك لزهيد فنزلت الآية الأخرى﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ**﴾».

تلاحظون سعد بن أبي وقاص وهو من أشخاصهم المعروفين (وقد مرّ شرح مكرر لسيرتهفيما سبق) كيف قدم ما يعادل الفلس فقال له النبي(ص) «إنك لزهيد».

نعم إن هذه الرواية وإن وصفها السيوطي بضعف السند إلا أنه طبقاً لتحقيق المتون والتعرفعليها لا يضيرها ضعف السند المدّعى ولا يدخل ضعفاً على مدلولها.

وعلى أية حال لما عرفنا أن الغرض الأصلي من حكم تلك

(١) ج٦ ص١٨٥.

الصدقة المذكورة في الآية (١٢)هو التعريف بفريق المنافقين المحترفين والوقوف على حالهم لئلا يخدع بنجواهم للنبي المؤمنونفيحسدوهم من خاصته وحوارييه وبطبيعة الحال تم الغرض من حكم الصدقة بإظهار كذبتهمودجلهم وتقاعسهم عن الصدقة وكفهم أيديهم عن البذل والعطاء وبعدهم عن النبي في المجلسوالمناجاة عندئذ نزلت الآية (١٣) تنسخ الحكم المذكور.

وأما عن السؤال القائل: هل عمل أحد بهذا الحكم أولا؟

فإننا نقول: إن واحداً من موارد الاتفاق بين الفريقين الجواب على السؤال المتقدم فإنَّ روايات الفريقين تدل على أنَّ الشخص الوحيد الذي عمل بالحكم قبل أن ينزل نسخه هو علي بنأبي طالب(ع) والآن نأتي بواحد من نماذج هذه الروايات:

فقد روى جلال الدين السيوطي في تفسيره «الدر المنثور»(١) الرواية الآتية:

»أخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبيحاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن علي قال: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولايعمل بها أحد بعدي آية النجوى﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْنَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي(ص) قدّمت بين يديدرهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد

(١) ج٣ ص١٨٥.

فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية».

إلى هنا نختم البحث والتحقيق في الآيات السبع وفي الفصل التالي نعمد إلى باقي الآيات منسورة المجادلة وتحقيقها التي هي المقصد الأساس لنا لكي يبين وجه الارتباط السياسي بينالفريقين «فريق المنافقين المحترفين» و «المنافقين العاديين»إنْ شاء الله تعالى.

وسيكون التحقيق في الآيات ١٤ ـ ٢٢ من سورة المجادلة.

الصلات السياسية بين المنافقين المحترفين والعاديين

﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾.

في بحثنا للآيات أعلاه يجب أن نعلم: أن الفريق الذي جرى التعريف به في الآية: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ وما فتىء

الوحي في الآيات التالية (١٥ إلى ١٩) ينزل بذمه متواصلاً وتأنيبه بما أنه قوبل بفريق آخرورد ذكره في الآية: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواآبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ بالمدح والثناء والتمجيد، فتبين من هذه الموازنة أن الفريق الأول الذي يوادّه المنافقون المحترفون، ويرونه ولياً لهم وصاحباً متقرباً إليهم وجاءت صفته بلغة الوحي «قوماً غضب الله عليهم» هو القوم أنفسهم الذين قاموا في قبال الفريق الثاني «المؤمنين الواقعيين» المبغّضين عند المنافقين، المضادين لهم النافرين منهم وسمّاهم الوحي «من حادّ الله ورسوله» فإذا ثبت ذلك بالقرائن الدقيقة يثبت بالضرورة أنَّ جملة «قوماً غضب الله عليهم» إشارة إلى أولئك المنافقين المحترفين الذين عرفهم الله سبحانه في صدر السورة بهاتين الجملتين «الذين يحادون الله ورسوله» و «يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول» أي أن المصداق الخارجي لجملة «قوماً غضب الله عليهم» هو المصداق نفسه لجملة «الذين يحادون الله ورسوله».

وبناءً على ما تقدم بعد إعلان «المنافقين المحترفين» العداوة لله ورسوله انقسم المسلمون إلى فريقين: فريق أحبهم ووالاهم وأسلم قياده لأيديهم، وخضع لهم خضوعاً أعمى وفريق آخر لم يحبّهم أو يقرب منهم ولم يوالهم أو يستسلم لهم ليس هذا فحسب بل عندما ثبت لديه عداءهم العلني لله ورسوله أعرض عنهم وطهر قلبه من محبتهم وهرب من موالاتهم وتباعد عنهم.

والآن علينا النظر في الفريق الأول ما هي هويته ومن أي فصيلة هو وفي الفريق الثاني من أيجنس من الناس هو؟

فنقول في تعيين الفريق الأول:

إنّ ما يستفاد من الآيات ١٤ إلى ١٩ المختصة ببيان شأن هذا الفريق وإبراز خصوصيّاته إنّأظهر خصوصية من خصوصيّاته هي القسم الكاذب للمؤمنين وقد أفصحت الآيات عن ذلك ثلاثمرات ونسبت إليهم هذه الخصوصية: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾. ولما كانتخصوصية الحلف الكاذب والقسم المزيف للمؤمنين في كلام الوحي من علامات المنافقين البارزةكما يقول الله تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَاوَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌيَفْرَقُونَ﴾ (١)، ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌوَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لايَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢) وغيرها من الآيات.

وعلى هذا ينبغي أن يكون «الفريق الأول» هم المنافقون العاديّون الذين اتفقوا مع المنافقينالمحترفين على عداوة رسول الله

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة التوبة.

العلنية ومالت قلوبهم الخبيثة إليهم واتحدوا معهم اتحاداً وثيقاًورأى المنافقون العاديون في إخوانهم المحترفين أولياءً لهم وأحباباً وخضعوا لهم وأطاعوهم.

ونكتة أخرى تثبت المطلب أعلاه بصورة دقيقة وتؤيّد القول بأنَّ الفريق الأول هم المنافقونالعاديّون، هي الجزء من الآية: «اتخذوا أيمانهم جنة فصدّوا عن سبيل الله» لم تأت في القرآن كُلّهُ إلّا في موضعين: الموضع الأول في هذه السورة نفسها والموضع الثاني في سورة المنافقين، ولما كاننزول سورة المنافقين مختصاً بالمنافقين العاديين فإن هذا الجزء هنا أيضاً مختص بهم.

ثم إن ما قلناه في تعريف الفريق الأول هنا يكفي وبما أننا قد أوضحنا أن لفظ «المحادة»والعداء هي شأن من شؤون المنافقين المحترفين وأن موضوع نجواهم «بالإثم والعدوان ومعصيةالرسول» كانت من أجل حرف مسار الخلافة والإمامة عن أهل بيت النبي(ص). إذن يعلم من هذاسبب التعلق الشديد والعلاقة التامة من المنافقين العاديين بالمنافقين المحترفين وسبب شغف بعضهمببعض وتولي بعضهم لبعض، إنما كان من أجل هذا الهدف المذكور، ولكن الوجه الذي ذكرناه الآنمخالف لما ذكرناه في «المقطع الأول» بما يخص الروابط السياسيّة بين المنافقين المحترفين وكفارقريش.

وظهر لنا هنا أن الطرف الآخر في هذه الصفقة أعطى زمام القياد مع التسليم والانقيادللمنافقين المحترفين وهؤلاء وعدوا كفار قريش بالتعاون في بعض الأمر (الذي هو عبارة عنانحراف مجرى

الخلافة عن أهل بيت النبي(ص)) وقالوا لعملائهم سنطيعكم في بعض الأمر.

وفي هذا المقطع ينبغي تبيين كيفيّة الارتباطات السياسيّة بين المنافقين المحترفين والمنافقينالعاديين لأن الآية الكريمة تقول: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ وتعني بهذهالجملة من الآية المنافقين العاديين الذين رهنوا قلوبهم عند قوم وتولوهم واتخذوا منهم أصحاباًوأخلاء ورفعوهم فوقهم.

ومن نافلة القول إن الآية الشريفة: ﴿ **لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْوَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاًأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ وهي الآية الرابعة من الآيات المبحوث فيها تدل دلالةواضحة: أن المنافقين المحترفين المعنيين لنا هنا هم أكثر ثروة وأعظم اقتداراً من المنافقين العاديين،ويعدون من رؤسائهم لذلك انجر الكلام في لغة الوحي إلى الأموال والأولاد.

نعم لذلك اكتسب المنافقون العاديون من هذا التاريخ بعد أن كانوا متخبطين متفرقين أيديسبأ وليس لهم هدف يجمعهم كيفيّة مختلفة عن ذي قبل من سيرهم على خط واحد محدد الأهداف وأن يتجاوزوا إلى مسيرة المنافقين المحترفين الفكرية ذات الأبعاد المعلومة ويؤلفوا معهم كتلةواحدة، ويتحدوا بالفكرة والهدف(١).

---

(١) ومن هذا التاريخ أطلق كلام الوحي على المنافقين العاديين لفظ «طائفة».

وعلى أية حال يظهر لحد الآن مما قيل في معرفة «الفريق الأول» بوضوح أن تقدم المنافقين المحترفين في غصب الخلافة وحرمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) من إمامة المسلمين وسحق حقوق آل محمد مضافاً إلى روابطهم المشبوهة وأن القضية مقيدة بهذا الرباط السياسي مع شخصيات من المشركين وكفار قريش ممن له الحل والعقد والأمر والنهي فيهم فإنها مرهونة أيضاً بروابطهم مع زعماء المنافقين العاديين بنفس الرتبة، ولذلك نشاهد بأم أعيننا اختفاء المنافقين وزوالهم من الساحة بعد وفاة النبي ومجيء أبي بكر للحكم واستيلاء حزبه على السلطة فجأة ويندك تاريخ المنافقين في حكومة الخلفاء.

فيا للعجب كيف اختفت مسألة المنافقين في المدينة فجأة بعد أن كانوا إحدى مشاكل الإسلام في أرض الهجرة ونزلت فيهم آيات كثيرة من القرآن المجيد وأصبح محيط الإسلام بعد رحيل النبي إلى الرفيق الأعلى محيط سلام وصفاء واتحاد ومحبة وفزع المنافقون جميعهم بعد وفاة النبي إلى الإسلام فاعتنقوه؟!

أليست سورة التوبة وهي آخر سورة نزلت حسب ترتيب النزول أو بعدها سورة واحدة وعدد كبير من آياتها نزل في ذم المنافقين وتوبيخهم وتأنيبهم (١) فكيف حلت مسألة المنافقين مرة واحدة بعطوفة

(١) من أجل اطلاع أكثر في هذا الموضوع يمكنكم الرجوع إلى الفصل السادس من القسم الثامن عشر من هذا الكتاب الذي له صلة ببحث الآيات النازلة في المنافقين العاديين من سورة التوبة.

النبي واستلام أبي بكر للسلطة ووقوع الحكم بيد حزبه ولم تعد مسألة وجودهم مشكلة تؤرق المسلمين؟

فهل أن لغة الوحي تعرّضت لذكرهم عبثاً! وأن النبي ـ وحاشاه ـ لا كفاءة له في إدارة شؤون الإسلام أو أن وراء الستار روابط أخرى بين الحزب الحاكم والمنافقين العاديين بحيث خمدت نار الفتنة فجأة وأنت فاعرف التفصيل من هذا المجمل.

وهذا ما استفدناه من وجود الروابط السياسية بين المنافقين المحترفين والمنافقين العاديين ويبدأ من الآية ١٤ إلى الآية ١٩ من سورة المجادلة.

وأما ما يعود إلى معرفة الفريق الآخر الموجود في الطرف المقابل والذي أظهر النفرة للمنافقين المحترفين والبغض لهم حين أظهروا المحادة لله ورسوله والعداء العلني لرسول الله(ص) فسوف نتكلم عنهم في الفصل القادم بصفة أكثر وضوحاً إن شاء الله تعالى.

لفظ حزب الله وصلة هذا اللفظ بموضوع التبري في الاصطلاح الخاص بالقرآن المجيد

إنَّ ما يستفاد من هذه الآية الشريفة: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّالله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَوَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواعَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفريق الثاني: هم أهل الولاية والمحبة لرسول الله(ص) وهم في أسمى درجات «الود» ومن البديهي أن من كان بالغاً هذه الرتبة من المحبة فإنَّه من المستحيل أن يرهن القلب عند غير حبيبه،ولا يجعل بيت قلبه إلا صومعة يختلي فيها بحبيبه.

أجل كيف يحل قلبان في شخص واحد؟! **﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾**.

ومن البديهي بأن شخصاً كهذا شديد النفرة من عدو حبيبه وإن كان هذا العدو أباً أو ابناً أو أخاًأو قريباً **﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْأَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾**وأيضاً من الضروري الالتفات إلى أن المحبة والولاية إذا تعلقتبالله والرسول فإنَّ ذلك يتم لوجود الاتحاد في الصفة بين المحب والمحبوب وإلا فإن محبة اللهورسوله ليست من جنس المحبة المادية التي تنشأ من وجود صفة محببة في

المعشوق من عين حوراء وحاجب مقوس وهيكل جذاب وما إلى ذلك، وإن كان النبي له في ظاهره كباطنه صور مهذبة رائعة.

نعم، تماماً كما تكون الحال عندك عندما تكون كريماً متواضعاً عفاً تغض الطرف عن الهنات وتحمي اللسان عن الزلات فإذا تعرفت على من هو أكثر كرماً وتواضعاً وعفة فإنك تحبه وتمحضه الود شئت أم أبيت كما إن المؤمنين الذين أحبوا رسول الله(ص) إنما أحبوه لوجود الصفات المشتركة الحسنة مع فارق الكمال والنقص بينهم وبين رسول الله(ص) وأخلصوا له لأجل الاتحاد معه بهذه الصفات الحميدة.

فإذا ثبت لنا أن العشق والمحبة الذاتية لا تتصور إلا في اتحاد الصفات ثبت بالضرورة أنَّ الذين أحبوا رسول الله(ص) فإنَّهم أحبوا علياً بنفس الحب الذي أحبوا به المصطفى وكذلك يقال في محبتهم لأهل بيت العصمة والطهارة لأنَّ لغة الوحي لم تصحح إلا عصمة هؤلاء العظماء وطهارتهم الذاتية وكمالاتهم الإنسانية فحسب وآية التطهير وسائر الآيات الدالة على ولايتهم لدليل على ذلك قاطع وثابت.

إذنْ ثبت من هذا الاستطراد أن القائمين في الطرف المقابل «للفريق الأول» والذين ينفرون أشد النفرة من المنافقين المحترفين هم المؤمنون الذين أحبوا رسول الله ورهنوا أفئدتهم عنده وملك عليهم شغافها وعلى بن أبي طالب ابن عمه وختنه على الصديقة صلى الله عليها ولما جاء تعريفهم بلغة الوحي بهذه الجملة الشريفة: ﴿**أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾ فإنَّ المعبر عنهم بهذا التعريف، والذين يقصدهم كلام الوحي هم تلك الفرقة من المؤمنين الذين لزموا جانب أمير

المؤمنين بعد وفاة النبي(ص) ودافعوا عن حقه وثبتوا على ذلك ولم يخلوه ولا نفضوا أيديهمعن حجزته.

ومن الواضح أن هؤلاء ليسوا سوى شيعة عليّ ومحبيه الواقعيين.

ومن جهة أخرى لما قال الله تعالى بحق المؤمنين في ختام الآية الكريمة: ﴿رَضِيَ الله عَنْهُمْوَرَضُوا عَنْهُ أولَئِكَ حِزْبُ الله ألا إنَّ حِزْبَ الله هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ يظهر لنا من هذا التعريف أمور:

أولاً: أن رضى الله لا يشمل الإنسان إلا إذا كان من أهل «التبري» وفي باطنه يبغض أعداءأمير المؤمنين وأعداء أهل بيت العصمة والطهارة «المنافقين المحترفين» ولا تقبل الأعمال إلا إذااقترنت بمحبة أهل بيت النبي وولايتهم. وهنا ينكشف سر الروايات الحقيقية التي اشترطت في قبولالأعمال ولاية محمد وآل محمد(ع) وكذلك يظهر أن من يدعي التشيع إذا لم يكن في الباطنمبغضاً للمنافقين المحترفين ومشمئزاً منهم لا يعد من شيعة أمير المؤمنين الواقعيين وإن عد منالشيعة.

ثانياً: إنه أطلق في تعريف شيعة أمير المؤمنين ومحبيه اسم حزب اللهفلابدَّ من وجود سر فيذلك والنكتة القرآنية الدقيقة التي يجب الالتفات إليها أن لفظ «حزب الله» لم يرد في القرآن كله إلا فيموضعين، وفي كليهما أطلق على شيعة علي بن أبي طالب ومحبيه: المورد الأول في هذه السورة،والثاني في «آية الولاية» من سورة المائدة: ﴿إنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَالصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ الله

وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾ (١).

[بحث الآيتين بصورة تامة يأتي في المقطع التالي إنشاء الله تعالى].

(١) سورة المائدة.

القسم الثامن عشر

البحث في سورة المائدة

في هذا القسم وهو مرتبط بنماذج الآيات التي ينكشف من بحثها ارتباط المنافقين المحترفين مع أهل الكتاب من يهود ونصارى فيكفي الرجوع إلى الآيات ٥١ إلى ٥٦ من سورة المائدة بحثاً وتحقيقاً.

متن الآيات ٥١ إلى ٥٦ من سورة المائدة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾.

قبل الدخول في بحث الآيات آنفة الذكر ينبغي علينا أولاً تعيين الزمن الذي نزلت فيه «سورة المائدة» لكي نلم بالظروف الزمانية والمكانيّة الخاصة برسول الله إبّان نزول الآيات وما هو مفهومها الواقعي؟

بدءاً نتحدث عن تعيين زمن نزول «سورة المائدة» فنقول: اتفقت روايات الفريقين على أنّسورة المائدة هي آخر السور الطوال النازلة على رسول الله(ص) وآياتها بالقياس إلى بقية السورالقرآنية ناسخة ولم يجر ناسخ لها من منزلها.

والذي يؤيد المطلب السالف هو أنَّ آية إكمال الدين وإتمام النعمة يعني الآية الشريفة: ﴿**الْيَوْمَأَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ نزلت في هذه السورة ومنالواضح أن نزول الآية يصح عند إكمال دين الإسلام ونزول آخر حكم وأمر سماوي ولم تبق فريضةمن الفرائض إلّا وقد تم فرضها وتشريعها ومن المقطوع به أن آخر فريضة دينية ينبغي تشريعها فيآخر سورة وأدناها من وفاة النبي(ص) .

[أما فيما يخص معرفة آخر سورة نزلت على النبي في سورة المائدة فإنه موضوع حققناه سابقاً].

وبناءً على هذا فإن الظرف السائد يوم نزول سورة المائدة هناك هو ذو جانبين:

الجانب الأول: هو انتهاء غزوة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وغزوة خيبر وسائرالمراكز اليهودية في نواحي المدينة مما أدّى إلى ضعف تحرك اليهود العسكري وعقم عملالعسكريين اليهود في داخل الجزيرة العربية وانحسار الموجة اليهودية بل القضاء عليها تماماً.

الجانب الثاني: كسر شوكة كفار قريش ومشركي العرب مع فتح مكة ونزول سورة براءة وقدذكر ذلك في أولها وتحرك وفود القبائل العربية باتجاه المدينة وإعلانهم استسلام قبائلهم للإسلام.

أجل في ظروف كهذه الظروف الزمانية والمكانية نزلت سورة المائدة على النبي وفي هذهالآيات التي عرضناها للبحث تعرّضت لبيان الارتباط السياسي لفريق «المنافقين المحترفين» معاليهود والنصارى.

والآن نعمد إلى تحقيق الآيات آنفة الذكر حتى يتجلى لنا عمق هذه الروابط إلى أيمستوى ونعرف ماهيّتها الحقيقية؟!

بحث الآيات الثلاث الأولى (٥١ إلى ٥٣) من الآيات مورد البحث

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ذكر الطبرسي في مجمع البيان في تفسير الآية أعلاه «الاتخاذ هو الاعتماد على الشيء لإعداده لأمر» أي أن الاتخاذ إنما يستعمل في أصل اللغة في موضع يريد الإنسان فيه الاتكاء على شيء والاعتماد عليه لاتخاذه وسيلة مهيّأة لما يريده له من الأمور المهمة.

وبناء على هذا يكون اتخاذ اليهود والنصارى من قبل هؤلاء أولياء إنما كان من أجل تهيأتهم للأمر الذي يزمعون القيام به (وسوف نرى فيما يأتي ما هو هذا الأمر ولأي عمل تطلب الاستعانة باليهود والنصارى).

ومن جهة أخرى نرى فيما صرّحت به الآية أعلاه الجملة: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم» إخبار منه تعالى أن من يوالي اليهود والنصارى يعتبر منهم وبهذا يظهر لنا جليّاً أن الفريق من المسلمين الذين اتخذهم أولياء كانت تربطه بهم علائق ود ومحبة قلبية.

أجل إن الملاك الأصلي في الوحدة الغيبية أي التي تتم غيباً هو الروابط القلبية والمحبة، طبقاً لهذا الأثر: «من أحب حجراً حشره الله معه»(١).

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

والغرض من ورود كلمة «دائرة» في الآية معناها اللغوي مع شيء من التفاوت من حيث إنَّ الموضوع مورد البحث في الآية ناظر إلى وقائع المحيط وابتلاءآته من تسلط قوم على قوم آخرين من أجل السطو والغلبة.

وبناءً على هذا فإنَّ العذر الذي اختلقه الذين في قلوبهم مرض من قولهم: «نخشى أن تصيبنا دائرة» إنَّما غرضهم بهذا العذر تغطية خطيئتهم أمام المؤمنين أنهم يقولون للمؤمنين: إنكم تروننا نبذل الود والمحبة لليهود والنصارى ليس لأننا نجنح إلى دينهم أو نميل إليه بل خوفاً منهم أن تطبق قبضتهم على الإسلام والمسلمين وهم قوم ذوو قوة وجلد بهجوم صاعق فيستأصلونهم وأننا نواليهم لنتخذ منهم أعواناً عندما تحين تلك الساعة أو يجد ظرف عسير معهم من هذه الجهة اعتبرت لغة الوحي عذرهم عذراً ملفقاً بادياً عواره والواقع يدل على أن الذين في قلوبهم مرض لهم مع اليهود والنصارى شأن آخر تعبير من

---

(١) الميرزا القمي: غنائم الأيام ج١، ص٤٤؛ الحر العاملي: من أحب حجراً حشر معه؛ الأثنا عشرية ص١٥٥ ورفعه إلى النبي' / المحقق.

الأسرار المخفية والمتبادلة معهم. وجعلوا الخوف من هجوم العدوترساً يخفون وراءه أسرارهم المكتومة.

﴿فَعَسَى اللهُ أنْ يَأتِيَ بالفَتْحِ أوْ أمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أسَرُّوا فِي أنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

وها هنا ينبع سؤال لابد من عرضه والإجابة عليه:

أولاً: أنّ هذه الدولة التي يخشاها الذين في قلوبهم مرض ويستولي عليهم الفزع من تصورهجومها وينافقون المؤمنين من أجلها ويجعلون مصانعتها منة في أعناقهم ويتخذون ذلك عذراًيعتذرون به ما هي هذه الدولة؟!

ثانياً: ما هو هذا السر الذي يخبأه الفريق المعني في قلوبهم بحيث تذرعوا لنيله باليهودوالنصارى وبنوا فيما بينهم علاقات قلبية، ما لونه وحقيقته؟

وللجواب على السؤال الأول نقول:

بما أنّ سورة المائدة كان نزولها في ظرف تنامت به قوة الإسلام ومقدرته الظاهرية وطبقتشبه الجزيرة العربية كلها واستسلم العدو الداخلي وهم الكفار ومشركو قريش واليهود والنصارىوأهل الكتاب المستوطنون في الجزيرة استسلاماً كلياً وبناءً على هذا يتجلى لنا أن خوف الهجومالذي عكّر خواطر المسلمين في ذلك التاريخ بالذات هو من دولة أخرى آتية من وراء حدودالجزيرة ولما جعل المنافقون المحترفون «فريق: الذين في قلوبهم مرض» عذرهم الكاذب فيموادتهم اليهود والنصارى وروابطهم معهم هو دفع شر هجوم تلك

الدولة علمنا أن الدولة المعنية هيدولة من دول أهل الكتاب، وتتحد بالمذهب مع الكتابيين القاطنين في الجزيرة العربية وعلى هذاتكون الدولة المعنية هي دولة الروم ومن دار في فلكها من توابعها والتي ترتب على انتشار خبرهجومها حدوث «غزوة تبوك» وظهر بعد ذلك أنّها أخبار مفتعلة لا واقع لها ولم تكن هذه النيّة تدورفي خيال «القيصر» من أمر الهجوم على النبي وعلى المسلمين.

أورد السيوطي في ذيل الآية عن عكرمة ضمن رواية ذكرت عقيب قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...**﴾(١) «... وكان طلحة والزبيريكاتبان النصارى وأهل الشام»(٢) وهذا ما يخص السؤال الأول من الجواب.

وأما ما يعود إلى السر الخفي للمنافقين المحترفين في مراودتهم اليهود والنصارى وإقامةالعلايق معهم ماهو؟ وما الغرض من قوله تعالى: ﴿**ما أسرّوا في أنفسهم**﴾ سوف يبين الجواب عنذلك في ختام «المقطع الثالث» ويظهر جلياً للقارىء: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوابالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ**﴾ موضوع «حبط الأعمال» للمنافقين المحترفين لم يجىء في الآية أعلاه فحسب بل جاء في آيات أُخرى من القرآن المجيد.وتكررت لهم فيه هذه الخصوصيّة كما رأينا ذلك في المقطع الأوّل من هذا القسم من الكتاب وفيالآية (٢٥ و ٣١) من سورة

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٢) الدر المنثور، ج٢، ص٢٩١.

محمد من هذا الموضوع ضبط لهم ذلك.

والعجيب في الأمر أنَّه أينما وجد ذكر حبط الأعمال في القرآن المجيد يلازمه موضوع الكفر«واستدبار الهداية الإلهية» لهؤلاء كما ذكر ذلك بعد هذه الآية المبحوث فيها ووردت الإشارة إلىارتداد هذا الفريق مار الذكر الذي سوف نذكره في ابتداء الفصل القادم.

بحث الآية الرابعة (آية ٥٤)
في إثبات المحبوبية الذاتية للأئمة
المعصومين وتطبيقها على آية (التوكيل)(آية ٨٩) سورة الأنعام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

الفريق الذي وعد الله أن يستبدله بالمرتدين في الآية لما أطلق الخبر عن «محبوبيّتهم» علم أنّهم المؤمنون الخالصون من كل ذنب ونقص وفي الحقيقة أنهم حائزون لجميع الفضائل والكمالات الإنسانيّة لأنّه عندما تخبرنا لغة الوحي بصراحة «إن الله لا يحب الكافرين، لا يحب الظالمين، لايحب المعتدين، لا يحب المفسدين، لا يحب الخائنين، لا يحب المسرفين، لا يحب الفرحين، لايحب المستكبرين، لا يحب كل مختال فخور، لا يحب كل خوّان كفور» وغير ذلك، نعلم أنَّ الفريق الذين ثبتت له المحبة ينبغي أنْ يكون منزهاً من التلوّث بخصال الكافرين، الظالمين، المتجاوزين، المفسدين، الخائنين، المسرفين، الفرحين، المغرورين، المستكبرين، الأنانيين، المتكبرين، الخائنين، غير الشاكرين وأمثالهم.

من جهة أخرى وحين أعلن الوحي صريحاً: «إنّ الله يحب المتقين، يحب الصابرين، يحب المحسنين، يحب التوابين، يحب

المتوكلين، يحب المقسطين، يحب المتطهرين، يحب الذين يقاتلونفي سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، إلى غير ذلك...»فينبغي على هذا أن يكون فريق المحبّة حاوياً لجميع الفضائل والكمالات، الطاهرون، الصابرون، المحسنون، التائبون، المتكلون، العادلون، المنزهون،المقاتلون، المتراصون في صف واحد ثابت ومستقر.

وينبغي أيضاً أنْ يتزين بها بأجمعها، لأنَّ جملة: «يحبهم ويحبونه» ناظرة إلى الذات، وأنَّ صاحب هذه الذات المحبوبة اشتمل على صفة من هذه الصفات المذكورة ومن البديهي أنَّ المحبةعندما تتعلق بالذات فالمفروض مقدماً أنَّ صاحبها متزين بجميع الصفات الكمالية ولو فرضنا وجودصفة واحدة فيه منها فإنَّ الحب يكون متعلقاً بها.

مثلاً عندما تنطق لغة الوحي بقوله تعالى: «إنّ الله يحب المتطهرين»فإنَّ تعلق المحبة في هذاالموضع بصفة الطهر الماثل في الجهة المعنيّة وعندما يقول: «إنّ الله يحب الصابرين»فإنَّ صفةالصبر لها مدخلية بتعلق المحبة ومثله يقال في قوله تعالى: «إنّ الله يحب المتوكلين ويحب التوابين»وغيرهما من الآيات.

إنَّ هذه القضية تتوسع كلما توسعت الصفات في الظاهر إلى أن يبلغ الشخص المعني بالمحبةجميع صفات الكمال بحيث لا تنقص منها صفة مفقودة فيه عند ذلك تتعلق محبة الخالق بذات العبدوتكون ذات العبد التي هي مبدأ جميع الصفات الخيّرة محبوبة للخالق المتعال ومقربة لديه.

أجل، إن أصحاب الجملة آنفة الذكر وإن كانوا عبارة عن أصحاب أمير المؤمنين في بعض الروايات وفي بعضها الآخر أنهم أصحاب المهدي(ع).

وبتطبيق الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١) على الآية الشريفة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾(٢) يريد بذلك إثبات المطلب المدّعى، إلّا أنه من الضروري العلم بأن الآيتين كليهما لا يمكن تطبيقهما تطبيقاً حقيقياً إلّا على الأئمة المعصومين.

وفي الواقع أن من تعنيهم الجملة الشريفة «يحبّهم ويحبونه» وتخبر عن محبتهم بصفة مطلقة ينبغي أن يكونوا هم أنفسهم المعنيين بالجملة الشريفة «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين» وهم حماة الدين وحرّاس العقيدة وبهم يكون الاحتراز في حفظهم لحقيقة التوحيد، وعندئذ كيف يكون مصداقهما الحقيقي سوى المعصومين(ع) مع أنّ الجملة الشريفة: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ والجملة الشريفة: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٩.

بكَافِرِينَ﴾ مع تمام القيود المخصوصة بهما من أول القرآن إلى آخره، منحصرتان بفرد بعينه، وفيهما بيان أعلى المصاديق «للإنسان الكامل».

وفي توضيح هذا المطلب مضافاً إلى البحث المتصل «بالمحبوبيّة الذاتية» للفريق المعنّي بهذا البحث فإننا نقول:

أولاً: الخصوصية المذكورة في جملة «يحبهم ويحبونه» في إفادة كمال مصداقها وفضيلته تسمو بمراتب على جملة «رضي الله عنهم ورضوا عنه» لأنَّ الحب ورهن القلب كثيراً ما يعلو على الرضاية والقبول وبناءً على هذا عندما نشاهد لغة الوحي تجعل أصحاب الجملة التالية: «رضي الله عنهم ورضوا عنه» عبارة عن المصاديق الآتية أدناه:

١ ـ الصادقين: ﴿**قَالَ الله هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنـهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾(١).

٢ ـ الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان: ﴿**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنـهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلا إِنَّ حِزْبَ الله**

(١) سورة المائدة: الآية ١١٩.

هُمُ المُفْلِحُونَ﴾(١).

٣ ـ خير البرية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾**(٢).

بخاصة عند الموازنة بين الآية الشريفة: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** ونفهم من هذاالبحث:

أن أصحاب جملة يحبهم ويحبونه أسمى مقاماً وأعلى منزلة من مقام الصادقين على الإطلاقوذوي الإيمان الثابت المؤيد والعلماء أصحاب الخشية وغيرهم ومن البديهي أن المقام الذي يسموفوق هذه الرتب الرفيعة هو الملازم «للعصمة والطهارة الذاتية» وعلى هذا الحساب لا تكون جملة«يحبهم ويحبّونه» إلا للمعصومين من ذرية رسول الله(ص) ويجعل معهم سائر المؤمنين الواقعيينمصاديق بسيطة وبدائية وبهذا يقبل دخولهم معهم تحت مفهوم الجملة.

والعجيب في الأمر أن الآيات القرآنية من أولها إلى آخرها أخبرت عن المحبوبية الذاتية لهذاالفريق، وكل أفراده من أمة رسول الله وأتباعه وتوصلنا إلى أنّه لا مصداق حقيقي له إلا المعصومونمن آل محمد(ص) ومن الواضح أن تسنم النبي غارب الإشراف والإحاطة على أهل بيته ومقاماتهمجعله في المقدمة من المحبوبية الذاتية بالنسبة

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢) سورة البينة: الآية ٧ ـ ٨.

إلى أهل بيته بين أمته.

أجل، إن محبوبيّة محمد وآل محمد(ع) عند الحق جل جلاله واحدة من الكمالات الأكثرامتيازاً التي هي الأصل لسائر فضائله وكمالاته، وفضل على سائر الأنبياء لتحليه بهذه الكمالات.

ثانياً: في القرآن كله ذكرت هاتان الخصوصيّتان «أذلة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين»واختصتا بهذا الفريق المشار إليه، ولا ينبغي أن يتصوّر متصور أن هاتين الخصوصيّتين هما عينهماالخصوصيتان المذكورتان في قوله تعالى:﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ من الآية الشريفة﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاًمِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً**﴾(١). لأنه لوحظ أن الخصوصيّتين«أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين»مترتبتان على عشق المتحلي بهما ومحبته وهما بعد من آثار المحبوبية الذاتية بخلاف خصوصيّتين«أشداء على الكفار رحماء بينهم» فإنهما أريد بهما طلب الثواب ورضا الله تعالى: «يبتغون فضلاًمن الله ورضواناً».

وقد تقدم البيان في أن «مقام العشق والمحبة» أسمى من مقام الرضا والقبول.

والواقع أن الخصوصيّتين التاليتين: «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» يفيد ذلك النوعمن التواضع والدفاع الذي يشاهد أحياناً بين

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

الطائر وفرخه فإنّ الطائر يعمد إلى الدفاع إذا توجهخطر من عدو كحيوان وغيره إلى ذلك الفرخ.

أجل، إنّ المؤمنين جميعاً أبناءٌ للنبي(ص) والإمام كما قال النبي نفسه: «أنا وعلي أبوا هذهالأمة»!

وبناءً على هذا تكون الخصوصيتان آنفتا الذكر من اختصاصات الأئمة المعصومين الذين همآباء حقيقيون للأمة وليس لهما أي انطباق على الأمة.

ثالثاً: الخصوصية: «يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم»، (والجملة الشريفة خبروفيه إشارة إلى استمرار المجاهدة في سبيل الله بصفة مطلقة). واعتبار هذه الخصوصية منحصرةبالفريق المشار إليه فيه نظر:

بيان ذلك وإيضاحه: فرق بين قول القائل لشخص ما بصفة مطلقة «يجاهد في سبيل الله» أو أنالجهاد مقيد بقيد، كأن يقول: «يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه» ومن المعلوم أن القول الأوّل بإطلاقه لذلك الشخص يكون شاملاً للجهاد بالمال والنفس والأمر بعكس ذلك في القول الثانيالمقيد فإنه لاينسحب إلا على المال والنفس ولا يشمل الجهاد في الصور الأخرى.

مثلاً إذا كان في موضع يحتم على المجاهد إمساك المال والبخل به جهاداً في سبيل الله أويرى الامتناع عن دخول ميادين الحرب من وظائف الجهاد أيضاً أو أنه يرى التقية ومصانعة الظالموقبول حكمه في ظرف يعتبره المجاهد قراراً من الله تعالى وهكذا في جميع

المواضع حين تكون التكاليف الإلهية حافظة لكرامة المجاهد مؤدية إلى رفعته وتهيأته لجولات المستقبل، ومن الضروري العلم بأن المجاهد عندما يجري العمل بالتكاليف الإلهية في الظروف المساعدة فإنّه لايتحلل عن التكاليف في الصور التي يمكن أن تكون عاراً على المجاهد كما أنه لا تأخذه لومة لائم من الأقارب والموافقين في المذهب ولا يخشى بذلك أحداً إلا الله ويتقبل اللوم والتوبيخ بروحه، ولامانع جهادي في ذلك.

أما المجاهد الثاني: فإنه يجاهد في بذل النفس وإنفاق المال وحدهما بحيث يكون موضعاً للإعزاز والفخر عند الناس والأقرباء ورفقاء المذهب.

لذا فإننا نرى في لغة الوحي عندما تأتي الجملة: «يجاهدون في سبيل الله» نعتاً للفريق المعني بالبحث يتبعها بالجملة الأخرى فوراً «ولا يخافون لومة لائم» لكي يثبت فضيلة المشار إليه وكماله لهم ويعلمهم أنّ هؤلاء المجاهدين لا يقعدون عن العمل والجد في سبيل الله، ويعملون كل ما اقتضاهم التكليف العمل به، ولا يبالون بما يلقونه من اللوم والتوبيخ كما لا يخشون ذلك.

أجل من البديهي أنّ قوماً يقدرون على حيازة الجهاد المطلق ويبقون في الموارد كلها ثابتي القدم، لا يتحررون من التكاليف الإلهية طرفة عين لأنّهم يقيمون في «مقام العصمة والطهارة الذاتية»، وإلا فإنّ من تنحط درجاته عن هذا المقام فإنّه لن يستطيع القيام بالجهاد المطلق ويكون جهاده جهاداً مقيداً.

رابعاً: أن الخصوصية الواردة في هذه الآية:﴿**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ شأنهاشأن الخصوصيات الأخرى في الجمل السالفة منحصرة بمعيّن في القرآن كله أوله وأوسطه وآخرهو هي من اختصاصات الفريق المعني بالبحث الآن.

ولتوضيح هذا المطلب نقول: ينبغي أن يعلم ابتداءاً بأنَّ الجملة المذكورة أعلاه نزلت ضمنآيات نازلة في التعريف بفضل الأنبياء العظام ومرتبة هدايتهم وحينئذٍلابدَّ من النظر في هذه الآياتابتداءاً لكي نقرب أكثر وأكثر من درك الجملة المأخوذة في هذا البحث:

﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَوَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَالصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْوَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِوَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْبِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**﴾(١).

(١) سورة الأنعام.

وبقليل من التحري والدقة في سياق الآيات أعلاه يتضح لنا أن الآية المرقمة بـ (٨٩) من بين الآيات لها موقع خاص لأننا نرى بعد أن كشف الله تعالى عن الهداية التي قام بها الأنبياء العظام مثل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ودوام هذه الهداية والدين بواسطة السلسلة الشريفة للأنبياء والمرسلين من البدء إلى زمن خاتم النبيين(ص) فإنَّه سبحانه في الآية ٨٩ يعزي رسول الله أمام كفر الكافرين ويربط على قلبه فيقول: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾.

وهنا ينبغي توجيه الفهم من أجل درك كلمة «وكلنا» في جملة ﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ بعناية أكبر.

يقول الراغب الاصفهاني في المفردات:

«التوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك وفي كتب اللغة ضبط على هذا المعنى وكل توكيلاً فلاناً جعله وكيلاً» وبناءً على هذا فإن كلمة «وكلنا» يكون معناها كالتالي في إيجاد العزاء والتسلية لرسول الله(ص): طب نفساً يا محمد وقرّ عيناً فإن كفر أولئك بالكتاب والحكم والنبوة فلا خوف على الهداية والدين السماوي من كفرهم لأننا اعتمدنا في حفظه على جماعة مبرأة من الكفر لم تتلوث بأوضاره وهم وكلاؤنا ونوابنا وسوف يحفظون الكتاب والحكم والنبوة.

أجل إن الدقة المتناهية في قوله تعالى: «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين» يحمل الإنسان على العجب والانبهار لأنّالله تعالى في القرآن كله وفي لغة وحيه لم نعهد منه أنه قال: نحن اعتمدنا على فلان أو جعلناه في العمل الفلاني نائباً عنا، بلْ على العكس من ذلك نرى الباري تعالى يعبّر عن نفسه أنّه وكيل الخلق ويأمر الناس بالتوكل عليه: ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾[1]، ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2]، ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْكُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3]، ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[4] وغير ذلك.

ولكننا في الجملة المتحدث عنها نراه يخبّرنا سبحانه بقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَابِكَافِرِينَ﴾ في حفظ الهداية والدين السماوي اعتمدنا على جماعة مبرئين من الكفر لم يتلوثوا به واستتبنا هؤلاء لكي يحمو الكتاب والحكم والنبوة.

ونحن لسنا بصدد البحث عن معنى «الكتاب والحكم والنبوة» الآن ولكنّ اليقين أنّ المقصود منه هو: «مجموعة الهداية والدين السماوي كله من لدن آدم إلى الخاتم(ع) وهو الزعيم بسعادة الدنيا والآخرة لبني الإنسان كلهم».

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٢.
(٢) سورة الزمر: الآية ٦٢.
(٣) سورة المائدة: الآية ٢٣.
(٤)

وبناءً على هذا فإنَّ «القوم» الأوَل أخبر الله عنهم بأنهم حماة الهداية والدين السماوي والذين ناط بهم حفظهما بما يحتويانه من المنظومة المنزلة المقدسة ومن أجل هذا لا خشية عليه ما دام هؤلاء حماة لها ورعاة لمبادئها وإن كفر بها الآخرون لأنَّ تعاهدهم لها لم يكن رهين ظروف معينة بل مشتمل على صفة الدوام فسوف تظل المحافظة عليه لازمة لزوماً مؤكداً من قبل هؤلاء المصطفين له كما أنهم بمنأى عن الكفر ليس به فحسب بل حتى بذرّة منه وحينئذٍ لابدَّ أنْ يكون هؤلاء الحماة من المعصومين قطعاً لأنه **أولاً:** من المحال أن يعتمد الله على المذنبين في حفظ دينه وحمايته وأن يصطفيهم لرعايته. **وثانياً:** أن غير المعصوم ولو كانت العصمة منتفية عنه بارتكاب الصغيرة فإنَّه في باطنه يصل إلى مرحلة الكفر في الأمور القلبية حيث المعقد الأصيل للهداية والتسليم قد يقعد مقعد المتردد الشاك.

أما من حيث التعيين للفريق المعني من أي فئة من المعصومين هو؟! فإننا نقول:

لما كانت الجملة التي نحققها ونبحث فيها أنزلت على النبي لتسكين خاطره وتسلية قلبه فينبغي أن يكون زمان هؤلاء المعصومين يبدأ من زمن النبي فما بعده وفي هذه الفترة طالت أوقصرت يوكل إليهم الحفاظ على الهداية والدين وإلّا فإن أنبياء السلف مضى عهدهم وانقضى ثم إنَّ النبي فارق الدنيا ورحل إلى الرفيق الأعلى بعد سنيهات من نزول الآية.

مضافاً إلى ماتقدم لو أنّ المعنى بالآية هم أنبياء السلف لكان التعبير في الجملة السالفة يكون على هذا النحو: «فقد وكلنا بها قوماً لم يكونوا بها بكافرين».

ومع غض النظر عما تقدم فإن الكتاب والحكم والنبوة الواردة في هذه الآية المبحوث فيها (آية ٨٩ سورة الأنعام) ينبغي أن تخص كتاب خاتم النبيين وحكمه ونبوته(ص) ومن الضروري أن أحداً من الأنبياء والمرسلين الماضين لم يكن بمستطاعه حمل هذا العبء من الكتاب والحكم والنبوة لخاتم النبيين، وإلا لكان ختم النبوة نصيبهم وتتمة الشرع بهم إذن.

لقد ثبت بالطبع بأنّ الغرض من المعصومين الموكل إليهم حمل هذا العبء وحفظ هذه الأمانة هم المعصومون من أمة النبي دون غيرهم لأنهم أتباع النبي المثاليون الممتازون ولا يمكن انطباق هذا الموضوع من بين سائر المسلمين إلا على الأئمّة المعصومين من أهل البيت لأنّ العصمة الذاتية لم يثبتها الوحي لأي مسلم إلا لهم ولم ينزل تصديقها من الله إلا لهم.

[إن البحث القرآني المختص بمعرفة الأئمة المعصومين من أهل البيت ذكرناه في مواضع متفرقة من الكتاب لاسيما في الخاتمة منه فمن أراد الرجوع إليه فليرجع إلى هذه المواضع من الكتاب].

أما عن معرفة كيفية الحفاظ على الهداية والدين الإلهي في إناطتهما بأهل البيت والأئمة المعصومين وكيف أودعت منظومة الكتاب والحكم والنبوة عند هؤلاء العظماء إلى الأبد فإنّه موضوع

يقتضي لدركه لطفاً خاصاً وظرافة طبع معيناً.

أجل من المسلم به أنَّ المقصود من ذلك ليس حفظ نفس الكلمات والأحكام الإلهية وإيداعهافي قوّة الحافظة، أو حفظها في تسجيلها كتابة على الورق لأن هذا العمل يتأتى حتى من الكافر الذيلا دين له إذا كان أميناً في الضبط، ثقة في الإدراك وما من حاجة حينئذ إلى الإمام المعصوم.

إنَّ قوام الدين والهداية الإلهية بالإمام المعصوم وخليفة الله في الأرضين(ع) من نوع قوامالطب بالطبيب وقوام الهندسة بالمهندس.

فلو أن آفة عرضت لكتب الطب والهندسة فأبادتها فإن بقاء الطبيب والمهندس على قيد الحياةكافٍ في بقاء الطب والهندسة، وعلى العكس من ذلك لو أن هذه الآفة أبادت الطبيب والمهندس فإنذلك فناء للطب والهندسة وإن كانت المكتبات تعج بكتب الطب والهندسة.

إنَّ قوام الدين والهداية الإلهية بالإمام المعصوم قيام لا تختلف الحال فيه عند حضوره وغيابهويكفي في ثبات الدين والهداية الإلهية وجوده الصرف ويظل الدين والهداية كلاهما يشملان جميعالخلائق.

وهذا ما كان من بيان التطبيق الإيضاحي بين الجملة الشريفة: «فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَابِكَافِرِينَ» والجملة الشريفة: فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبّونه وهو يثبت الوحدة المصداقيةلهما.

وعلى أية حال إن ما حصل بأيدينا من تحقيق الآية ٥٤ من سورة المائدة وبحثها هو أنَّالمقصود الحقيقي من الجملة الشريفة: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَأَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾ هم المعصومون من آل محمد وأنَّ الحفاظ على الدين وحماية الهداية الإلهية منوطة بهم ومودعة عندهم لذلك جاء بيان ولاية أبيالأئمة علي بن أبي طالب(ص) المطلقة بعد بيان الولاية المطلقة لله ورسوله على الخلائق (حيث كانزمن نزول الآيات المبحوث فيها أجلى مصداق للجملة «يحبهم ويحبّونه» وله الولاية كذلك علىسائر الأئمّة) وسوف نوضح ذلك في الفصل القادم إنْ شاء الله تعالى..

في تحقيق " آية الولاية "

وهي الآية الخامسة من مجموع الآيات التي يراد بحثها وإيجاد المصداق الواقعي لها

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾.

ونقول في تحقيق هذه الآية المعروفة ب «آية الولاية»:

أولاً: أن الخطاب فيها ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ...** ﴾ موجه إلى أولئك المؤمنين والمسلمين المخاطبين في الآية السابقة المبدوءة بنداء ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ** ﴾ ولا شبهة في ذلك ولا ريب.

وكذلك لا شبهة ولا ريب في أن المسلمين المنادين بنداء: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ** ﴾ هم أنفسهم المؤمنون والمسلمون المنادون بالآيات الثلاث السابقة وأولها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾.

وبناءً على هذا فإنّه خاطب في هذه الآية مورد البحث المؤمنين والمسلمين الذين ربّما اتخذوا من اليهود والنصارى أولياء وبادلوهم المحبة والود واعتبروا اليهودي أو النصراني ولياً لهم وبهذه الطريقة وقعوا على سبيل الارتداد، فقال: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

ثانياً: لما أطلقت الولاية في هذه الآية بأي معنى كانت على الذين آمنوا بالحد الذي أطلقت فيه على الله ورسوله وولايتهما أمر بها المؤمنين مجرّدة من أيّ قيد أو شرط بل بصورة مطلقة فينبغي أن يكون المقصود من و «الذين آمنوا» المعهود تلك الفئة من أهل الإيمان الذين كانوا في الآية السالفة مصداقاً حقيقياً للجملة الشريفة﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾ الذين طهرت أذيالهم من الرذائل وتحلوا بجميع الفضائل وقد أثبتنا فيما سبق أن هذا المعنى لا يتناول إلا المعصومين من آل محمد(ع).

أجل من البديهي أنّ أحداً غير المعصوم لم تكن ولايته بصفة مطلقة معادلة لولاية الله ورسوله، والمرء المذنب لا يكون ولياً لأحد بسبب ما ارتكب من الذنوب.

ثالثاً: لما انحصرت مصداقية الآية﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ في زمن نزول الآيات (٥١ إلى ٥٦) من سورة المائدة في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع).

إذنْ ينبغي أن تكون الجملة حاكية عن صدور عمل متمثل في الواقع الخارجي يعبر عن ذلك المصداق، وإلا فليس من الممكن أن تكون الجملة﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ معرفة للفضيلة الأصلية والرتبة الواقعية لفئة «والذين آمنوا» المذكورة قبلها، لأن التعريف في الجملة الشريفة﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ**

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِوَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ أعظم بمراتب وأعلى من إقامة الصلاة، والإنفاق المتواضع على الفقراء، معفرض حدوثه.

أجل، إن العمل الخارجي المومى إليه والذي صار معرفاً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالبـوجعل ولايته مساوية بإطلاقها لولاية الله ورسوله وأثبتها له هو تلك القضية من «التصدق بالخاتم»عند الركوع وقد بلغنا ذلك بواسطة الروايات الكثيرة المروية بطرق العامة والخاصة.

نقل هذه الحكاية جماعة من الأصحاب مثل: أبي ذر الغفاري وابن عباس، أنس بن مالك،عمار بن ياسر، جابر بن عبدالله، سلمة بن كهيل، أبي رافع، عمرو بن العاص وغيرهم.

وذكرت مكررة بالروايات الشيعية بصورة مكثفة.

[انظر الروايات المتصلة بالموضوع في «الدر المنثور» للسيوطي و «البرهان»للبحراني في تفسير الآية مورد البحث وسائر كتب الفريقين].

رابعاً: لما علم أن جملة «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» اختصتبتعريف علي(ع) وحده وهدت إلى علامة غيبيّة للتدليل عليه (ولم يكن القصد من ذلك اعتبارهامقاماً أسمى وفضيلة عظمى له(ع) من حيث التصدّق بالخاتم وهو في الصلاة)لأنَّ هذا العمللا يتعذر على أي مسلم أنْ يقوم به.

إذنْ اتضح من ذلك أنّ الولاية المطلقة التي ثبتت في آية الولاية لـ«والذين آمنوا» هم الأئمةالمعصومون كلهم(ع) فهي باقية بقوتها والأئمة جميعاً مندرجون تحت «آية الولاية».

نعم، وإن كان موضوع التصدق بالخاتم في جملة﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُون**﴾ مختصة بشخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع)، ولا تتسع مفهوماً لسائر الأئمةعند نزولها كي يكونوا من مصاديقها لكن الجزء الأصلي من آية الولاية وهي عبارة عن جملة﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ يشمل جميع الأئمة المعصومين فيكونون على هذا التقديرمصاديق لآية الولاية.

وبطبيعة الحال لا شبهة في أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) سيد الأوصياء وله الولايةعلى جميع الأئمة والذرية الطاهرة بعد النبي(ص). ولكن لا مانع من شمول آية الولاية لجميع الأئمة،لأنه ثبت فيما تقدم أن المعني بـ «والذين آمنوا» المذكورة في آية الولاية هم أولئك النفر الذين وقعوامصداقاً للجملة الشريفة:﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىالْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ**﴾ المذكورة قبل آية الولاية.

خامساً: يتضح مما قلناه أن الولاية المقصودة بالذكر هي تلك الولاية المطلوبة من المحبوببحق المحب والوالد في حق ولده العزيز التي أقيم أسّها على المودة الذاتية بحيث يوضع وجودالمحبّ

كله في اختيار المحبوب وجميع النفع والضرر يوضع مد نظر ولي الولد.

وبناءً على هذا كل بحث جرى في هذا الباب من أن الولاية المذكورة هل هي ولاية تكوينيةأو تشريعية؟! ولاية نصرة أو ولاية تصرف أو غير ذلك؟! فإنّها بحوث كلامية وليس لها أيُّ نظرللموقع الخاص في آية الولاية.

أجل يحبهم ويحبّونه﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾،﴿**وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ من أجل هذا ذكر محبيهؤلاء الأماثل وشيعتهم (في نفس الوقت الذي يحبون فيه الله ورسوله) ذكرهم بالصفة التالية:﴿**وَمَنْيَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ**﴾.

وأنتم تلاحظون إطلاق لفظ «حزب الله» على محبي أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين تصريحاًوبصورة بيّنة.

وفي ختام المقطع الثاني من هذا الكتاب ذكرنا أنَّ كلمة حزب الله من أول القرآن إلى آخرهاستعملت مرتين وفي كليهما اختصت بمحبي علي بن أبي طالب وأولاده الطاهرين وشيعتهم،والأولى في الآية مورد البحث أي «آية الولاية» والأخرى في الآية (٢٢) من سورة المجادلة.

وإلى هنا نختم البحث والتحقيق للآيات (٥١ إلى ٥٦) من سورة المائدة وفي الفصل القادمنتوصل بالبحث المبسّط في موضوع الآيات نفسها إلى الروابط السياسيّة بين المنافقين المحترفينواليهود

والنصارى ونقف على سر ذلك إن شاء الله تعالى.

الروابط السياسية بين المنافقين وأهل الكتاب

من أجل الوصول إلى الغاية المطلوبة نضع بدءاً متون الآيات ٥١ إلى ٥٦ من سورة المائدة بين أيدينا:

متون الآيات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾.

والآن نعود إلى بحث الآيات آنفة الذكر مجدداً لكشف الروابط السياسيّة بين المنافقين المحترفين واليهود والنصارى فنقول:

١ - لا يعتري الإنسان الشك بأنّ مصاديق الآيات الثلاث المارة

توأ تقف مفاهيمها فيما يقابلمصاديق الآيات الثلاث الأولى، فإن هؤلاء: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ ومصاديقالآيات الثلاث الأولى بعكس ذلك تماماً «أذلة على الكافرين أعزة على المؤمنين».

أجل، إن الفريق الذين نزلت الآيات الثلاث لتأديبهم وفي الوقت نفسه لتوبيخهم وتقريعهم لأنّهم روابط متينة مع اليهود والنصارى، ومراودات متصلة ويضعونهم في صف الأولياء ويمنون علىالمؤمنين بأن ولاءهم للنصارى واليهود إنّما كان من أجل صيانة المؤمنين عندما يحين الهجومعليهم من قبل الكتابيين فينجون المؤمنين منهم وينجون أنفسهم.

إذنْ فعلامة أذلة على الكافرين أعزة على المؤمنين من العلامات المسلمة.

٢ ـ الجملة الشريفة «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» وكونها صفة ملازمة لأصحابالجملة «يحبهم ويحبونه» تعلن معطوفاً على ذلك مفاد الجملتين حيث صار الجميع ميزاناً لثباتقدمهم وعدم ارتدادهم ويتضح هنا أن الفريق الأول الذين هم «أذلة على الكافرين أعزة علىالمؤمنين، وقد اتخذوا من اليهود والنصارى أولياء لهم بلغوا إلى نقطة الارتداد وتحوّلوا عن دين اللهإلى سابق عهدهم بالجاهلية.

٣ ـ ولما كان مصاديق الجملة الشريفة﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىالْكَافِرِينَ**﴾ ومحبوهم وشيعتهم اتخذوا وليهم وقائدهم المحبوب الله ورسوله وعلي بن أبي طالب(ع) فإنه

يعلم من ذلك هوية ارتداد الفريق الأوّل الذين هم أذلة على الكافرين أعزة على المؤمنينوالذين اتخذوا من اليهود والنصارى أولياء من كونه ارتداداً عن قبول مضمون آية الولاية ولو فرضناأنهم تناولوا بارتدادهم هذا الله ورسوله أو أنهم سكتوا عن بيان اعتقادهم فيهما، فإنْ اعتراضهم علىولاية علي بن أبي طالب(ص) قطعي وعداءهم له عداء سافر تفرغوا له بكل جهدهم.

أجل إن ارتداد هذا الفريق المعهود كان بسبب ردّه مضمون «آية الولاية» أنهم لا يقبلون ولايةعلي بن أبي طالب وأولاده الطاهرين ولا إمامتهم ولا يخضعون لأوامر الله ورسوله الخاصة بهذاالموضوع.

٤ ـ وأيضاً لما كان فريق المستكبرين بنص الآية ٥٢ هو فريق «الذين في قلوبهم مرض» أيالمنافقين المحترفين وكان سبب ارتدادهم ردّهم آية الولاية وعداؤهم للإمام علي بن أبي طالب(ع) فإنَّ هذا الأمر يوقفنا على حقيقة أخرى متصلة بالموضوع وهي معنى قوله تعالى: «ما أسرّوا فيأنفسهم» فقد ظهر لنا جلياً بمراعاة القرائن السالفة (أنه فتح باب المحبة والمراودة في وجوه اليهود والنصارى واتخاذهم أعواناً لهم وموضعاً لأسرارهم(ويؤدي ذلك حتماً إلى تفانيهم على تغييرمجرى الخلافة عن أهل بيت النبي وحرمان علي من إمامة المسلمين وخلافته عليهم.

ولكي يتضح الأمر أكثر نضع مجدداً الآية (٥٢) أمامنا حتى نتمثل القيود المستعملةفيها وتظهر بصورة أجلى النتيجة التي حصلنا

عليها من المقدمات:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

كما تلاحظون هنا أن ما يظهره المنافقون المحترفون بألسنتهم وما يقولونه من إظهار الغدر في ارتباطهم باليهود والنصارى «يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة» هو أمر يختلف عما يخفونه ويخشونه **﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾** أنَّ هذا السر هو نفس ارتباطهم مع اليهود والنصارى الذين حاولوا إخفاءه بإيجاد مخرج مفتعل منه.

وبناء على هذا فقد ظهر جلياً أنَّ سرهم الخفي في إقامة الروابط المتينة مع اليهود والنصارى ومودتهم ورهن قلوبهم عندهم إنَّما كان سراً متصلاً بنقطة ارتدادهم وعدائهم لعلي بن أبي طالب وتغيير مجرى الخلافة عنه إلى من عداه وبالطبع ينبغي أنْ يكون في علم القارىء أنّ هذه الروابط السياسيّة المقامة بين فئة المنافقين المحترفين إنَّما كانت مع رؤساء المذهب والطبقة المتنفذة من اليهود والنصارى وليست مع أوباشهم وعامتهم ولا الطبقة الوسطى منهم لأنَّ الفوائد المتوخاة للمنافقين المحترفين إنَّما تنتفي من هذه الشريحة من مجتمعهم لا من سواهم فقد رأينا الارتباط الودّي بين أمثال عبدالله بن سلام وتميم الداري وكعب الأحبار وغيرهم والمنافقين المحترفين وكون هؤلاء اليهود من حزب الخلفاء دليل آخر على صدق

المطلب الذي جلوناه وقد وقفنا قبلاًعلى وجوه بارزة من المنافقين المحترفين كانت لهم مكاتبات ودّية مع نصارى الشام.

ومن العجيب أن روايات الفريقين كليهما ربطت نزول «آية الولاية» بأهل الكتاب المظهرينللإسلام وهم ليسوا منه في شيء، ونحن على سبيل المثال وإثباتاً لما قلناه نسوق رواية الذيل:

«أخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: أتى عبد الله بن سلاموَرهط معه من أهل الكتاب نبيّ الله(ص) عند الظهر فقالوا: يا رسول الله(ص) إن بيوتنا قاصية لا نجدمن يجالسنا ويخالطنا دون هذا المسجد وأن قومنا لما رأونا قد صدقنا الله ورسوله وتركنا دينهمأظهروا العداوة وأقسموا أن لا يخالطونا ولا يؤاكلونا فشق ذلك علينا.

«فبينما هم يشكون ذلك إلى رسول الله(ص) إذ نزلت هذه الآية على رسول الله(ص): ﴿إِنَّمَاوَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ونوديبالصلاة صلاة الظهر وخرج رسول الله(ص) فقال: أعطاك أحد شيئاً قال: نعم قال: من، قال ذلكالرجل القائم قال على أي حال أعطاكه قال: وهو راكع قال وذلك علي بن أبي طالب فكبر رسولالله(ص) عند ذلك وهو يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾»(١).

(١) الدر المنثور، ج٢، ص٢٩٣، ويظهر أنّ في الرواية سقطاً بيّن وخرج رسول الله وبين فقال: أعطاك الخ، وقد وردت في نفحات الأزهار، ج٢، ص٣٩ .

ونلاحظ هنا سبب نزول آية الولاية طبقاً للرواية أعلاه أتمت لهم الحجة في أمثال عبدالله بن‌سلام وغيره بحيث جعلتهم عاجزين عن إسدال الستار على التعاون الوثيق بين المنافقين المحترفين‌وحزب الخلفاء.

والحقيقة أننا لا نعلم عن إسلام عبدالله بن سلام وتميم الداري وأمثالهما على أية كيفيّة كان،ولأية غاية انتموا إلى جماعة المسلمين في فترة نمو الإسلام الظاهري في المدينة.

أجل، إن السرّ الخفي عند هؤلاء الأفراد جميعاً مع المنافقين المحترفين وحزب الخلفاء بعدوفاة النبي(ص) وتحولهم إلى أنصار لحكومة الخلفاء مرة واحدة‌يعطي للباحث الذريعة في الاسترابة‌بدينهم وإسلامهم ويجعل الاحتمال وارداً ومقبولاً من كونهم أسلموا على أساس الدسائس السياسية‌مع المنافقين المحترفين وحزب الخلفاء الحاكم كما أنه عقلي بالتمام والكمال.

(كما بيّنا سلفاً في «البحث الأول» من هذا القسم من الكتاب أن إسلام كفار قريش كان على‌أساس هذا التباني السياسي مع المنافقين المحترفين).

أليس عمر بن الخطاب قد أذن لتميم الداري أن يقص على المسلمين يوم الجمعة قبل إقامة الصلاة بساعة ويحدثهم ولما جاء دور عثمان وآل الحكم إليه جعل اليوم يومين للحديث بل أعطاه وقتاً أطول متى ما شاء.

أليس عمر بن الخطاب نفسه ومعه عثمان ومعاوية قد اتخذوا من أمثال عبد الله بن سلام مستشاراً دينياً وكانوا يسألونه عن كل ما

هبّ ودبّ لا سيما في معارف المبدأ والمعاد وتفسير القرآن وغيره ويطلبون رأيه في هذا كله ليكون اعتمادهم عليه، وصار مثل أنس بن مالك وأبي هريرة،وعبد الله بن عمرو بن العاص، رواة أحاديثه وبهذا التحول الجديد فتحوا للإسرائيليات الباب على مصراعيه لتدخل في عمق المتون المذهبية.

أنظروا أنتم إلى «جهاز الخلافة في وضع الحديث» كيف نحت الفضائل والمناقب الجمة لعبدالله بن سلام اليهودي جزاء خدماته الكبرى لهم بحيث مقامه كبر في عيون أكثر المسلمين وصار إذا مر بهم وليد أو حفيد له يبالغ المسلمون في إكرامه واحترامه وتمجيده وتكريمه لمجرد كونه من عبدالله بن سلام .

أليس ما فعلوه من الأحاديث الموضوعة بنسبة أعظم فضيلة نزلت في لغة الوحي واختصت بصاحبها أكمل إنسان وأكثرهم حباً في الله وقرباً منه إلى عبدالله بن سلام واختصوها به وقالوا: «من عنده علم الكتاب» المذكور في الآية الشريفة التالية: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (١) هو عبدالله بن سلام.

مع أنَّ كل من قاس هذه الآية بالآية الشريفة: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ (٢) ويلم بالقدرة الخارقة التي أنعم بها الخالق سبحانه طبقاً لما جاء في الآية الكريمة

---

(١) سورة الرعد: الاية ٤٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٤٠.

لعبده الصالح «آصف بن برخيا» وصي سليمان وهو مع ذلك عالم ببعض الكتاب لاالذي عنده علم من الكتاب، فمن يدرك هذا التعبير مقروناً إلى قوله تعالى: «ومن عنده علمالكتاب» وهو أكمل إنسان مقرب إلى الله تعالى ولذا عرفه سبحانه بهذا التعريف العظيم سوف يدرك أنَّ أبا جد عبدالله بن سلام اليهودي لا يصل إلى رملة عالقة في نعل آصف بن برخيا فما بالك بعبد اللهنفسه، حين ينسب إليه «من عنده علم من الكتاب».

نعم لو لم يكن عبدالله بن سلام وزملاؤه متظاهرين بالإسلام ولو أنهم أضاء في بواطنهم ضوءبمثابة شمعة صغيرة من الإيمان مع أن عبدالله ورفاقه كما نصت روايات الفريقين كان حاضراً يومنزول الآية الشريفة ورأى كلهم بأم أعينهم كيف يخص كلام الوحي الولاية والقيادة بأمير المؤمنينعلي بن أبي طالب(ص) ويحصرها به دون غيره بعد وفاة النبي(ص) ويجعله إماماً على المسلمينكافة.

أقول: لو صح إسلام عبد الله ورفاقه لما تبعوا المنافقين المحترفين وحزب الخلفاء الحاكم ولماكان من أشد المدافعين عنهم بأساً وأعظمهم مراساً ولما تلكأوا عن بيعة الإمام لما آل الحكم إليه.

نحن لا نريد أنْ نحصر روابط المنافقين المحترفين السياسيّة بهؤلاء اليهود المتظاهرينبالإسلام بل مر علينا من نتائج البحث مظاهر حصلت بأيدينا من اتصال قوم معروفين من الصحابةبنصارى الشام وكانت لهم مبادلات مهمة بالرسائل والكتب وربما كان لهم في هذا السبيل مع كثيرمن رؤساء المذهبين اليهودي

والنصراني وذوي النفوذ منهم أسرار سريّة وإنما غرضنا هو بعد عرضناللمدارك التاريخية المذكورة أن نثبت أن هذه الفئة من علماء اليهود والنصارى المتظاهرين بالإسلاملما جنحوا لحكم الخلفاء ومالوا إليهم وصاروا من أعوانهم المخلصين وأنصارهم المجدّين علمنا أنالآيات التي تناولت المنافقين بالذم والتقريع والتأنيب تناولتهم أيضاً.

وإلى هنا نختم البحث الكلي في الآيات ٥١ إلى ٥٦ من سورة المائدة ونقول وقد حصلنا علىالنتيجة من مجموع هذا القسم من الكتاب:

إنَّ التحقيق والبحث في الأقسام الثلاثة أثبت لنا: بأنّ الروابط السياسيّة بين المنافقينالمحترفين مع رؤساء الطوائف المختلفة (١ ـ كفار قريش، ٢ ـ المنافقين العاديين، ٣ ـ أهل الكتاب) كانت من أجل هدف واحد وتدور حول محور مركزي واحد وهو عبارة عن صرف مسار الخلافة والإمامة عن أهل بيت النبي(ص) ولم يخفقوا في هذا العمل بل بلغوا أهدافهم.

تحقيق حول صلح الحديبية وبيعة الشجرة

في هذا القسم نعمد إلى بحث الآية الشريفة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾(١).

والآية الشريفة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢).

لنعرف أن مفاد أيّة آية من هاتين الآيتين ليس في نفع المنافقين بل على العكس من ذلكسوف يظهر البحث كما تجلى ذلك في سائر البحوث السالفة أنّه محيق بهم قائم بأضرارهم!

وبناء على هذا سوف نتابع البحث والتحقيق المتصل بهذا القسم في مقطعين اثنين:

المقطع الأول: بحث الآية ١٨ من سورة الفتح وتحقيقها.

المقطع الثاني: بحث الآية ١٠٠ من سورة التوبة وتحقيقها.

المقطع الأوَّل:

إنَّ الغرض الأساس في هذا البحث هو تحقيق الآية ١٨ من سورة الفتح وبحثها إلا أنه لما لهامن ارتباط مع سائر آيات السورة بذكر متون آيات سورة الفتح ثم ندخل في بحث الآية المنظورة إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٨٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

فهرس المواضيع:

- متن آيات «سورة الفتح»
- قصّة الحديبيّة وموضوع بيعة الشجرة.
- بحث الآية المنظورة وإثبات أن بيعة الشجرة لا نفع من ورائها يعود علىالمنافقين المحترفين.
- سرّ تغيير موضع سورة الفتح بين سورة محمد وسورة الحجرات.
- بحث الآيات الأولى من سورة «الحجرات» وبروز وجوه في هذا البحث للمنافقين المحترفين.

متون آيات سورة "الفتح"

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) هُوَ
الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥)
وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ
دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٦) وَلِلَّهِ
جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً
وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ
أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ
الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ
يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي
قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦) لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤) هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ

اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩) ﴾ (١).

إنَّ الآية الشريفة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾ هي الآية الثامنة عشرة من آيات سورة الفتحالنازلة في وقعة الحديبية والتي ترتبط موضوعاً بها ونزلت على رسول الله(ص) بهذا الشأن ونحنمن أجل إيضاح الوضع الصحيح لتلك الآيات بخاصة إلقاء الضوء على الموقع الخاص للآيات موردالتحقيق (التي نزلت في بيعة الشجرة خاصة) ونبدأ أولاً بسوق حكاية صلح الحديبية على

(١) ولكي ندرك معنى الذنب المنسوب إلى النبي في الآية ينبغي التوجّه إلى الذنب المذكور في الآية التالية: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ فإنّه من وعه وإلا فمن حيث الواقع فإنَّ الآية ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَإلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ تدل على عصمة النبي عن الذنوب المولوية دلالة يقينية.

نهجالروايات العامية لكي يتسنّى لنا تهيئة المناخ الصالح للتحقيقات القرآنية المرتبطة بالآية مورد نظرنا بصورة أجلى وأكمل ثم نقول سلفاً إن متن الحكاية مأخوذمن الروايات الواردة في «السيرة النبوية» لابن هشام ج ٣ ص ٣٢١ إلى ٣٣٧ و «كتاب المغازي»للواقدي (ج ٢ ص ٥٧١ إلى ٦٢٤) و «الدر المنثور» للسيوطي (ج ٦ ص ٦٧ إلى ٨١) وغيرهاوالحديث منظم من خلال هذه المصادر.[1]

---

(١) من أجل العلم بنوع الفتح المذكور ينبغي العناية بكلمة «**مبين**» والتوجه لها «**فتحاً مبيناً**» الذي يفيد وقوع الفتح المبين الواضح والذي أدرك كنهه جميعهم؛ لأنَّ الفتح الباطني لا يشهد أحد.

حديث الحديبية وموضوع "بيعة الشجرة"

في السنة السادسة للهجرة رأى رسول الله رؤيا أنّه دخل المسجد الحرام ومعه جموع المسلمين وطاف في البيت طواف الآمن المطمئن ومعه أصحابه وبعد ذلك حلق رأسه وحل من إحرامه فقص النبي رؤياه على أصحابه ثم عقد العزم على أداء العمرة في ذي العقدة من نفس السنة وقصد من المدينة ومعه البدن قاصداً مكة.

[وفي روايات الشيعة أن الأمر نزل عليه بواسطة الرؤيا وبعد أن قصّ رؤياه على أصحابه أمرهم بالاستعداد لأداء العمرة والخروج معه إلى بيت الله أجل وهذا القول صحيح جداً لأن الأنبياء مبرأون من الوسواس الشيطانية فلابدَّ من أنْ تكون لرؤياهم جنبة وحي].

وذكر الرواة أنَّ القوم الذين ساروا بركاب رسول الله(ص) يتراوحون بين السبعمائة إنسان والألف والستمائة وعدد الهدي يقرب من سبعين بدنة (يطلق على البعير أو البقر السمين لفظ «بدنة») ولما بلغ النبي وأصحابه «ذو الحليفة»(وهو موضع يبعد عن المدينة بستة أميال) أمرهم بالإحرام فيه وأن يشعروا البدن ويرفعوا أصواتهم بالتلبية فساروا نحو مكة يهتفون بالتلبية ثم قال(ص) لبديل وأصحابه: لو سألتني قريش الصلح لأجبتها إليه وعقدت معهم صلحاً إلى مدة مرتضاة بيننا فعاد بديل بن ورقاء إلى قريش ومعه أصحابه وأبلغوا قريشاً ما جاء رسول الله(ص) من أجله فوثب عروة بن مسعود وكان حاضراً وهو (عظيم الطائف ورئيس قبيلة ثقيف) لما سمع كلام بديل بن ورقاء واستقبل قريشاً بوجهه وآخرين ممن حضر معهم المشهد

فقال: أيّها الناس إنّ محمداً عرض عليكمأمراً مشرفاً فاقبلوا به وضعوا حدّاً للحرب ثم قال: أمهلوني حتى أختبر لكم أمره وأقف على الوضعمن كثب، وانتهي إلى ما ينفعكم فقبلت قريش عرضه وأرسلوه إلى النبي(ص) فلما جاء عروة إلىالنبي في الحديبية سأله عن سبب قدومه عليهم فأجابه النبي بما أجاب به بديل بن ورقاء وأصحابهوقال: جئت معظماً للبيت ومؤدياً للعمرة وسائقاً للهدي، فلما سمع عروة بن مسعود كلامه ورأىالهدي بعينه عاد إلى قريش وصدق ما قاله لهم بديل بن ورقاء قبلاً ونقل لهم الهدف من قدوم رسولالله(ص) وقال لقريش فيما قال: «قروا رأيكم وإياكم واجتماع الرأي قد عرض عليكم خطةًفمادّوه، يا قوم اقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألّا تنصروا عليه رجل أتى هذا البيتمعظماً له معه الهدي ينحره وينصرف».

فلما سمعت قريش بمسير رسول الله إليهم اجتمعوا في ناديهم وأقسموا باللات والعزّى وهماصنمان عزيزان عليهم أن لا يدخلنها عليهم محمد وعليهم أن يحولوا بينه وبين الدخول ثم جمعواعسكرهم وسرّحوا خالد بن الوليد في مقدّمتهم ومعه مئتا فارس ليحولوا بينهم وبين ورودهم مكة.

وكان لكلام عروة بن مسعود وقع في قريش أعظم من قول بديل بن ورقاء في إطفاء نائرةالحرب بين رسول الله وقريش، وعند ذلك أوفد النبي عثمان بن عفان وهو من بني أمية وكانت له معأكابر المشركين من قريش أواصر رحم وصلات قرب إلى مكة لإقرار

الصلح بصفة رسمية ولكي يبلغ قريش وحلفاءها أن النبي لا يريد حرباً وإنما جاء معتمراً وحسب ثم لينقل البشرى إلى المسلمين المستضعفين بالفتح القادم، ولما دخل عثمان مكة لجأ إلى دار أبان بن سعيد بن العاص وهو من رجال قريش المشار إليهم وفرع من الشجرة الأموية، فأجاره ونزل من على ظهر فرسه وحمل عثمان عليها وأقبلا يريدان مكة فبلغ عثمان كتاب النبي إلى قريش كافة وأخبر المؤمنين المقيمين في مكة بخبر الفتح سراً وبشّرهم بالنصر العاجل فأرسلت قريش «حليس بن علقمة» وهو رئيس الأحابيش والمقدّم فيهم (يقال للجماعة من أعراب البادية والقبائل المختلفة الذين اجتمعوا للحرب أحابيش) كما أرسلت عروة بن مسعود ليقف على واقع الحال من كثب ويتعرف إلى هدفه فلما وصل حليس إلى الحديبيّة ورآه النبي قال: هذا من القوم الذين يحلون بيت الله ولا يألوا جهداً في تعظيمه، فأجمع الهدي بين يديه فلمّا وقعت عين حليس على الهدي وقد أشعروا عليه تحيّر في أمره وقد انصبّت عليه من جانب الوادي وقد ضمرت من طول وقوفها في البادية ورأى المسلمين يلبّون وقد استقبلوه محرمين، فآلمه ذلك ولم يلق النبي حياءاً منه ورجع عوده على بدئه وكلم قريشاً وهو غاضب محتد فقال: «يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظماً له والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد ...» (١).

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٧٦.

فوقع قول الحليس منهم موقعاً بحيث أدّى إلى تداعي قواهم العسكرية فصاحوا به بأجمعهموقد ظهر عليهم الضعف والخذلان: «كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

وفي وضع كهذا الوضع لا يتسع لقريش الظرف إلّا بطريق واحد وهو طريق الصلح معالنبي(ص)؟! لأنّه من الواضح أن حرمة أهل الحرم (سكان مكة المعظمة لا سيّما قريش منهم) عندعرب الجزيرة وغيرهم من الأمم كحرمة بيت الله الحرام ثابتة، ويراهم الناس سدنة لبيت الله ولهمالمناصب المعهودة من «الحجابة» و «الرفادة» و «السقاية» وهي من مفاخرهم من ثم يراهم العربـبناءً على السنن والتقاليد المرعية من أولى وظائفهم ليس عدم منع النبي وأصحابه فحسب بلْ يلزمهم القيام باستقبالهم استقبالاً رائعاً جديراً بالمحل وأهله وبالحالّ أيضاً لأنهم جاءوا لزيارةالبيت وتعظيمه، وبناءً على هذا فإن العرب إذا ما رأوا قريشاً ساروا على خلاف النهج الموكل إليهمن الحجابة والرفادة والسقاية واقتضاهم الظرف معاكسة شؤونهم الأخلاقية ومنعوا محمداًوأصحابه بدل استقبالهم بل استقبلوهم بالصفاح اللامعة في وجوههم فإن ذلك يكون بالضرورة مدعاة للوم العرب لهم بل ربما نهدت القبائل إلى النبي تعينه على قريش وتنصره وأصحابه.

وقد رأينا ما فعله بديل بن ورقاء رئيس قبيلة خزاعة و «عروة بن مسعود الثقفي» رئيس قبيلةثقيف من حيث قبولهم الصلح ورضاهم به ووقوفهم إلى جانبه وكذلك فعل الحليس بن علقمة رئيسحبيش الأحابيش ومقدمهم فإنه آذن قريشاً بالحرب، وهددهم بالانفصال عنهم

هو ومن معه وهذاهو المقصود من النصر والظفر الذي أصابه النبي وأصحابه من العدو وأشارت إليه الآية الشريفة: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرا﴾ (١).

وينبغي أن يكون الظفر هو هذا لا الذي يحدث على أثر القتال بين طرفي الحرب وفيه تتم الغلبة للمسلمين على الكفار.

وعلى أية حال، فإنّ الأوضاع والأحوال بلغت حداً أن حملت قريشاً وهي مكرهة على إرسال «سهيل بن عمرو» و «حويطب بن عبد العزّى» وهما رجلان من أصحاب الرأي الصائب بينهم، للمذاكرة وعقد وثيقة الصلح عند النبي(ص) غير أنّهم اشترطوا عليهما بناءً على شعارات الجاهلية ونخواتها أن يكون ضمن وثيقة الصلح هو عودة النبي من حيث أتى هذا العام إلى المدينة ويأتي معتمراً في عام قادم في الزمان نفسه مع أصحابه، لئلا تظن العرب بقريش الذل والضعف وأن مجيء سهيل وحويطب ومن كان معهما لعقد وثيقة الصلح دليل تام على الهزيمة وعرف أصحاب النبي كلهم هذا منهم.

من جهة أخرى أعلن النبي قبل بلوغه الحديبية إلى أصحابه بصفة رسمية فقال: أقسم بالله لاتسألني قريش خلة فيها توقير بيت الله إلا قبلتها. والآن بلغت الحان أوان عقد وثيقة الصلح وكانت الشروط الظالمة والحمقى أحياناً تكاد توصد باب الصلح واحدة اثر الأخرى،

(١) سورة الفتح: الآية ٢٤.

وكان رسول الله(ص)قد عاهد الله على قبول شروط قريش واقتراحاتها التي يحفظ للبيت حرمته إلا أن أكثر الأصحاب الذين لم ينفذ الدين إلى أعماق نفوسهم ولم يكونوا على طرف الحب والإخلاص لرسول الله(ص)وقفوا في وجه قريش وردّوا شروطهم بحميّتهم الجاهلية المعهودة وأخذوا يعيقون مسيرة الصلح بأسباب مختلفة، وكان حامل لواء هذه الفئة عمر بن الخطاب نفسه.

أخذ «سهيل بن عمرو» يملي شروطه على رسول الله واحداً بعد الآخر ولكن أترى أكثر الأصحاب استقبلوا هذه الشروط بالرضا والصبر؟ كلا.

قال سهيل: إن واحداً من شروطنا رجوعك هذا العام من حيث أتيت وقدومك عاماً مقبلاً في الوقت نفسه إلى مكة للعمرة وحدها، فقبل رسول الله الشرط ولكنّ الأكثرية المعهودة غضبت غضباً شديداً وراحوا يشيّعون بين الناس قائلين: أين ما وعدنا به النبي ألم يخبرنا بأنّه سندخل المسجد الحرام عاجلاً ونطوف بالبيت.

وقال سهيل: ومن شروط الصلح أنَّ من أسلم منّا بدون إذن وليه ولجأ إليك فإنّه يعاد إلينا.

فقبل النبي ذلك ولكن الأكثرية «سبحان الله» سخرت من ذلك ولامت النبي على قبوله لوماً شديداً وقالوا: وهل يصح لنا ذلك أن نعيد من أسلم إلينا إلى الكفار ليفتنوه عن دينه؟!

وخلاصة الحديث أنَّ رسول الله(ص) قبل شروط قريش كلها وتقرر كتابة الوثيقة إذ وثب عمر بن الخطاب مرة واحدة من مكانه

وخاطب النبي وهو حرد غاضب: «يا رسول الله ألسنابالمسلمين؟ قال رسول الله(ص): بلى، قال: فعلام نعطي الدنيّة في ديننا؟! فقال رسول الله(ص): أناعبدالله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيّعني ولكن هل أخمد قول النبي نار غضب عمر بن‌الخطاب؟! إنّه قال: لو وجدت أنصاراً قلبهم قلبي وروحهم روحي.

وفي عبارة أخرى: لو قام معي مائة رجل يرون رأيي لما تركت الصلح يتم على الوجه الذي‌تم به.

وأخيراً أمر النبيّ علياً بكتابة وثيقة الصلح إلّا أنه عارضتهم أثناء الكتابة شؤون مثبطة منها أن‌سهيل بن عمر وأصحابه سعوا سعياً حثيثاً أن لا يدون في الوثيقة لفظ فيه وهن لقريش أو رفعةللإسلام على سننها الجاهلية، ومنها أن تلك الأكثرية ممن يطلق عليهم الأصحاب راحوا يلتمسون‌السقطات، وألبسوا حميّتهم الجاهلية لباس الدين وكان الظرف أشدّ سخونة من المظروف ومن قبل‌كانوا يعارضون النبي ولم يسلموا له.

والآن نضع بين أيديكم المواقف الشديدة التي عارضت كتابة الوثيقة، كان النبي(ص) يملي‌كتابة الوثيقة وعلي(ع) يكتبها.

رسول الله: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم».

- سهيل بن عمرو: كلا بل اكتب كما كنا نكتب في مطالع الكتب: «باسمك اللهم».

- الأصحاب الجاهلون: يا علي إياك أن تكتب سوى (بسم الله الرحمن الرحيم).

- رسول الله: اكتب «باسمك اللهم».

ثم واصل النبي(ص) يقول اكتب: «هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله».

- سهيل: لو كنت أعلم أنك رسول الله لما قاتلتك ولما منعتك من دخول مكة. فاكتب: اسمكواسم أبيك «محمد بن عبد الله».

فأثار الجاهلون من الأصحاب جلبة شديدة اضطر النبي لإسكاتهم بنفسه فقام أسيد بن حضيروأخذ بيد علي وقال: إياك أن تكتب غير «محمد رسول الله» علام نعطي هذه الدنيّة في ديننا.

- رسول الله: اكتب يا علي فأنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فكتب علي(ع):

«باسمك اللهم هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضعالحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا أسلال ولا أغلال وأن بينناعيبة مكفوفة وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليّه ردّه إليه وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمدلم يرده، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابل في أصحابه فيقيم ثلاثاً لايدخل علينا بسلاح إلّا سلاح المسافر السيوف في القرب» (١) فأملى النبي كتاب

(١) يمكن للباحث الرجوع إلى الكتب التالية: نيل الأوطار ج٨، ص١٨٨؛ المجازات

الصلح على هذهِ الصفة وكتبه الإمام علي بن أبي طالب وجد جديد مريب في الصلح ولم يكتب كتابه بعد ذلك أن أباجندل بن سهيل بن عمرو كان مسلماً من قبل فحبس بأمر أبيه في مكة وقيد فاستطاع أن يتخلص من الحبس وأقبل بقيوده يرسف بها إلى الحديبية ورمى بنفسه في أحضان المسلمين ليستنقذوه، ويأوي إليهم، ولما رآه أبوه رفع عقيرته صائحاً يا محمد هذا أول الشروط المكتوبة في الوثيقة فعليك ردّه فقال النبي: نحن إلى الآن لم نمض الوثيقة ولم يتقرر مفادها فقال سهيل بن عمرو: أقسم بالله لئن لم تردّه لا أمضيت صلحاً معك أبداً ولا قبلت وثيقتك قال هذا ونهض إلى أبي جندل وأخذه من تلابيبه وانهال عليه ضرباً وأوسعه قذعاً، فاستقبل النبي أبا جندل بوجهه الشريف وهو يقول: يا أبا جندل اصبر، واحتسب عند الله عذابك نحن عقدنا مع هؤلاء القوم ميثاقاً ولا نحب أن يكون نقضه من جهتنا سيحدث الله لك ولمن معك فرجاً عاجلاً، فكان هذا المشهد وسيلة بيد الأكثرية الغاضبة، فزادت بذلك نارهم اشتعالاً وزاد حقدهم على رسول الله(ص) .

يروي لنا عمر بن الخطاب ماضيه في هذه الحادثة فيقول:

والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي(ص) فقلت: ألست نبيّ الله؟ قال: بلى فقلنا:ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى قلت: فلم نعطي الدنيّة في ديننا إذن؟! قال: إني رسول الله ولست

النبويّة ص١٢٨، مناقب ابن شهرآشوب، ج١، ص١٧٥؛ بحار الأنوار، ج٢٠ ص٣٣٤.

أعصيه وهو ناصري قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟! قال:بلى أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟! قلت: لا قال: فإنك آتيه ومطوف به.

على أية حال، ومع ما اعترض الصلح من المحيقات أخيراً أمضيت وثيقة الصلح وأثبت محتواها والآن على النبي أن يعود إلى المدينة من المكان الذي انتهت به الرحلة، ومعه أصحابه،فنادى النبي أصحابه: قوموا انحروا ثم احلقوا، قال ذلك ثلاثاً ولكن الأكثرية التي كادت تعم الكل لم تعتن بأمر رسول الله(ص) ولم تغادر مكانها فدخل النبي يومئذٍ على أمّ سلمة زوجه وكانت معه في سفره حزيناً مغموماً وقال لها: إن هؤلاء عصوني فقالت أم سلمة÷: يا رسول الله تقدم أنت وانحرواحلق وحل إحرامك فإنهم سوف يجبرون على طاعتك والاقتداء بك، فعمل النبي بما أشارت عليه أم سلمة فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً».

هذا ما كان من أمر المسلمين مع النبي، والأكثرية من أصحابه ومبلغ طاعتهم له في هذا السفر.

ومن هذا البيان والتوضيح ندرك جيداً على من من هؤلاء نزلت السكينة التي نزلت في الحديبية وتضمنتها الآية التي سنتلوها لاحقاً، وستضعنا قرائن الحال التي صاحبت نزول الآية على الواقع فنعرف من منهم استحقها ومن منهم لا يستحق صدقها عليه، وأية فئة من هؤلاء الأصحاب في هذه المشادة الساخنة ملازمة لكلمة التقوى وكان إلى جانب النبي ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ**

الجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (١) .

لا ريب في عزل عمر عنهم قطعاً وإلا لما وقع في الشك من نبوة النبي وكونه على حق فيما قال أو فعل، ولم ينكر أشدّ الإنكار ما قام به رسول الله(ص) من أمر الحديبيّة، وسنرى بعد ذلك على أي شخص من أصحاب عمر (فريق المنافقين المحترفين) نزلت السكينة الإلهية وأنه لازم كلمة التقوى.

هذا وقد حلوا من إحرامهم للعمرة طوعاً وكرهاً واستقبلوا المدينة ولكن هل عفت ألسنتهم عن تناول رسول الله(ص) بالانتقاد والتجريح، كلا.

قال عروة: لما عاد رسول الله(ص) من الحديبية قال رجل من أصحابه: والله ما هذا بفتح، إنَّ القوم لم يدعونا نطوف بالبيت وحالوا بيننا وبين نحائرنا وأقام النبي في الحديبية وردّ عليهم من جاءنا لاجئاً من إخواننا المسلمين، فعلم رسول الله بما قاله هذا النفر من أصحابه فقال: ما حديث بلغني عنكم يهوّن الفتح والله إنه لأكبر فتح حيث بلغت المسرة في المشركين حدّاً حين قفلتم من بلادهم راجعين وطلبوا منكم الصلح ورضوا بعودتكم إلى بلدهم عاماً قابلاً والآن عدتم ظافرين بتوفيق من الله فهل نسيتم يوم أحد ويوم الأحزاب حين كنتم خائفين منهم فزعين، ألا تحتسبون لنعمة الله هذه الحساب، فقال المسلمون: صدق الله ورسوله

(١) سورة الفتح: الآية ٢٦.

إنَّ هذا الفتح لأكبر فتح عرفناه، يا رسول‌الله إننا لا نرى ما رأيت ولم نعلم ما علمت، إنك أعلم بالله وبأمر هذا الدين ثم نزلت سورة الفتح.

قال عمر بن الخطاب: سألت النبي في إحدى سفراته عن مسألة ثلاث مرات فما أجابني [ستدلك الرواية التالية على أنّ هذه السفرة هي سفر الحديبيّة وسؤال عمر يختص بأمر الفتح في‌الحديبية] فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا عمر تسأل رسول الله فلا يرد عليك وسقت بعيري حتّى تقدمت الناس وخشيت أن ينزل عليه قرآن يفضحني فبينما أنا كذلك وإذا برجل يناديني أجب‌رسول الله فظننت أن قرآناً نزل بي من الله تعالى فقال رسول الله: نزلت علي سورة ليلاً هي عندي خيرمن الدنيا وما فيها ثم ابتدأ يتلو علينا سورة الفتح﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ وهذا أيضاً جانب من‌تسليمهم لأمر النبي وطاعتهم له بعد عودتهم من الحديبيّة.

وما تقدم بين أيدينا هو متن «حديث الحديبية» وقد جمعناه من الكتب التالية: «السيرة النبوية»، «مغازي الواقدي»، «الدر المنثور» وغيرها من المصادر ولم يبق منها إلا حديث «بيعة الشجرة» وينبغي أن نحدد الوقت الذي تمت به البيعة من هذا السفر، وعلى أيّ أساس أقيمت‌هذه البيعة.

ونقول في الجواب على السؤال أعلاه أن الروايات العامية اتفقت على أنها تمت قبل إبرام‌الصلح وكتابة الوثيقة بين الطرفين، جعلت بعض الروايات علة البيعة هي وصول الخبر عن مهلك‌عثمان بن عفان رسول النبي إلى قريش، لذا أقامهم النبي وأخذ البيعة منهم للطلب بدم

عثمان وغيرممن الأصحاب من قريش في بعض الروايات أن البيعة كانت يومئذٍ على الموت والاستقامة فيالحرب إلى حد التضحية بالنفس إلا أن بعضها الآخر جعل سبب البيعة هو الثبات في ميدان القتالوعدم الفرار من الزحف.

هذا هو محتوى الروايات العامية ولكن روايات الشيعة نصّت على خلاف ذلك فإنّها ذكرتأن وقت البيعة كان بعدَ كتابة الوثيقة والعودة من الحديبيّة إلى المدينة وكانت علة البيعة هو خلافبعض الأصحاب الجهال وجدالهم مع رسول الله بشأن الصلح ونقد الطريقة التي مشى عليها النبي فيالصلح حتى بعد رجوعه من الحديبية وأقيمت البيعة على هذا السبيل وهو سبيل الطاعة لرسول اللهوالتسليم لأمره وأن لا تكون لهم الخيرة مع قضائه، وأن لا ينكروا أمراً مما لا يعلمونه، وللنبي عليهمالطاعة المطلقة، والخضوع التام.

والآن نقول في مسألة نقد هذا الخلاف وبحث حقيقته:

أولاً: أما رد البيعة تحت الشجرة إلى أسر عثمان وأنها عقدت على أثر وصول خبر مصرعهإلى النبي فإنّه مطلب غير مقبول وقابل للترديد، لأنَّ هذه الروايات كانت قد ذكرت أن اختيار عثمانبن عفان لإيفاده إلى قريش معلل بكثرة أقرباء عثمان في قريش دون سائر الأصحاب وأنه موضعاحترام القرشيين وتكريمهم ولذا نجد عمر بن الخطاب طبقاً لما روته العامة اعتذر للنبي حين أرادتوجيهه إلى قريش قبل عثمان بقلة الأهل والحماة، وفقدان الظهير الأيد في مكة ومن أجل هذا أشارعلى النبي بعثمان بن عفان وقال:

«ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة مني وأكثر عشيرة وأمنع عثمان بن عفان».

وقد مر بكم تواً أنّ أبان بن سعيد بن العاص كيف ترجل عن فرسه حين شاهد عثمان وقادهعلى ظهرها إلى مكة وهو يعد من بني عم عثمان، ليبلغ رسالة النبي بحرّية تامة إلى زعماء قريش.

هذه كلها تدلُّ على أن احتمال قتل عثمان احتمال ضعيف جداً، وما كان رسول الله ليعبىءأصحابه لقتال قريش بسبب احتمال ضعيف قد يكون احتمالاً طائشاً ويعرض جيشه وقوته لمنازعةقريش.

ثانياً: كما لاح واتضح لنا من متن الحكاية أن سر نصر رسول الله وغلبته على قريش إنما كانفي إفهام العدو والصديق بأنّه ما جاء للحرب وإنما قصد العمرة وتأييد بيت الله واحترامه ولذلك لميصحب معه إلا عدداً قليلاً من رجاله في الرواية العامية أنهم بين ٧٠٠ إلى ١٦٠٠ ولم يحمل معهسلاحاً إلا ما يحمله المسافر من السيوف في أجفانها.

أجل كلما ألح عليه سعد بن عبادة طبقاً لما روته العامة من حمل سلاح الحرب معه ليكونواعلى استعداد لمناوشة قريش إذا غدرت بهم ولكنّ النبي يجيبه بقوله: «لست أحب أن أحمل السلاحإنما خرجت معتمراً» وعندما نعلم أن قصد النبي لم يكن الحرب بل كان تأدية العمرة فحسب ولذلكلم يستعد هو وأصحابه للحرب. إذاً فلنفرض أن عثمان قتل يقيناً فكيف يريد النبي أن يأخذ بثأرعثمان قبل أن يعد

للحرب عدتها ويتأهب لها فيأخذ من أصحابه البيعة للحرب وليس معه من آلتهاشيء اللهم إلا السكاكين والسيوف في القرب وكيف يواجه عدد قريش وعدتها بهذه الفئة القليلة معأن رحى الحرب لو دارت فإنما تدور في مكة حيث موطن قريش ومجال قوتها ومحل منعتها، وفيهاالعدة والعدد والتأهب للقتال على أيّ وجه كان.

ثالثاً: لو كانت بيعة الشجرة قد تمت في الحديبيّة وقبل إمضاء الوثيقة وبايع أصحاب النبينبيّهم على أساس الطلب بدم عثمان وغيره، حتى تفنى أرواحهم فلماذا انطلقت ألسن هؤلاءالأصحاب المضحّون بعد كتابة الوثيقة بالشكوى والنقد بل والتجريح أيضاً للنبي بما جاء في كثير منالروايات ولم يلقوا بالاً لأوامره بالنحر والحلق وحل الإحرام وما زالوا بعد العودة من الحديبيةيلهجون بإيذاء رسول الله وإنكار ما فعله.

وهل يمكن لقوم يبايعون رجلاً على الموت ثم لا يطيعون أمره على شيء بسيط جداً ويهبونلخلافه ويجأرون بالشكوى والنقد.

رابعاً: عندما نرى في روايات الفريقين التأكيد على أن نزول سورة الفتح كان بعد العودة منالحديبية نجزم بأن «بيعة الشجرة» كانت في ذلك الأوان أيضاً بحيث نزلت الآيات المتصلةبالموضوع في حينها، فلا معنى حينئذٍ لكون وقوع بيعة الشجرة قبل إبرام الصلح وحدوث لوازمهومقارناته ولكن نزول الآيات المختصة به يتم بعد ذلك بزمان وفي العودة إلى المدينة بالذات، وإلا فإنّ هذا تسلسل غير واقعي ولا هو طبيعي.

خامساً:إنَّ من يلقى نظرة فاحصة على الآيات الشريفة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَاللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْيُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَكَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً *وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّأَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْأَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** ﴾ ويضع سياقها في ميزان العقل يدرك جيّداً أن مذهبالآيات يدل على أن بيعة الشجرة كانت بعد رجوعهم من الحديبيّة، وهذا القول أقرب إلى حقيقةالمعنى الطبيعي للآية، لأننا نرى أن لغة الوحي في الآيات المزبورة جعلت نزول السكينة علىالمؤمنين وكذلك فتح خيبر والغنائم العائدة للمسلمين فيها بمنزلة الجزاء على رضاهم بالصلحوتحملهم المشاق من أجله ومن الطبيعي أن يكون ذلك قريباً من فتح خيبر وهو زمن الرجوع منالحديبية والمقام في المدينة وليس هذا الوعد قبل صلح الحديبية وفي زمن النزاع مع كفار قريش.

نعم الذي يناسب ظرف صلح الحديبيّة وأوان نزاع النبي(ص) مع كفار قريش هو الآية التالية: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَىالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾فإنَّ في هذهالآية تخبرنا لغة الوحي عن نزول السكينة على رسول الله والمؤمنين به التابعين له الذين لزموا كلمةالتقوى مع ما كان يدور حولهم من النزاع اللفظي بين القوم

لنزول السكينة على قلوبهم، ولم يفزعوا إلى الحمية الجاهلية كما فعل كفار قريش وكانوا يداً واحدة وقلباً واحداً مع رسول الله عند قبول الصلح.

وعلى أية حال فإن تقويمنا للكلام أعلاه ونقدنا لمجرى الأحداث يدلنا دلالة قاطعة بأن بيعة الشجرة تمت بعد العودة من الحديبيّة وكانت من أجل حمل المسلمين على طاعة رسول الله والالتزام بأوامره وقبول ما يأتيهم به وأن لا يخالفوا له أمراً كما فعلوا عند كتابة وثيقة الصلح واعتراضهم على بعض فصولها كما تلكأوا عن قبول أمر النبي(ص) في النحر والحلق وحل الإحرام وتناولوا فعل النبي بألسنة شداد حداد، ثم إنَّ المسلمين بعد مضي زمن على وقوع البيعة تحت الشجرة كانوا يقدسونها ويرون لها حرمة ليست لغيرها من المواضع والأشجار ومن كان من المسلمين يمرّ بتلك القفار يقيم تحت الشجرة يتمثل موقف النبي هنا فيعبد الله ويتضرع إليه حتّى آل الحكم إلى عمر بن الخطاب فأمر بقطع الشجرة فمحى تلك الآثار وذلك الموضع العبادي الممتاز إلى الأبد.

وهذا هو موضوع بيعة الشجرة التي حدثت في سفر الحديبية والآن نعمد في الفصل القادم إلى البحث القرآني للموضوع السابق لكي نرى هل تمّت البيعة بالفائدة العائدة على «المنافقين المحترفين» الذين كانوا متواجدين في تلكم المسيرة أو أنها كسائر البحوث السابقة التي وردت في الكتاب لم تكن إلّا لضررهم وخسرانهم.

بيعة الشجرة وعلاقتها بالمنافقين المحترفين

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (١).

وهنا ينبغي التوجه إلى النكات أدناه من أجل إدراك المفاد الواقعي للآيات للوصول إلىاستنتاج الموضوع المبتغى.

١ ـ من الأصول الثابتة ان البيعة لم تكن دستوراً شرعياً شأنها شأن الصلاة والصوم والزكاة وغيرهاوليست أمراً مولوياً بلْ هي تقليد اجتماعي، وسنة منوطة بتقاليد القبيلة العربية، تتخذ شاهداً علىالوفاء لرؤسائها ويتحتم الوفاء بها بناءً على الآداب المرعية في القبيلة (كما تمارس اليوم بشكل أكثرتحضراً وأقرب إلى العقلانيّة ويطلق عليها أحياناً رأي الاعتماد وميثاقاً لقبول حكومة فرد أو أفراد،ونحواً من هذا...) واتخذ الإسلام هذا السلوك طلباً لجعل الأتباع مطيعين لأمر الله ورسوله إذْ بغيرهذه السنة لا حمله على هذا الخلق المطلوب فامضى البيعة على هذا النحو وأخذ من المبايع تعهداًشبه قومي على الوفاء بها نظير بيعة الشجرة في عام صلح الحديبيّة وبيعة النساء المسلمات حديثاً فيعام فتح مكة وهذان المصداقان يمكن اعتبارهما ضمن مصاديق البيعة.

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٨.

وبعبارة أخرى:إنّ القرآن المجيد وهو يضع للتكاليف الإسلامية والوظائف العبادية حدوداًويشرح كيفياتها للناس لم يضع حدوداً لتكليف اسمه البيعة للنبي أو للإمام مفترض الطاعة أو يطبعهابطابع الوجوب.

أجل إنه ليرى طاعة النبي والإمام واجبة إنّ بالبيعة أو بغيرها وليس بين أيدينا حكم شرعيعنوانه البيعة ولا تكليف باسمها، فإنّ الطاعة واجبة على كل مسلم سواء جرت منه بيعة لهما أو لمتجر، فلا يقال إنّ بالبيعة تجب الطاعة وبدونها لا تجب فليس هذا من الدين في شيء بناءً على هذا إنّ بيعة النساء اللواتي أسلمن حديثاً ودلّت عليها الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُيُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍيَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌرَحِيمٌ**﴾ (١) ومثلها بيعة الشجرة التي دلّت عليها الآية الشريفة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْيُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾ (٢) (هذانالموردان لا غير جرى الحديث فيهما عن البيعة في القرآن الكريم).

وكلا الموردين لا يمكن إخضاع الجهة المقابلة وجلب طاعتها إلا بهذه السنة القبلية القومية(لأنه بعد فتح مكة كان النساء حديثات

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٢.
(٢) سورة الفتح: الآية ١٨.

عهد بالإسلام ولم يكن الإيمان قد نفذ إلى قلوبهنّ بلْ لا يزال بعضهنّ كهند زوج أبي سفيان مقيمة على عدائها الشديد لرسول الله(ص) وإنما ألجأها إلى الإسلام الضرورة القاهرة، ومن الضروري أنّ هذه الفئة من الناس ومن هم على شاكلتها لا يمكن ترويضها على رعاية التكاليف المذكورة في الآية ١٢ من سورة الممتحنة إلا بسنتهم القومية والقبليّة أو ميثاق كهذا الميثاق، ورأينا في صلح الحديبية كيف عارض الأكثرية الجاهلة الصلح الذي سماه القرآن «فتح مبين» وخالفوه وعملوا جهدهم على إخفاء الخطة وغلطوا النبي علناً في تقديم الضحايا والتقصير وحل الإحرام، ولم يلقوا بالاً إلى أوامره، وظلوا على عنادهم بعد العودة من الحديبية أيضاً وما زالت ألسنتهم تردد النقد للصلح ونتائجه.

ومن هذا الموقف يتضح لنا أن هؤلاء لا يمكن امتصاص جهلهم واستيعابهم داخل الجماعة المؤمنة إلا بحملهم على هذا التقليد القومي والقبلي الذي مرده إليهم وهو منتزع من صميم حياتهم كما لا يمكن إخضاعهم لطاعة رسول الله في مستقبل الدعوة وحملهم على التعهد والوفاء لرسول الله(ص) وإطاعة أمره وعدم عصيانه والتمرد عليه.

ومجمل القول إنه بعد الأوامر التي صدرت في الآيات الشريفة وأمثالها من الآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾(١)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.

عَنْهُوَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (١)، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُمِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَوَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٣) وأمثالها من الآيات.

فالضرورة حاكمة بأنّ مسلماً ليس له حق التخلف عن أمر الله ورسوله والإمام مفترض الطاعة.

وليس لوجوب الطاعة وحرمة التخلف ارتباط بالبيعة بحال من الأحوال، وليس الأمر يدورمدار البيعة فيمن بايع الإمام وجبت طاعته عليه ومن لم يبايعه لم تجب ولا يوجد في الدين حكميناط بالمكلف كهذا الحكم.

وبناءً على هذا فإن البيعة لا تعبّر عن فضيلة خاصة يتحلى بها المبايع، بل الفضيلة تكمن فيالعمل بمقتضى العهد الذي قامت البيعة من أجله، وإلا فلا تدلّ البيعة الجافة على معنى زائد علىالإسلام، كما تدل على هذا دلالة قاطعة الآية الشريفة التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَاللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِأَجْراً عَظِيماً﴾ (٤). وتثبت هذه الآية أن أية فضيلة تنسب للمبايع فإنها ترجع إلى العمل بما عاهد

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٠.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.
(٤) سورة الفتح: الآية ١٠.

اللهعليه وقامت البيعة من أجلها ولا يعرف الوحي فضيلة تختص بالبيعة الفارغة الجافة.

٢ ـ وأما ما يعود لبيعة الشجرة وهو موضوعنا الذي نحرره الآن فإننا نقول: إنّ الآية الشريفةالتالية: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَالسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾ تدلُّ دلالة بيّنة على أنَّ البيعة لا شأن لها يذكر إلّا بناءً علىإجراء شرطها الملحوظ في كل بيعة تقام (والتي تدل عليه الآية ١٠ من سورة الفتح وتعد مقياسفضل البيعة في حدود إجراء هذا الشرط وحده وفي حال كسر الميثاق ونكث البيعة لا تبقى للمبايعحينئذ فضيلة تذكر بل على العكس من ذلك يهبط إلى أحط دركة وأهبط مستوى من الذل والمهانة،وفي بيعة الشجرة أضيف شرط آخر أيضاً وهو: أنَّ رضا الله على أصحاب البيعة منوط بوجود «الإيمان الواقعي في نفوسهم» لقد رضي الله عن المؤمنين ... إلّا به!

والدليل على ذلك من أن رضا الله خاص بأصحاب بيعة الشجرة إذا ملكوا الإيمان الواقعي هو نزول السكينة الوارد في الآية الملاحظة عليهم وهي في الآية من لوازم رضا الله تعالى: ﴿ **هُوَالَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِوَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ (١) ففي هذه الآية تصريح ليس فيه غموض أن نزول السكينة يختصبالمؤمنين الواقعيين فحسب.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٤.

وبعبارة أخرى: نفهم من الجملة «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» الجزء الوارد في الآية الشريفة: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ**﴾أنَّ السكينة الإلهية تنزل على القلب المتزيّن بزينة الإيمان الواقعي ليزداد بنزولها إيماناً مع إيمانه.

«ولما نزلت الآية الشريفة المختصة ببيعة الشجرة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْيُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾ ظهر منسياقها أن المؤمنين المذكورين في الآية هم ذوو الإيمان الواقعي وقد رضي الله عنهم وأنزل السكينةعليهم.

فإذا كان الأمر كذلك فإن رضا الله عن أصحاب بيعة الشجرة عن كل واحد منهم مشروط بأنهأولاً أن يكون حدوثاً وبقاءً مزين بالإيمان الواقعي وثانياً أن يظل ثابتاً على الولاء والوفاء ولميخس بالعهد ولم يكسر الميثاق. وهذان هما الشرطان الأصليان في رضا الله بالنسبة لكل فرد فردمن أهل بيعة الشجرة»!

وبناءً على هذا يكون الاعتقاد بأهل بيعة الشجرة مع رسول الله أنهم جميعاً ناجون بالجملة (أعم من حصولهم على الإيمان الواقعي أو فقدانهم له وفوا بالعهد أو لم يفوا حافظوا علىميثاق البيعة أم كسروه).

أقول: يكون هذا من الاعتقاد الفج واعتقاد التعميم بدخول الجميع الجنة ورضا الله عنهمجميعاً لا أساس له من الواقعية ولا يمكن قبوله أبداً.

بل ينبغي أن يقاس صحة إيمان كل واحد منهم بالشرطين السالفين ليعلم من منهم نزلت عليهمالسكينة وإيمانه واقعي ومن منهم حرم منها؟!

ولا يخفى أن التحقيق السالف يلقي الضوء على المفاد الواقعي لآخر آية من سورة الفتح (التينزلت للتعريف بأصحاب رسول الله وأنصاره في مثلين من التوراة والإنجيل توضيح ما تقدم منالآية الشريفة: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداًيَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِوَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُالكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾**(١٢٩).

إنَّ هذه الآية الكريمة توضح لنا بما لا يقبل الجدل أنَّ الوصف المذكور لا يشمل منالأصحاب إلّا أنصار النبي الذين حازوا أولاً «الإيمان الواقعي» حدوثاً وبقاءاً. **وثانياً:** يخلصون الوداد والمحبة لرسول الله ويسلمون لأمره تسليماً ويطيعون أوامره وخططه وتصاميمه.

والّا يكون من الضروري دخول كل منافق ومرتد وفاسق في سلك الأصحاب، ويترجم لهمفي كتب التراجم أنه منهم وتقام للثناء عليه دولة ويمجد بصورة عمياء ولكن لا يمكن صدق تكريمالكتابين المقدسين التوراة والإنجيل عليه.

وبناءً على هذا يتحد مفاد الآيتين﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، والآية الشريفة﴿**مُحَمَّدٌرَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ ويكونان صادقين على أولئك الأصحاب الذين أحبوا رسول الله(ص)وهاموا به عشقاً وهياماً ورهنوا قلوبهم عنده.

وليس تلك الفئة التي ثيابها ملونة بل زاهية الألوان وقلبها معتم بظلام العصيان.

٢ ـ والآن آن الأوان لتمييز فريق «المنافقين المحترفين» المنضمين إلى أصحاب رسول الله(ص) والحاضرين في «بيعة الشجرة» المشاركين فيها، على ضوء التحقيق السالف، لنرى هل يشملهم رضا الله في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وهل أشادت بهم الآية: ﴿**مُحَمَّدٌرَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ أو أنهم حرموا من هذا ومن ذاك.

عندما نعلم أن الرضا والإشادة الواردين في الآيات إنما يشملان تلك الفئة من الأصحاب والأنصار الذين هم أولاً: مزينون بالإيمان الواقعي حدوثاً وبقاء **وثانياً:** التسليم المطلق مع المحبة بالنسبة للنبي والطاعة الصرفة لأوامره وإجراء خططه وتصاميمه دونما نقاش أو التواء ولا يدور في خلدهم آناً واحداً نقض الميثاق ومخالفة النبي، ومع عودة القارىء إلى البحوث التي يتضمنها هذا الكتاب عن هذا الفريق ولو مرة واحدة يدرك بشكل جيد أن لا أحد منهم مشمولاً للرضا والإشادة المذكورين في الآيتين الملاحظتين.

نعم مع القراءة المتأنية لفصول الكتاب المتقدمة واللاحقة سوف ندركأنَّ أحداً من هؤلاءالمنافقين المحترفين لم يكن متلبساً بالإيمان الواقعي ولا هو في مقام الرضا والتسليم للنبي معالمحبة وليس خائفاً من نقض العهدأو مخالفة النبي(ص)ولكي نعرف أبا بكر وهو الوجه الأوّل في فئة المنافقين المحترفين نرجع إلى البحث المتعلق به على أقل تقدير، ولمعرفة عمرالثاني في فئة المنافقين المحترفين نرجع إلى ما يتعلّق به من بحث ولنقرأ ذلك جيداً حتّى نعرفعدم شمول الآية: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وآية: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ لهما معالبرهان والدليل.

وإذا كان أحدنا يرغب في المعرفة التامّة لهذين الرجلين وغيرهما من أعضاء هذا الفريقفلنستعن بالفهرس العام لهذا الكتاب لنستخرج من خلاله الوضع السائدلكل واحد منهم.

وإلى هنا ينتهي البحث الأصلي المختص ب «آية الرضوان» ونسارع في الفصل القادم إلى ذكرنكتة لابدَّ من ذكرها.

تغيير موضع سورة الفتح بين سورة محمد وسورة الأحزاب

إنَّ الطرفة الجالبة للنظر في هذا الموضع والتي لا غنىً عن ذكرها هي أنه لما كانت سورة الفتحنازلة بظاهرها في مدح الأصحاب والإشادة بهم لاسيما الآية:﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ منهافإن الله تعالى أعلن رضاه عنهم، والآية:﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ أيضاً نزلت في تكريمهمبمثلين من كتاب «التوراة والإنجيل» فإن جامعي القرآن (وهم ذلك الحزب الحاكم) احتالوا علىسورة الفتح فوسّطوها بين «سورة محمد» و «سورة الحجرات» لكي يسقطوا الأثر التكذيبيللمنافقين المحترفين في السورتين المذكورتين، ويبطلوا عمله في أذهان المسلمين.

ولقد بحثنا مختصر تاريخ المنافقين فيما سبق من هذاالكتاب بحثاً دقيقاً في سورة محمد وكشفنا الأسرار الخافية من دسائس القوم وفعاليّاتهم المختلفةمع كفار قريش والآن نعمد إلى إشهار وجوه منهم في سورة الحجرات ثم نحاول تطبيق الآثار المتصلة بتلك الآيات الخاصة بالوجوه المذكورة ما وسعنا ذلك لمعرفتهامعرفة خالية من اللبس.

تحقيق الآيات الأولى من سورة الحجرات وبروز وجوه المنافقين المحترفين في هذا التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْتَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَامْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

لا شبهة في أن النداء من وراء الحجرات المذكور في الآية «٤» هو واحد من مصاديق «الجهربالقول» الوارد في الآية (٢) المحرّم.

كذلك لا شبهة في أن الآيات الخمس بناء على وحدة السياق الموجودة بينها تؤدي معنىًواحداً مبيناً لجانبين من موضوع واحد.

كذلك نجزم بأنّ الآيات المذكورة نزلت لتربية أصحاب النبي وجميع المسلمين وتدريبهمعلى الأدب القويم في معاشرتهم النبي وهذا مما لا ريب فيه أيضاً.

وبناءً على هذا عندما نشاهد خطاب الله للمسلمين وأصحاب النبي بإصدار دستور لهم علىالنحو التالي:

١ ـ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله.

٢ ـ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي.

٣ ـ لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض.

٤ ـ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون.

٥ ـلو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم.

من هذه الأوامر القرآنية نفهم جيداً أن جماعة ممن يسمون بالمسلمين وكانوا من أصحاب النبيوأنصاره بلغوا بسوء الأدب مع حضرته حدّاً أدّى إلى نزول الآيات المزبورة.

هذا العدد من الناس لم يكونوا وفد بني تميم إلى المدينة كما تدل بعض الروايات العامّية علىذلك لأن هؤلاء الوافدين طبقاً لما نصت عليه الروايات العامية(١) لم يكونوا مسلمين يومهاليستحقوا هذا التأنيب الذي تضمنته الآيات فإذا علمنا بأنَّ المنادين هم من المسلمين فعلينا أنْ نعرفهم لكن بعد الإلمام بالحقائق التالية:

أ ـ من المقطوع به أن هؤلاء المنادين لم يكونوا من أهل الشوق والمحبة للنبي لأن هؤلاء وردلهم ذكر على النحو التالي في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤، ص٢٠٥ إلى ٢١٢، إرجع إليها إنْ شئت.

الَّذِينَامتَحَنَ الله قُلوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فهم ممدوحون ومكرمون في الآية وأولئكعلى خلافهم تماماً.

ب ـ وهذا العدد الفاقد للأدب لا ينبغي أن يكون من المؤمنين البسطاء أو حديثي العهدبالإسلام لأنه من غير المعقول أن يعمد الله الرحمن الرحيم إلى قوم أسلموا حديثاً ولم يتمرسوابالدين تمرس معرفة ولا تذوقوه كمن تقدم إيمانه عليهم، فيأنبهم هذا التأنيب ويقرعهم هذا التقريعالحاد لأنهم في المراحل الأولى من مراحل الإيمان وما زالوا في بداية الطريق لم يدخلوا إلى أعماقالدين أضف إلى ذلك أن المؤمنين البسطاء لا يعني عندهم حبط الأعمال جزاءً عقلائياً.

ج ـ كذلك لا ينبغي أن يكون المنادون من وراء الحجرات من المنافقين العاديين لأنه منالمسلم به من حيث التاريخ أن نزول سورة الحجرات نزلت بعد نزول سورة المنافقين ولما سقط وزن المنافقين العاديين بنزول سورة المنافقين النازلة في المنافقين العاديين ـ وقد مرَّ البحث فيه ـ من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول، وغيره من المنافقين العاديينوقد صاروا في نظر الناس جماعة منبوذة يكرهونهم إلى درجة المقت الشديد فلا يتأتى لهم وهم فيهذه المكانة المنحطة استعمال مثل هذه الجرأة في حق النبي(ص) وظهر من هذا أن الآية ليست فيهمولا في غيرهم من المنافقين العاديين.

د ـ وإذا ما ظهر أن هؤلاء المنادين من وراء الحجرات ليسوا من المؤمنين المشتاقين إلى النبيالمتلهين بحبه وكذلك هم ليسوا من

المؤمنين البسطاء وحديثي العهد بالإسلام ولا من المنافقين العاديين فلم تبق إلا فئة واحدة انحصرت القضيّة فيها ألا وهم المنافقون المحترفون وينبغي أنْ يكونوا من علية القوم لا من أوساطهم ولا غمارهم لأنهم لم يخشوا المؤمنين ولا يحترمونهم ولاأدركهم الحياء من رسول الله(ص) في قبال ما فعلوه من سوء الأدب وما قالوه.

وفي الأقسام السالفة من الكتاب أوضحنا الامتيازات الخاصة بـ «المنافقين العاديين» وبيّنا خصوصيّاتهم النفسيّة وهنا كشفنا عن واقع هذا الفريق حيث لم يسلم إلا بدواعي الأغراض والأمراض التي يختلج بها خاطره كما أنه اختار الإسلام بدافع الخيالات الباطلة التي تراود عقله لهذا أظهر الغيرة على الإسلام وتظاهر بالسعي وراء مصالح الأمة مكراً وخداعاً ليجد بذلك منفذاً للتغلغل في أعماق المجتمع الإسلامي ومن الطرق الماكرة التي يسلكها هي شدة تظاهره بالغيرة على الدين أكثر من غيره وضرب الصدر باليدين كليهما إيهاماً للعوام ومكراً بهم.

ولا يفوت أعضاء هذا الفريق بالتظاهر أمام النبي بمناصرة الإسلام وأنهم أنصار الله ودينه.

وهذا المسلك ساعدهم على إخفاء نواياهم وستر مضمراتهم وأن يحمل عوام الناس ظواهر أخطائهم على مظاهر الصحة.

من جهة أخرى لما نزرت محبتهم للنبي وأصبحت في عداد العدم لم يروا أنفسهم ملزمين باتباعه في غير ما نزل به الوحي القرآني، ولا بالعمل وفق نظرياته وتصاميمه الأخرى وربّما عارضوا

النبي جهراً باسم رعاية مصالح الإسلام ورفعه إلى مقام العظمة وتطلباً لمصالح المسلمينوأوردوا عليه بما استطاعوا من القول والعمل وما موقفهم من صلح الحديبيّة إلّا جانب مصغر منموقفهم العام تجاه الإسلام ونبيه.

وكما برهنا فيما سبق مضافاً إلى نفوذهم في أعماق المسلمين علىأنهم تبانوا مع كفار قريش والمنافقين العاديين وأهل الكتاب في سبيل بلوغهم الغرض الذييطمحون إلى بلوغه.

كل هذه القضايا أمور واقعية تمهّد المناخ للمنافقين المحترفين لكي يعارضوا النبي ويجرأواعلى ساحة قدسه جرأتهم المعهودة بلا وازع من ضمير أو خلق لا سيما إذا كانت الجرأة متقمصةصورة ظاهرها التفكير في طلب المصلحة للمجتمع الإسلامي وتكون حينئذ ممارستها أسهلوأسرع.

إنّ الآيات الأوّل من سورة الحجرات نزلت في مناخ كهذا المناخ ووقفت دون الجرأة وسوءالأدب الذي ارتكبه الفريق المتحدث عنه مع النبي(ص) كما نزلت في هذا الفريق آيات أُخرى منالقرآن لتقريعه وتأنيبه وتبكيته وقد أوضحنا جانباً من ذلك في الأقسام الماضية من الكتاب.

والآن نعمد إلى تحقيق نماذج من الروايات لنعرف منحى الآثار الواردة في تعريف المنافقينالمحترفين فأي فرد منهم تعرفه الآيات الأول من سورة الحجرات في كتاب التفسير من صحيحالبخاري اختار لسورة الحجرات أبواباً ثلاثة وعنونها بالعناوين التالية:

باب ﴿ لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ الآية.

باب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾.

باب قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

وذكر في ذيل الباب الأول روايتين الأولى منهما ترتبط ببحثنا وفي ذيل الباب الثاني ذكررواية واحدة وهي ترتبط أيضاً بموضوعنا وأما ذيل الباب الثالث فلم يذكر له رواية واحدة واكتفىبالعنوان وحده.

والآن نذكر روايتين تتصلان بالموضوع:

١ ـ حدثنا بسره بن صفوان بن جميل اللخمي حدثنا نافع بن عمر عن ابن مليكه قال: «كادالخيّران أن يهلكا: أبا بكر وعمر ـ رض ـ رفعا أصواتهما عند النبي حين قدم عليه ركب بني تميم،فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر قال نافع لا أحفظاسمه فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهمافنزلت في ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ حتى انقضت الآية(١).

٢ ـ حدثنا الحسن بن محمد حدثنا حجاج بن جريج قال: أخبرني ابن أبي مليكه أن عبد اللهبن الزبير أخبرهم أنه: قدم ركب من بني تميم على النبي(ص) فقال أبو بكر: أمرّ القعقاع بن معبد وقالعمر بل الأقرع بن حابس.

---

(١) صحيح البخاري، ج٢ ص١٣٦ ـ المؤلف.

«فقال أبو بكر: ما أردت إلى ـ أو: إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتّى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾حتّى انقضت الآية»(١).

هذا وإن كان قد ظهر لنا أن عملاً دقيقاً أجرى على الرواية حتى لا تنصب الأوامر المشدّدةالمستفادة من الآيات الملحوظة على رأس أبي بكر وعمر إلا أنه عند ملاحظة عنوان الباب لا سيمافي الرواية الثانية التي ذيّل ـ بالبناء للمجهول المترجم ـ بها العنوان «باب أن الذين ينادونك من وراءالحجرات أكثرهم لا يعقلون» ومع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الباب الثالث لم يذيل بأية رواية.

ويظهر لنا من مجموع ما تقدّم أن الآيات الخمس من أول سورة الحجرات ـ كما أثبتنا ذلكفي البحث التفسيري لها ـ نزلت في رؤساء فريق «المنافقين المحترفين» وأعيانهم الذين كان أبو بكروعمر وجهين بارزين فيهم.

[ويظهر ضمناً من الروايتين السابقتين مقدار تسلط أبي بكر على عمر وهو سر من أسرارتقدمه على عمر في الحكم.. وهذه الطريقة قد بحثت بحثاً دقيقاً في تحقيق مظاهر الوفاة وأمرالسقيفة فليراجع في محلها].

---

(١) صحيح البخاري، ج٣، ص١٣٦ ـ المؤلف.

وهذا ما هو عايد إلى الآيات الخمس الأولى من سورة الحجرات.

وأما آيات السورة الأخرى فهي وإنْ لم يكن بأيدينا أثر ثابت من الروايات العامّية تثبت مانقول عن هذين الرجلين إلّا أنها نازلة فيهما وفي أصحابهما لكن سياق آيات سورة الحجرات نفسهاتدل بصورة جليّة على أن جلّ آيات السورة نازلة في هذه الفئة المنافقة المحترفة.

أليست الآية التالية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًابِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ (١) قد اتفقت الروايات العامية فيها بأنها نزلت في الوليدبن عقبة أخي عثمان لأمه وهو أحد المنافقين المحترفين المعروفين.

فإذا ثبت ذلك فإنَّ ارتباط الآيات التالية بحكاية الوليد بن عقبة بن أبي معيط محسوس جداً.

وعلى أية حال سواءً كانت الآيات الباقية من سورة الحجرات نزلت في المنافقين المحترفينأو يقتصر الأمر على الآيات الست أو السبع من أولها فإن السر الأصلي في حشر سورة الفتح بينسورة محمد وسورة الحجرات قد اتضح.

أجل إنَّ جامعي القرآن الأوائل لما رأوا في سورة الفتح مدحاً لأصحاب النبي في الظاهروتكريماً لهم وتمجيداً عمدوا إليها فوضعوها بين سورتي محمد والحجرات لكي يبطلوا الأثرالتكذيبي

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

في السورتين النازل فيهم وفي زملائهم ويمحوه من أذهان الأجيال القادمة.

هذا ما كان من أمر السر الأصلي الذي وضع قيد الملاحظة عند ترتيب السور الثلاث «محمد،الفتح، الحجرات» للجامعين وإلا لو كان الغرض من الترتيب يعود إلى طول السورة أو قصرها فإنَّ سورة «ق» التي نزلت بعد سورة الحجرات ينبغي أن توضع مكان سورة الفتح.

[أوضحنا قبلاً سر وضع سورة «عبس» بعدسورة «النازعات» وكذلك تبيّن لنا سر وضعسورة التوبة بعد سورة الأنفال وقد بحثنا كذلك بصورةأوسع النظام الترتيبي والتركيبي لسور القرآن وآياته وبصفة أشمل وأكمل فليرجع إليها من شاء].

وهنا تم البحث والحمد لله ونعود فنقول بعنوان أخذالنتيجة:

من التحقيق الذي تم لنا في هذا البحث الأصلي أنَّ الآية الشريفة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِالمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاًقَرِيباً**﴾ (١) لا تشمل فئة المنافقين المحترفين المشاركين في بيعة الشجرة، ليس هذا فقط بل ثبت منخلال إدراك مفادها ومن نتائج البحث في أطراف الموضوع أنهم بمنأىً عن رضا الله تعالى وهذاثابت مقطوع به.

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٨.

متن الآية الشريفة " والسابقون الأولون "

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ (١).

في هذا المقطع نركن إلى بحث الآية السابقة وتحقيقها ليتجلى لنا بأن مفادها ومضمونها لايشمل المنافقين المحترفين والمنافقين العاديين ليس هذا فحسب بل لا تشمل المؤمنين العاديين أيضاً.

نبدأ أولاً بتحليل الكلمات المستعملة في الآية واحدة واحدة، لأن لها جذراً يتصل به مفهومهامن حيث تعلق لغة الوحي بكل واحدة منها لإيجاد محصل مفهومي لها. لكي يسهل علينا معرفة مفادالآية ومضمونها وتكون النتيجة واضحة وأكثر تشخيصاً.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

مفهوم بعض المصطلحات القرآنية

١ ـ «السابقون» كلمة «السابقون» أطلقت في القرآن المجيد على الفئة التي لم تتلوث بالمعاصي وعاشت طاهرة الذيل منها.

توضيح ذلك: إن الله تعالى في لغة وحيه قسم عباده إلى ثلاثة أقسام وجعل أفضلهم وأعلاهم مرتبة السابقين وهذا التقسيم يتضح بصورة جلية في الآيات الأولى من سورة الواقعة:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(١).

أنتم تلاحظون أنه قسّم العباد هنا إلى فئات ثلاث: ١ ـ الأنصار المباركون (أصحاب الميمنة). ٢ ـ الأتباع النحسون (أصحاب المشئمة). ٣ ـ السابقون. وهذه الفئة تقدمت الفئتين الأخريين بالامتياز وأنها الأعلى والأشرف.

وفي الآيات التالية من سورة الواقعة دعت أصحاب الميمنة باسم «أصحاب اليمين» ودعت أصحاب المشئمة باسم «أصحاب الشمال» ودعت السابقين باسم «المقربين» (عند الله) وتوفّر الجزء الباقي من الآية على ذكر الجزاء الأخروي للفئات الثلاث ما بين حسن وسيّىء.

وأنّ الباحث مهما تعمق في البحث وبذل دقّة في معرفة الآيات فإنه يلم حتماً بأفضلية فئة السابقين وتميزهم بالفضل والمرتبة عمن

---

(١) سورة الواقعة.

سواهم وجاءت القسمة أعلاه في آيات أُخرى من القرآنالمجيد، كما جاء ذلك في سورة فاطر: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾.

وهنا نلاحظ التقسيم لوارثي الكتاب إلى الفئات الثلاث: ١ ـ ظالم لنفسه «أصحاب المشئمة».٢ـ مقتصد (أصحاب اليمين). ٣ ـ سابق بالخيرات (السابقون) من الاتفاقات ذات الدلالة أن الآياتالسابقة على آيتنا مورد البحث والملاحقة لها (آية ١٠٠ سورة التوبة) ذكرت الفئتين «أصحاباليمين» و «أصحاب الشمال» ونحن نذكر هنا الآية مورد البحث والآيتين قبلها:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ * وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فنلاحظ هنا الآيات الثلاث ملاحظة جيدة فالآية الأولى مختصة ب «السابقون» والآيةالثانية مختصة بأصحاب الشمال والآية الثالثة مختصة بأصحاب اليمين.

وعلى أية حال يظهر مما قيل سابقاً أن الغرض من لفظ «السبق» المذكور لفئة السابقين هوالسبق إلى الخيرات ومغفرة الله وهو سبق باطني، وليس السبق سبقاً يظهر في العالم الخارجي، ويدل على ذلك دلالة واضحة الآية الشريفة التالية:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِوَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ (١).

وبناءً على هذا يكون المصداق للآية﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَاتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ تلك الفئة من المؤمنين الذين اتبعوا القرآن وقيدوا أنفسهم بما يقوله الوحي فيفعل الخيرات وكسب المغفرة وسبقوا أهل الإسلام كافة في هذا المنطلق وتقدموا الجميع تقدماً لايدرك وأصبح لهم الفضل ليس على أهل الشمال فحسب بل على جميع أصحاب اليمين كافة ولهمالمنزلة الرفيعة والدرجة القصى.

٢ ـ الأولون: هذه الكلمة «الأولون» المذكورة في جزء الآية «السابقون الأولون منالمهاجرين» لا ريب في أنها جاءت صفة ل «السابقون» لكن يجب أن نعرف الأولية هذه، هل هيأولية زمانية أو أنها أولية رتبية. بعد بيان أن سبق فئة السابقين إنما هو سبق للخيرات والمغفرة.

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢١.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (١).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ (٢).

ثانياً: ينبغي أن تكون الهجرة لله وفي سبيل الله وإلى الله كما يظهر ذلك من هذه الجملة منآيات الذيل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِأَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) ونلفت نظركم في الآية آنفة الذكر إلى جملة «هاجروا في الله» ﴿وَالَّذِينَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٤) ونلفت نظركم في الآية أعلاه إلى جملة «هاجروا في سبيل الله».

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَاللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٥).

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٢.
(٣) سورة النحل: الآية ٤١.
(٤) سورة الحج.
(٥) سورة النساء.

وفي هذه الآية أيضاً نلفت الانتباه إلى الجزء من الآية «مهاجراً إلى الله ورسوله».

ثالثاً: على المهاجرين أن يكونوا بعد الهجرة من أهل الجهاد والصبر والتوكل ولا يمتنعوا منأداء أي عمل في سبيل الله، وهذا الموضوع أيضاً يمكن اجتنائه من آيات الذيل اجتناءاً جيداً:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌرَحِيمٌ﴾ (١) وفي هذه الآية نلفت أنظاركم إلى جزء الآية: **﴿ثم جاهدوا وصبروا﴾** **﴿وَالَّذِينَهَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** (٢).

وها هنا نعطف الأنظار إلى الجملة: «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون».

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...﴾ (٣).

وفي هذه الآية الجملة **﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾** تثبت المطلب الملاحظ بصورة أكيدة.

---

(١) سورة النحل.

(٢) سورة النحل.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

رابعاً: ليس للهجرة زمن معين ولا وقت معلوم، وكلما تحققت الشرائط المومى إليها آنفاً يعدصاحبها مهاجراً في سبيل الله كما يقول سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهوَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوامِنْ** بَعْدُوَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى **بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّشَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (١).

ولأجل إثبات المطلب تعطف الأنظار إلى جملة﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوامَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ**﴾ ثم تجلى لنا من استخراج المعنى في كلمة «المهاجرين» طبقاً لمضمونالآيات الشريفة المتضمنة للفظ المهاجرين وثبت كذلك أنَّ صيرورة المرء مهاجراً لا يشترط فيه قيدالهجرة من مكان معين إلى مكان معين آخر، فلا يقال إنه لابدَّ للمهاجر أنْ تكون هجرته من مكة إلىالحبشة أو من مكة إلى المدينة أو من الحبشة إلى المدينة، بل لكل مؤمن إذا فرّ من مكان إلى مكانغيره لحفظ دينه حيث يجد الحرية المذهبية والأمن على نفسه ومن يعنيه أمره فهو عندئذٍ مهاجر فيسبيل الله في اصطلاح القرآن المجيد.

بناءً على هذا فإن المؤمنين جميعاً القاطنين في مكان غير مكة وهاجروا إلى المدينة بعدهجرة النبي إليها في فرصة مناسبة يعتبرون مهاجرين كلهم هذا من جانب.

---

(١) سورة الأنفال.

ومن جانب آخر فقد ثبت أيضاً أن إطلاق كلمة مهاجر على أحد ليس مقيداً بزمان معين فلاتستلزم الهجرة مثلاً أن تكون قبل صلح الحديبية أو قبل فتح مكة إلى المدينة حتى يحسب المؤمن مهاجراً ولا يقال له «مهاجراً في سبيل الله» بعد صلح الحديبية أو فتح مكة.

كلا، فإن كل مؤمن بعد صلح الحديبية أو بعد فتح مكة لم يجد في موطنه أمناً أو حرية لممارسة شعائر دينه فهاجر لحفظ دينه وإيمانه فإنه مهاجر في سبيل الله ويستحق إطلاق لفظ «المهاجرين عليه».

أجل ليست هناك ضرورة تقضي بهجرة أهل مكة بعد صلح الحديبية وبعد فتح مكة بعدما حصلوا على الحرية الدينية فلا حاجة بهم في الهجرة لحفظ الدين سواءً إلى المدينة أو غيرها من المدن الآمنة وليست الهجرة أمراً إلزامياً لهم كذلك يظهر من الآيات المزبورة بشكل صريح وواضح أنَّ اصطلاح لفظ المهاجرين في القرآن لا يشمل إلّا المؤمنين الواقعيين الذين كانت هجرتهم لله وفي سبيل الله ولوجه الله ورسوله ثم يقيم بعد الهجرة على الجهاد بالمال والنفس في سبيل الدين ويكون من أهل الصبر والتوكل، وعلى هذا الحساب يكون أكثر الأفراد من «المنافقين المحترفين» المعدودين من أهل الهجرة عند السواد الأعظم لا يصح إطلاق لفظ الهجرة على أيّ فرد منهم ولا يشملهم لفظ «المهاجرين في سبيل الله».

٥ ـ **الأنصار:** تطلق كلمة الأنصار في القرآن المجيد على المؤمنين الذين لم يهاجروا وهم الذين ما احتاجوا لحفظ دينهم إلى

الهجرة وكانوا يؤدون طقوس دينهم بحرّية تامة لأنهم عاشوابأمان وثقة واطمئنان من وضعهم السائد وكان اسمهم بلغة الوحي الأنصار وبناءً على هذا فإن كلمةالأنصار تطلق على ساكني المدينة من المؤمنين والنازلين في أطرافها وحواليها، ولم يتقوا علىأنفسهم من أحد وكما يستفاد من الآيات الشريفة أن سبب تسميتهم بالأنصار إنما كان لإيوائهمالمهاجرين ونصرتهم الدين ولا يحتاج إلى بيان أن أصل التسمية قائم على نصرة الدين، وإلّا فإنّحسن الجوار ورعاية الغريب وتخصيصه بالمأوى والبيت والحياة المريحة إنما كان سجيّة منسجايا العرب بغض النظر عن الدين والمذهب وما إلى ذلك كما جرى لأبي بكر بن أبي قحافةوطلحة بن عبيدالله وغيرهما من سائر أفراد أسرتهما في هجرتهم إلى المدينة ونزولهم في بيت «خبيب بن أساف» الواقع في السنح فإنهم جاوروه قبل أن يسلم، وبقي مشركاً إلى غزوة بدر.

والنكتة آنفة الذكر في معرفة الأنصار يمكن تحصيلها من الجملة «والذين آووا ونصروا»المذكورة في الآيتين التاليتين بصورة جلية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوااُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(١).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَحَقاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة الحشر.
(٢) سورة التوبة.

ولغة الوحي هنا مضافاً إلى التعريف الذي ذكرته في الجملة الشريفة «والذين آووا ونصروا»للأنصار فقد ذكرت خصائص أخرى لهم في الآية ٩ من سورة الحشر بالتفصيل التالي: ﴿وَالَّذِينَتَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

نلاحظ في الآية أعلاه أن الخصيصة الأصليّة للأنصار هي إيواء المهاجرين وإطلاق أيديهمفي الأموال، ويؤثرون المهاجرين على أنفسهم وإن كانوا فقراء، ويخصونهم بالراحة دون أنفسهم.وبالطبع لا يذهب على القارىء أن الآية السالفة إنما نزلت في نعت أفراد متميّزين من طبقة «الأنصار» الذين ملكوا الصفتين: الإنفاق والإيثار ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ويثبت طبقاً للآيات الشريفة بخاصة الآية التاسعة من سورة الحشر من تعريف الأنصار أن فياصطلاح القرآن الخاص لا تطلق كلمة الأنصار إلا على المؤمنين الحقيقيين وحدهم ولا تشمل تلكالفئة من المنافقين المحترفين القاطنين في المدينة، وتعرف عند الجميع بالأنصار مطلقاً.

---

(١)سورة التوبة.

٦ ـ «الذين اتبعوهم بإحسان»:

يتضح لنا بصورة جلية من التحقيق حول المفاد الواقعي لكلمتي «المهاجرين» و «الأنصار»في الاصطلاح الخاص بالقرآن الكريم أن المؤمنين في العهد النّبوي ينقسمون إلى طائفتين:المهاجرين، والأنصار، ولا ثالث لهما.

وبناءً على هذا يكون المقصود من «والذين اتبعوهم بإحسان» هم تلك الفئة من المؤمنينالواقعيين الذين أسلموا بعد وفاة النبي(ص) وآمنوا به، مضافاً إلى ما قلناه نقول: إن الدليل على أنّ المؤمنين في زمن النبي(ص) يقتصر وجودهم على فئة المهاجرين والأنصار ولا ثالث في البين لهمهو الآية الشريفة:﴿**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِمِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَخُلِّفُوا ...**﴾(١). ذات الصلة «بغزوة تبوك» التي وقعت في العام التاسع من الهجرة وطبقاً للآيةالشريفة:﴿**لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَهُمُ المُفْلِحُونَ**﴾(٢) وهذه أيضاً تتصل بغزوة تبوك وشارك فيها عموم المؤمنين الواقعيين نشاهدأن الله تعالى لم يسم فيها غير المهاجرين والأنصار فقال:﴿**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَوَالأنصَارِ**﴾ فلو كانت هناك فئة ثالثة داخلة في المؤمنين لذكرتها الآية.

---

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨٨.

أجل، إن الآية الشريفة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١) لماكانت قد نزلت في الامتنان على المؤمنين الذين حضروا في غزاة تبوك وكان عموم المؤمنين الواقعيين قد شاركوا فيها فلو كان هؤلاء المؤمنون في حياة النبي تنتسب إليهم فئة ثالثة غير المهاجرين والأنصار لما أهملتها الآية.

أليس الله تعالى قد ذكر بعد ذلك العرض الوارد في الآيات الثلاث الذين خلفوا عن حضور غزوة تبوك وتقاعدوا عن الذهاب مع رسول الله ثم تابوا فقبل الله توبتهم وذكرهم بالخير والحسنى،فكيف يصح أن يكون في القوم فئة ثالثة غير المهاجرين والأنصار ثم لا يذكرها الله معهما.

كلا، إن هذا لا يجوز تصوره مطلقاً، وعلى أيّة حال. وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ فإنه من المسلمات، فريق لاحق بهم وشامل للمؤمنين جميعاً الذين يؤمنون بالإسلام تالياًويلتحقون بجماعته إلى آخر الدنيا، وفيهم نفس الصفات الطيبة الموجودة في المؤمنين الحقيقيين.

ونحن ينحصر اهتمامنا بهذا الأمر المسلم.

مفاد آية " والسابقون "

بعد إيضاح المفهوم الواقعي للكلمات المستعملة في الآية الشريفة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ (١).

والآن نضيف في تحديد مفاد الآية المذكورة وتعيين مفادها فنقول: من تحقيق الكلمات الماضية ظهر لنا أنّ الآية أعلاه تهدف إلى تعريف فئة «السابقون الأولون» من المؤمنين الحقيقيين المقتدين بالقرآن الكريم.

وحيث تمت البرهنة على أن فئة «السابقون» هم أغلى وأعلى من أصحاب اليمين كلهم يلزم من ذلك بالضرورة أن الآية الشريفة المذكورة لا تشمل المنافقين المحترفين والعاديين ليس هذا فحسب بل لا تشمل المؤمنين متوسطي الإيمان أيضاً. وثبت لدينا فيما مضى من التحقيق أن كلمة «المهاجرين» و «الأنصار» تطلقان على المؤمنين الحقيقيين في عهد رسول الله(ص) .

كما تدل على ذلك الآية التالية دلالة واضحة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢).

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٤.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يصح إطلاق كلمة «السابقون» من المهاجرين والأنصار علىالمنافقين المحترفين.

أيكون تحريف القرآن أحط وأنزل مستوىً من هذا التحريف؟! حيث تحمل أعلى الآياتمنزلة من آيات كلام الله المجيد على نقيض مصداقها الواقعي، فأين قوله تعالى:﴿**وَالسَّابِقُونَ الأوَّلُونَمِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ**﴾ وأين المنافقون المحترفون إنكم عرفتم المنافقين المحترفين فيما مضىمن أقسام الكتاب معرفة جيّدة لا سيما أعيانهم ورؤسائهم وستعرفونهم أكثر وأكثر فيما يلي منالأقسام.

أجل، إن البعد الذي بين «السابقون» والمنافقين المحترفين هو البعد بين الحق والباطل أوالنور والظلمة.

والآن لكي ندنو من معرفة المفاد الأصلي للآية الشريفة:﴿**وَالسَّابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَوَالأنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَاالأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾(١) ومن أجل الحصول على المصاديق الحقيقيةوالواقعية نوقفكم في الفصل القادم أمام المعرفة التي جنيناها من البحث الدقيق حول الموضوع.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

ختام تحقيق الآية الشريفة " والسابقون الأولون ..." والحصول على مصاديقها الحقيقية والواقعية

بعد أن أثبتنا أن فريق «السابقون» هو الأعلى والأعلى من أصحاب اليمين بأجمعهم نقول هنا:

وكما جاء في الآيتين الشريفتين من سورة الواقعة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وأنهما دلتا بوضوح على أن فريق «السابقون» هم المقربون إلى ساحة قدس الله تعالى، لأنَّ كلمة «السابقون» الثانية سواءً اعتبرناها مؤكّدة للأولى أو اعتبرناها خبراً فإنَّ جملة أولئك المقربون على كلا الوجهين تخبرنا على أنَّ الفريق آنف الذكر هم المقربون من ساحة لطف الله جل جلاله، وهؤلاء المقربون هم أنفسهم الذين عدّ المسيح بن مريم منهم كما تنصّ الآية القادمة على ذلك: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١) ولما كان المقربون طبقاً للآيات الشريفة: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢) شهوداً على أعمال الأبرار ودرجاتهم يكون بطبيعة الحال مصاديق جملة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ هم الشهود على أعمال الآخرين ويؤخذ في هذا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

(٢) سورة المطففين: الآية ١٨.

بتطبيقه على أنبياء الأمم السالفةوفي هذه الأمة يطبق على النبي والأئمة المعصومين بشهادة آيات الولاية التي بحثت في هذاالكتاب.

كما ينبغي أن يعلم أن لفظ «مقرب» الاسم في لغة الوحي يطلق على الإنسان وفي شكلهالوصفي يطلق على بعض الملائكة وإذا ما كان حديث «السابقون» في الأمم السابقة وهذه الأمةعلى هذا النحو فإن السر الأصلي في الآيتين الشريفتين يظهر جلياً «ثلة من الأولين، وقليل منالآخرين» لأنّ عدد الأنبياء المتقدّمين وعدد أوصيائهم أكثر من عدد النبي وأهل بيته.

أجل، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ (١).

ولما بلغ بنا البحث إلى هذا الحد فإننا نجري مقارنة بين هاتين الآيتين الشريفتين﴿وَالسَّابِقُونَالسَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ والآية الشريفة:﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِوَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾بلحاظ كلمة السابقون المذكورة في الآيتين كليهما فنقول: في آية سورةالواقعة ذكرت كلمة «السابقون» بشكل مطلق لكن في آية سورة التوبة ذكرت الكلمة نفسها مقيّدةبقيد «الأولون».

وقد تبين فيما مضى أن الغرض من سبق السابقين إنما هو السبق إلى الخيرات ومغفرة اللهتعالى وهو سبق باطني لا أنه سبق في الواقع الموضوعي أو أنه سبق مادي وأثبتنا أيضاً أن الغرضمن كلمة

(١) سورة الواقعة: الآية ١٠ ـ ١٢.

«الأولون» هم أولئك القوم الذين أخذوا قصب الرهان في ميدان السباق إلى الخيرات ومغفرة الله تعالى من جميع الناس وحلوا في المحل الأول من السبق والفوز ونالوا الدرجة القصوى.

وبناءً على هذا يكون واضحاً بأن المقصود من كلمة «السابقون الأولون» هم تلك الفئة من المتقدمين السابقين الذين تقدموا فريق «السابقون السابقون» وساروا أمامهم.

ونتيجة لهذا يكون أفرادهم أقل عدداً.

أجل إن هذا الأمر واضح في كل سباق يحدث ففي البداية يكثر الشركاء عندما ينطلق السباق ثم يتناقص العدد فيتخلف الضعيف ويتقدم القوي إلى أمام وكلما دنوا من الغاية أو هدف السباق تناقص العدد أكثر فأكثر، إلى أن يصل العدد إلى أقل القليل حيث يفوز هؤلاء بقصب السبق ويتقدموا الجميع وينالوا الدرجة الرفيعة والمرتبة القصوى ويكون عددهم بالقياس إلى عدد المشاركين كلهم قليلاً جداً.

وخلاصة القول: إن المحصل الذي نلناه من المقارنة بين الآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ والآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ...**﴾ يظهر لنا بوضوح تام أنّ جملة «والسابقون السابقون» تكشف عن ماضي تلك الأقلية التي بذّت فريق «السابقين» كلهم وحازت الرتبة الأولى دونهم وأدركت الغاية ونالت قصب السبق. وهذه الفئة هم أتباع القرآن وخلاصة الأمة وهم عبارة عن

مصاديق للجملة﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾(١) فإذا كان الأمر كذلك يكون المهاجرون منهم هم رسول الله وأمير المؤمنين علي بنأبي طالب وسيدتنا الزهراء سيّدة نساء العالمين وحدهم ولا أحد سواهم.

والأنصار منهم هم الإمام الحسن والإمام الحسين سيدا شباب أهل الجنّة وليس سواهم،والذين اتبعوهم بإحسان هم الأئمة المعصومون من نسل الحسين(ع).

[جاء البحث القرآني عن الأئمة المعصومين من نسل الإمام الحسين(ع) في الفصل الثالث من الخاتمة من هذا الكتاب فارجعوا إلى هناك]

أجل عندما تطالعنا لغة الوحي في أمثال الايات الشريفة:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ...﴾(٢)، ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ...﴾(٣) وتعتبرالمهاجرين هم المؤمنون المبعدون من بلادهم وديارهم قهراً والنبي ومرافقوه يعتبرون نزولاً عندمقتضى الآيات الشريفة﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ...﴾(٤)، ﴿ اللَّاتِيهَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾(٥)، من المهاجرين، وبناءً على هذا يكون النبي نفسه(ص) وعلي بن أبي طالبوفاطمة الزهراء÷ من السابقين عزيزي الوجود في

(١) سورة الواقعة: الآية ١٤.

(٢) سورة الحشر: الآية ٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٤) سورة محمد: الآية ١٣.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

طبقة المهاجرين.

وأيضاً لما ثبت لدينا أن كلمة «الأنصار» في الاصطلاح القرآني الخاص إنما تطلق على تلكالفئة من المؤمنين الواقعيين أصحاب النبي الذين ما كانوا من طبقة المهاجرين ولم ينكلوا عن دينالله آناً واحداً إذن يكون الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام من السابقين عزيزي الوجود لتلك الطبقة اللذين كانا في أعلى درجات العصمة والطهارة بشهادة آية التطهير وقد نصرا دين الله في أشدالظروف حراجة في أيام المباهلة جنباً إلى جنب مع جدهما وأبيهما وأمهما بشهادة الآية الكريمة»آية المباهلة».

وأيضاً كما أثبتنا بالدليل والبرهان أن فريق «والذين اتبعوهم بإحسان» يطلق على المؤمنينالواقعيين الذين أسلموا بعد وفاة النبي(ص) وآمنوا به فيشمل جميع المؤمنين الواقعيين من بعدهفيكون بالضرورة أنّ الأئمة المعصومين من ذرية الحسين(ع) من السابقين عزيزي الوجود لهذاالفريق.

اللّهُمَّ صلِّ على محمد وعلي وفاطمة (السابقين الأولين من المهاجرين) والحسن والحسين (السابقين الأولين من الأنصار) والأئمة المعصومين من ولد الحسين السابقين الأولين من الذيناتبعوهم بإحسان)!!

وهؤلاء السابقون الأولون هم أنفسهم المصداق الأوحد للآية الشريفة «وقليل من الآخرين»ولما كانوا في السبق بالخيرات ومغفرة الله متقدمين على «السابقين» بأجمعهم كانوا واسطة الفيضبين الحق جل

جلاله ومصاديق الآية الشريفة «ثلة من الأولين»!!

ثم لما كان من الثابت الأكيد أنَّ النبي نفسه وأهل بيت العصمة والطهارة في زمرة «السابقون»وهذا الفريق أعلى وأغلى من «أصحاب اليمين» جميعاً وكذلك بشهادة آيات الولاية المذكورة فيلغة الوحي، كان من المسلم به أن محمداً وآل محمد حازوا السبق إلى الخيرات والمبرّات والمغفرةلجميع السابقين من الأنبياء والمرسلين وسائر أصحاب الصراط المستقيم وثبتوا في المرتبة الأولىمن مجال هذه السبقة.

والآن هلموا نتعرف على هؤلاء العظماء باسم «السابقون الأولون» في لغة الوحي هل جاءبأجلى صورة وأحسن تقديم من الآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِوَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ...**﴾ وهل بالإمكان تحقق ذلك أو من الممكن أن نعرف أن «السابقونالأولون» هم من بين المسلمين بل ومن المسلمين وليسوا من الأمم الأخرى؟!

وهنا من أجل تبيّن الموضوع المنوّه عنه تواً مضافاً إلى البحث الذي طرقناه من تحصيلمفهوم الألفاظ المستعملة في الآية التي هي مورد بحثنا (الآية ١٠٠ سورة التوبة) وعرض مفادهاعلى سائر الآيات المتصلة بفريق «السابقون» سنتخذ الآن شواهد من الآية الشريفة نفسها﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ...**﴾ على هذا المطلب فيالفصل القادم إن شاء الله تعالى.

شواهد أخرى من الآية نفسها " والسابقون السابقون..." على استحكام دقة النظر الأخير

كما نلاحظ في هذه الآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَاتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداًذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

قد أعد الله لجميع «السابقين» من المهاجرين والأنصار وأتباعهم الخيّرين جزاءاً معيناً وهوعبارة عن مفاد هاتين الجملتين ﴿**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُخَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**﴾.

وفي هذا الجزاء نجد أولاً أنه أخبر عنهم «رضي الله عنهم ورضوا عنه» ثم أضاف إلى ذلكوأعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار يخيل للإنسان لأول وهلة أنه جزاء بسيط جاء في لغةالوحي لكثير من المؤمنين وأولياء الله وأخبر الله عن ذلك في الآيات التالية: «الصادقون»، و «ثابتوا الإيمان» و «العالمون» ونظير ذلك. قال الله تعالى: ﴿**قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُالْعَظِيمُ**﴾(١) وهذا عن الصادقين حيث أخبر الله عنهم وعن

---

(١) سورة المائدة.

جزائهم﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَاالأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهوَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْأَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍتَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِهُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

وهذا أيضاً ما يعود إلى ذوي الإيمان الثابت الذين أثبتت لهم لغة الوحي كلا الموضوعين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍتَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٢).

وهذا أيضاً جزاء العلماء أصحاب الخشية بالطبع هذا موصول بالآية الشريفة:﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ مع الجزء الثاني من الآية﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

فإنكم تلاحظون أن العلماء حازوا أيضاً الموضوعين كليهما «جنات عدن تجري من تحتهاالأنهار» والموضوع الآخر وهو «رضي الله عنهم ورضوا عنه» وأثبت الخالق سبحانه

(١) سورة المجادلة.
(٢) سورة البيّنة.

الاثنين للعلماء، قد يخدع الإنسان بهذه النظرة البدائية القاصرة ولكنه عند التحقيق النهائي المذكور حول الآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (١) فإذا ما علم أن الآية أعلاه إنما نزلت في الطبقة العليا من «السابقون الأولون» والمقربون الممتازون عند الله تعالى الذين هم في الرعيل الأول من بني نوعهم يتساءل عند ذلك: إذا كان الأمر واقعاً كذلك فكيف تساوى هؤلاء وهؤلاء بالجزاء فأصبح جزاء «الصادقون» و «ذوو الإيمان الثابت» و»العلماء» مساوياً تماماً لجزاء الممتازين من السابقين الأولين ألا يستحق هؤلاء وهم واسطة العقد درجة في الجزاء تميزهم عمن قصّر عن مساواتهم.

ونقول ردّاً على هذا السؤال الخادع: صحيح إن الجزاء ب «جنات تجري من تحتها الأنهار» والموضوع الآخر «رضي الله عنهم ورضوا عنه» شمل قوماً غير السابقين الأولين إلّا أنَّ بذل قليل من الدقة في تدبر الآيات ومقارنتها بالآية الشريفة «والسابقون الأولون ...» يتضح لنا بصورة جلية أنَّ التفاوت في الطريق من أين يبدأ وإلى أين ينتهي.

بيان ذلك: في تلك الآيات أعني الآية ١١٩ سورة المائدة والآية ٢٢ سورة المجادلة والآية ٨ سورة البيّنة جعل الوحي الجزاء ب «جنات تجري من تحتها الأنهار» قبل الموضوع «رضي الله عنهم ورضوا

(١) سورة التوبة.

عنه» ومساوياً له بينما في الآية الشريفة «والسابقون الأولون...» جعل الجزاء المذكور بعدالموضوع ذاته أي ««رضي الله عنهم ورضوا عنه»» وأعطاه الأولوية والمنزلة الرفيعة.

مثلاً في الآية ١١٩ سورة المائدة التي هي عبارة عن الآية التالية: ﴿**قَالَ الله هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنـهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبَداً رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ ترون البداة كانت بجزاء﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنـهار**﴾ ثم جاء بالجزاءالثاني بدون حرف العطف ««رضي الله عنهم ورضوا عنه»» ووصله بالجزاء المتقدم وساواه به وكذلكجرى الأمر في الآية ٢٢ من سورة المجادلة، والآية ٨ من سورة البيّنة.

لكننا نجد الأمر يختلف في الآية الشريفة﴿**وَالسَّابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأنصَاروَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنـهَارُ خَالِدِينَفِيهَا أبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ (١) فأنتم ترون أن الجزاء﴿**وَأعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنـهَارُخَالِدِينَ فِيهَا أبَداً**﴾ ذكر مع واو العطف وأضيفت إلى موضوع﴿**رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾المذكور قبلها واعتبر أعلى وأغلى مما تقدمه ويشهد على ذلك قوله تعالى:﴿**وأعدّ لهم**﴾ نفسه أجلتشعر مساواة﴿**رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ مع﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنـهَارُ**﴾ في تلك الآيات

(١) سورة التوبة.

بفائدة مقصودة هي كون الجزاءين في مستوىً واحد للصادقين وثابتي الإيمان المؤيّدين والعلماءأولي الخشية، والجزاء كله يشبه بعضه بعضاً دونما تفاوت يذكر.

ولكنّ جنات السابقين الأولين هي نعمة أعلى وأغلى من رضى الله عنهم ورضاهم عنه.

ولعل سؤالاً ينشأ في الخلد المخادع وفحواه هو: وهل يوجد مقام في الجنة أعلى وأرفع من رضا الله كي يكون جنة للسابقين الأولين؟!

ونقول في الجواب: بلى قد مرّ في بحث الولاية أن مقام محمد وآل محمد(ع) ورتبتهم هي «يحبّهم ويحبّونه» وهذا مقام أرفعوأعلى وأكمل من مقام «رضي الله عنهم ورضوا عنه»لأنَّ رتبة الحب وامتلاك شغاف القلوب ربماكان أعلى وأعلى من مقام﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾ ومضافاً إلى ما قيل في المورد أن هنا نكتةأخرى تثبت يقيناً بأنّ جنات السابقين الأولين طالما كانت أغلى وأعلى من جنات الصادقين وثابتيالإيمان المؤيدين والعلماء أولي الخشية من ثم جاءت الآية الشريفة هكذا:﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍتَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(١) جنات السابقين الأولين جاءتبهذه الصيغة﴿**جنات تجري تحتها الأنهار**﴾ ولم يدخل الخافض وهو من على الكلمة التي تلتهابخلاف جنات «الصادقين وثابتي الإيمان

---

(١) سورة التوبة.

المؤيدين والعلماء ذوي الخشية» فإن الخافض (من) دخل عليها، واستعملت صيغة الجنات على هذا الترتيب﴿**لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾.وهذه الجملة خاصة بجنّات فئة﴿**ثابتي الإيمان المؤيّدين**﴾﴿**جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِيمِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ وهذه هي جنات فئة «العالمين أهل الخشية».

وينبغي أن يعلم القارىء إلى أنَّ هذه الجنات الجارية من تحتها الأنهار ذكرت في أربعوثلاثين موضعاً من القرآن الكريم وجاءت كلها متعدية بحرف الجر «من» إلا في موضع واحد منهاذُكرت جنات «السابقين الأولين» مجردة عن دخول الخافض «من» وجاءت على هذه الصورة﴿**وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ**﴾ ومن الواضح أن لفظ «من» في هذه الموارد الثلاثوالثلاثين وإن كان معناها لابتداء الغاية إلا أننا حين نقيسها إلى آية «السابقون الأولون» يظهر لناجلياً أن جريان الأنهار في ثلاث وثلاثين مورداً لها حد محدود نعرف ذلك التحديد من دخول»من» حرف الجر عليها إلا في مورد واحد وهو «السابقون الأولون» فإنه لا يحد بحد ولا ينتهي إلىأمد وإنما يجري في الجنات كلها على حد سواء، ولا يخلو منه مكان فيها، وما لذلك سبب إلا لسعةرقعتها وامتدادها واتساع وجودها، فلا تجري الأنهار فيها على هذه الشاكلة اعتباطاً، ويلزم منذلك نيلهم المقام الممتاز عند الله والمكانة المرموقة بين إخوانهم بحيث ليس من حدّ منظور في سعةفيضهم وهذه الفضيلة هي التي ميّزت جنات «السابقين الأولين» قياساً إلى جنات «الصادقين وثابتيالإيمان والعالمين» وجعلتها أسمى وجوداً في التعين من جميع

الجنان.

هذا ما كان من أمر النتيجة الدقيقة التي برزت من خلال إعمال الفكر بحذق ودقة لمعرفةالمفاد الأصلي والمصداق الحقيقي الواقعي للآية المبحوث عنها وهي الآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَالأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ...**﴾ وثبت لدينا من خلاله أنها لا تعمالمتقدمين على الإطلاق.

أجل لما كان جولان الفكر في طول تاريخ الإسلام متوقفاً عن النظر في الألفاظ المستعملة فيالآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ**﴾ وعلاقةأحدهما بالآخر في لغة الوحي وانتزاع مفهوم لها من تدبر ذلك.

وقنع الجميع بما فهمه العامة من إدراك المعاني الذهنية لها وظل المفاد الأصلي للآية المزبورةفي طي الإجمال.

وتقسيم الناس في بيان مفادها وتوضيحه على حسب طبقاتهم وأخذاً من الذوق الشخصيوالمسلك الخاص بتلك الطبقة ولكن بالرجوع إلى الجوامع الحديثية والتفسيرية والتاريخية للفريقينيمكننا فهم المعاني الخاصة بها والراجعة إلى تلك العلاقات المتصورة بين الألفاظ ولكنكم لاحظتمأننا في مسيرتنا للانتزاع المفهومي من الألفاظ المستعملة في تلك الآيات كيف برز في البحثالإجمال الأصلي للآيات فكان مفاد الآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَاروَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ...**﴾ هو عين مفاد آية التطهير وآية الولاية، وآية التوكيل، وسائر آياتالولاية بحيث يقول الإنسان جازماً

بذلك: إذا لم يحصل على مفهوم للآية المزبورة مساوياً لمفاهيمأخواتها من آيات الولاية فإنها تبقى بلا مصداق ويكون مفادها غير معقول ومخالفاً لآيات كلامالوحي حتماً.

توضيح ما تقدم:

لما كانت الآية الشريفة﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمبِإِحْسَانٍ**﴾ من بين ١٢٩ آية هي الآية المائة وتنتهي سورة التوبة بعد ٢٩ آية أخرى وبعد نزول الآياتالأخيرة من سورة التوبة ختم كلام الوحي النازل على رسول الله بها.

وبناءً على هذا يكون نزول الآية الشريفة: «والسابقون الأولون» نزلت في أواخر فترةالثلاث والعشرين سنة التي كان الوحي ينزل فيها.

والآن علينا أنْ نستحضر في أذهاننا الآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَوَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (١).

وأبعد عنها المعنى الذي حصل بأيدينا في انتزاع المفهوم اللفظي لكل كلمة من كلماتهاوموازنتها بسائر آيات الكلام الموحى به واستحضر المعنى العامي لها عند تصورها وهو عبارة عنالسبق الحقيقي إلى الإيمان في عالم الخارج والتقدم الزماني في إعلان

---

(١) سورة التوبة.

الإيمان، وأقصر الآية علىهذا المعنى وحده دون ذلك المعنى الانتزاعي للمفهوم.

ومن الطبيعي أن تبقى الآية في وضع كهذا أعني آية: «والسابقون الأولون» في هذا الحد وهوأن النبي والعياذ بالله وفي الأيام الأخيرة من رسالته بالذات خاطب الأمة بهذا الخطاب باسم التبليغللوحي المنزل من السماء: إن المهاجرين والأنصار الذين سبقوا إلى الإيمان في أول ظهور الإسلامهم والتابعون الذين آمنوا في أخريات أيامه أو بعد وفاة نبيّهم سواء من حيث الرتبة والدرجة وقدجعل الله لهم أو لمن أخلص منهم إذا كانوا مسلمين واقعيين جزاءً واحداً معيّناً ولا تفاوت بينهم منحيث الإيمان ليكون جزاؤهم متفاوتاً!!

أقول: هل هناك طبع سليم لم تكتنفه معوقات الفهم يحمّل هذا المعنى المتنافر على الآيةالشريفة﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ**﴾ أو يقبله، وهلاحتمال معنى كهذا منسجم مع آيات الوحي كلها وليس مخالفاً لها؟؟!

وعلى أية حال: سواءً أدرك المدرك دقة النظر الأخيرة أو لم يدركها وبقي عاجزاً عن فهمها،وعلى كلا الحالين إن أصل الاستدلال هو ما قدمناه ولا يتعدى ما قلناه قبل ذكر دقة النظر الأخير فيهذا المقطع وأثبتنا أنه: لما كان السابقون «أغلى وأعلى» من أصحاب اليمين كافة فإذن لا تكونالآية التي هي مورد بحثنا بالضرورة شاملة

للمنافقين المحترفين والعاديين ليس هذا فحسب بل لاتشمل المؤمنين متوسطي الحال أيضاً عجباً هل يصح أن يقوم أشد المذنبين جرماً وهم المنافقون المحترفون مقام الأشخاص الممتازين من فئة «السابقون»؟!!

استحضار نكتة راجعة إلى الألفاظ المستعملة في آيات القرآن المجيد

في ختام هذا القسم يكون استحضار نكتة هنا ضرورياً ، أصولاً ينبغي أن يُعلم أن علة تخصيصنا البحث الآيتين الشريفتين: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ (١) ، ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ...﴾ (٢) هي من أجل الانطباعة الذهنية الخاصة حول الآيتين التي خامرت أذهان المسلمين في الماضي والحال العالم والعامي منهم، وفحواها: أن آية المبايعة شاملة لكل من بايع تحت الشجرة وأن آية «السابقون» شاملة للمهاجرين والأنصار كلهم إلى الحد الذي اعتبر فيه دخول المنافقين المحترفين لا سيما رؤساؤهم في مفهومها وصاروا موضعاً لرضا الله في آية الرضوان «بيعة الشجرة» وكذلك صاروا مناطاً لشمول الفضائل المذكورة في الآية «السابقين الأولين» من المهاجرين والأنصار وهذه الانطباعة الذهنية لم تقتصر على مسلمي الفترات اللاحقة بل مسلمو الصدر الأول أيضاً وقعوا تحت أسار هيمنتها فنجد اغتنام الحزب الحاكم لهذه الانطباعة الذهنية واتخاذها فرصة ذهبية حين جعلوا سورة الفتح التي تشيد بجميع

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

الحاضرين في بيعة الشجرةبين سورة محمد وسورة الحجرات من أجل محو الأثر السيّىء الذي تتركه السورتان في ذمأصحابهم وتقريعهم ولا يبقى لها أي أثر سلبي في الأذهان القادمة من المسلمين.

وأيضاً إن نفس الذهنية من الصدر الأول إلى الآن حسبت أبا بكر وأعوانه من السابقينالأولين من المهاجرين وينشىء جراء ذلك جدال محتدم بين أول من آمن هل هو علي(ع) أو أبوبكر بن أبي قحافة وأخيراً يتوصلون إلى طريق حل فيقولون: أول من أسلم من الصبيان علي ومنالرجال أبو بكر ومن النساء خديجة فألصقوا شارة لأول من أسلم على صدر أبي بكر.

في بحثنا للآيتين السالفتين لا سيّما الآية الشريفة﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَوَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ...**﴾ التي انتزعنا من معرفة الوجه في استعمال الألفاظ بعينها معالأخذ بعين الاعتبار صلتها بغيرها من الألفاظ المستعملة في القرآن انتزعنا مفهوماً ثبت لدينا أن لغة الوحي اتخذت صياغة الاصطلاح وسيلة في إفادة المعاني المقصودة بالنظر واستعملت الألفاظ فيإطار المعنى المحدد بهذا الاصطلاح ولم تلق بالاً إلى ما تستوحيه الذهنية العامة أو ما يتبادر إليها منإطلاق الألفاظ المستعملة وتفهمه على هذا النحو وهذه النكتة ترجع في استعمال الألفاظ إلى الجذر الذي يعود إليه تلكم الألفاظ والكلمات، ومن انتزع مفهوماً بالاعتبار المتقدم من حيث ملاحظةالألفاظ ومطابقة الآيات مع بعضها البعض يدرك صدق ما قلناه آنفاً.

وأنتم للتأكد مما قلناه نحاول انتزاع مفهوم من الألفاظ والكلمات التالية: «مؤمن، مسلم، أول المسلمين، صالح، صالحين، شهيد، شهداء، صديق، صديقين، شاكرين، مخلصين (بصيغة اسم المفعول)، مطهرون(بصيغة اسم المفعول) وغيرها» من حيث استعمال القرآن لها ستجدون القرآن الكريم استعملها بصياغة مصطلح لها خاص به ولم يكتف بالتبادر الذهني الموجود في زمن نزوله عند العرب أصحاب اللغة، في أصل معناها.

أجل، يمكننا الاستدلال على ما ذهبنا إليه بالحقيقة التالية وهي: أن لغة الوحي كشفت الماضي الغيبي للعالم وللإنسان، وهو علم مستور عن الخلائق واستعملت الألفاظ الجارية على الألسن والدائرة في الكلام ليمكن تفهم الغيب المستور لأصحاب اللغة المستعملة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾[١] ولابدّ من وجود اصطلاح خاص بالوحي بعث به الألفاظ المستعملة بعثاً جديداً ينسجم مع النظرة الخاصة التي يريد توجيه الخلق إليها، وإلّا فإنّ إبقاءها على ما هي عليه من الاستعمالات العامية المهملة لا يكشف غيباً ولا يوضح مخفيّاً على الإطلاق.

إنّ عدم التوجه إلى هذه الحقيقة من كون كلام الوحي فتح باب التفهيم على مصراعيه باصطلاحاته الخاصة المستعملة في اللغة وعدم تطبيق أساليب الآيات مع بعضها البعض في تحديد هذه الاصطلاحات في التاريخ كله، أدّى إلى هذا الفهم المنحرف والمعرفة المعوجّة في درك المفاد الأصلي للألفاظ والجملات القرآنية المجيدة،

---

(١) سورة إبراهيم.

بحيث تجاوز ذلك الحد.

والبحوث القرآنية المعروضة في هذا الكتاب تشير إلى نماذج من هذه الانحرافات.

بحث في

آيات "سورة التوبة"

الفصل الأول

البحث الذي يرجع إلى بيان "آخر ما نزل من السور"

قبل الدخول في صلب الموضوع وهو البحث عن مختصر تاريخ المنافقين في سورة التوبة يلزمنا البحث حول آخر ما نزل من القرآن الكريم.

يرى بعضهم أنّ سورة التوبة هي آخر ما نزل على النبي من القرآن الكريم ويرى البعض الآخر أنّ آخر ما نزل من السور هي سورة النصر وبعضهم يراها سورة المائدة التي قيل عنها «ناسخة غيرمنسوخة»[(١)] أي أنّ سورة المائدة نسخت آياتها كثيراً من الآيات ولم تنسخ آياتها آية من غيرها.ولذلك اعتبرت آخر سورة نزلت على النبي(ص).

والآن نقول في بحث الموضوع آنف الذكر: مما لا شك فيه أن سورة النصر إنما نزلت بعد فتح مكة وإبّان دخول القبائل في دين الله أفواجاً والسورة التي لا تتجاوز آياتها الثلاث أيات شاهد حي على ذلك: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ**

---

(١) تفسير الميزان، ج٢، ص٢٠٥ وج٥ ص١٥٩.

النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (١) وبناءً على هذا يكون نزول سورةالنصر بعد فتح مكة وبالتحديد بعد حج السنة التاسعة بأشهر، والسنة التاسعة تسمّى سنة الوفود وفي هذه الحقبة من الزمن أوفدت القبائل العربية ممثليهم إلى المدينة، ونالوا الشرف بمقابلة النبي(ص)وأعلنوا إسلامهم وإسلام قبائلهم.

نعم، هذا وإن كانت الوفود وممثلو القبائل ما فتئوا يتقاطرون على المدينة حتى أواخر السنةالعاشرة ولكن الظاهر أن سورة النصر نزلت في فترة اشتداد إقبال الوفود على المدينة أكثر من أي وقت آخر وتحديداً في نفس السنة التاسعة من الهجرة أي «سنة الوفود» أو بعد ذلك بقليل.

وعلى هذا التقدير الصحيح لا تكون «سورة النصر» آخر سورة نزلت على النبي(ص).

وأما سورة التوبة فإننا نرى في صدر السورة آيات البراءة من المشركين التي اتفقت الأمةعلى نزولها في شهر ذي الحجة من السنة التاسعة وبلغها أمير المؤمنين الناس في موسم الحج من السنة نفسها.

من جهة أخرى نجد آيات منها تتحدث عن شذرات من «غزوة تبوك» المتفق على وقوعهامن الفريقين في أواسط السنة التاسعة من الهجرة وينبغي أن يكون نزول الآيات المختصة بها أيضاًفي نفس

---

(١) سورة النصر.

تلك الفترة.

من هاتين النكتتين الدقيقتين ندرك أنَّ العمدة من آيات سورة التوبة نزلت في النصف الثانيمن السنة التاسعة من الهجرة إما أن تكون آياتها المائة بعد التاسعة والعشرين كلها نزلت في موضعواحد وأنها في النصف الثاني من السنة التاسعة فهذا قول لا طريق لإثباته. إذ كيف يدّعى أنَّ آياتها جميعاً نزلت في موضع واحد مع أننا نقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُانفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِالدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِيالآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّشَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَبِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ نزلت قبل الإعدادللتحرك باتجاه تبوك وأمثالها الآيات: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُفِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَىالثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لامَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ نزلت بعد رجوع النبي(ص) إلى المدينة.

وعلى هذا يكون القول بنزول آيات التوبة كلها في موضع واحد بعيداً عن الحقيقة.

وأما ما يظنه الظان من أن جميع آيات سورة التوبة نزلت في النصف الثاني من السنة التاسعةمن الهجرة شأنها شأن الآيات الأولى من سورة التوبة وآيات فذة وهي التي تتصل بغزوة تبوك وقدنزلت متفرقة هنا وهناك وكلها نزلت في تلك الحقبة من الزمن فإنَّ هذا القول محل جدل وبحثوسوف تتّضح (عندما نتكلم عن وضع سورة المائدة) الحقيقة حول ذلك لاحقاً.

وأما سورة المائدة فإن نزول الآية الشريفة فيها﴿ **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاتَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ﴾وينبغي أنْ تكون هذه الآية آخر فريضة نزلت من الدين وبها يتم اكتمال دين الإسلام ولم تنزل بعدهافريضة وهي مذكورة في سورة المائدة وبناءً على هذا تكون سورة المائدة آخر سورة نزلت علىالنبي لأنَّ فيها تشريع آخر فريضة من الدين وتبليغها، وبالطبع ينبغي أن يكون نزول آخر فريضة فيآخر سورة.

ولكن هذا الأمر لا يدلُّ على أنّ سورة المائدة نزلت في موضع واحد وأن آياتها جميعاً أوحيبها للنبي دفعة واحدة، بل يكون مفاد هذا الاستدلال في أن آخر فريضة من الدين التي كمل بتشريعهاالدين ولم يبق بعدها فريضة أخرى أعلن عنها في سورة المائدة. وأما تحديد آخر فريضة من الدينما هي؟! والتي بتشريعها كمل الدين ولم يبق فيه نقص قط فسوف نتعرض لذكرها في بحث الآيات الاستثنائية الواقعة في سورة المائدةفليرجع إليها من شاء.

وعلى أية حال، لا جدال في أن سورة المائدة هي آخر سورة من المفصّل نزلت على النبي(ص) وهي متضمنة آخر أحكام الإسلام وفرائضه ولذلك تسمّى في روايات الفريقين «ناسخة غير منسوخة» أي بما أنها نزلت في أخريات العهد النبوي من ثم تعتبر ناسخة لما نزل قبلها من القرآن ولم تنسخ آية منها قط.

وهذا ما يرتبط بسورة المائدة.

والآن نجري موازنة بين آيات «سورة التوبة» و «سورة المائدة» ونخرج بآخر نظرية معقولة تخص السورتين:

تحتوي «سورة التوبة» على ١٢٩ آية، واختص ثلاثة أرباعها بضعفاء الإيمان والمنافقين وبيان اختلاف منازل إيمانهم شدة وضعفاً، وكشف الأحوال النفسية لكل فئة منهم، والآيات الأولى منها يختص ثلاثة أرباعها بالبراءة من المشركين وإعلان القتال معهم.

ولكن سورة المائدة وتحتوي على مائة وعشرين آية ليس لها أي اتصال مباشر بالمنافقين ماعدا الآيات ٥١ إلى ٥٦ المرتبة بآية الولاية، وجميع آياتها ترتبط بفرائض الدين وأحكامه مع بعض الإيضاحات في مسألة أهل الكتاب وعقائدهم، ومع الأخذ بعين الاعتبار بأن سورة التوبة وسورة المائدة كليهما قد نزلتا في آخر العهد النبوي وكذلك مع الأخذ بعين الاعتبار بأن شدّة فعاليات المنافقين لا سيما المحترفون منهم كانت في تلك الأيام أعظم منها في السنين السالفة، كما شهدت بذلك سورة التوبة فإن النظرية الصحيحة في آيات هاتين السورتين ينبغي أن تكون على هذا النحو المعقول.

إنّ الآيات التي نزلت في آخر العهد النبوي لما اختصت بالأحكام والفرائض أو تناولت أهل الكتاب واعتقاداتهم فإنها اجتمعت كلها في سورة المائدة، ولكن الآيات إذا كانت نازلة في بيان حال المشركين أو بيان شقاوة المنافقين ووقوفهم في وجه تقدم الإسلام بما يبدونه من التعويق ويقيمونه من العقبات، فإنها اجتمعت في سورة التوبة وبناءً على هذا لا مانع من أن تكون الآيات المتصلة ببيان آخر فريضة من فرائض الدين نازلة في سورة المائة وفيما يقابل ذلك تكون الآيات الخاصة بالمنافقين وما يقيمونه من عوائق الدين، النازلة في أواخر العهد النبوي لتعزيته وتسليته عما يلاقيه من شعار المنافقين على دعوته ومقوماتها وهو على فراش المرض نازلة في سورة المائدة.

تناول السيوطي في الدر المنثور(١) بطرق مختلفة عن أبي بن كعب هذا الموضوع بالرواية التالية:

«إن أبي بن كعب كان يقول: إن أحدث القرآن عهداً بالله - وفي لفظ بالسماء - هاتان الآيتان: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾».

---

(١) ج٣، ص٢٩٥.

أجل، لو كانت الآيتان أعلاه آخر ما نزل على النبي من القرآن فلا تكونان نازلتين في حوادثمشابهة لحادثة «الدواة والكتف» التي وقعت في آخر أيام النبي(ص) حيث منع عمر وأعوانه منكتابة الكتاب كما أن اتصال الآيتين المزبورتين بما قبلها من الآيات الخاصة بفئة «الذين في قلوبهممرض» يؤيد هذا المطلب!

وإذا اتضح هذا الموضوع مار الذكر في هذا الفصل فإننا الآن نحاول إجراء بحث معمّق لآياتسورة التوبة.

متون الآيات من ١ إلى ٣٧ من سورة التوبة المرتبطة بالبراءة من المشركين

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ
خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)
إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا
إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ
(٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ
يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا
أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

(٣٧) ﴾.

بحث الآيات التي تعلق بها غرض البحث وتحليل مسألة رد أبي بكر من إبلاغ " آيات البراءة" وإقامة علي(ع) مكانه

ونقول عند بحث الآيات التي تعلق بها الغرض:

١ ـ أنتم تلاحظون أن السبع والثلاثين آية السالفة دارت حول هدف واحد في نظامها التركيبيوالهدف الواحد هذا الذي تعلقت به الآيات الثلاثين بعد السابعة هو البراءة والتنفر منهم والاشمئزازوأعلنت الحرب على أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم استطراداً مع هؤلاء.

٢ ـ يظهر من ملاحظة متون الآيات بخاصة الآية ٣ والآية ٢٨ أن زمن نزول الآيات الخاصةبالبراءة من المشركين هو قبل شهر ذي الحجة من السنة التاسعة للهجرة بقليل لأنه من المسلم به أنالنبي(ص) لم ينزل مكة بعد فتحها في السنة الثامنة من الهجرة إلى عام حجة الوداع التي وقعت فيالسنة العاشرة.

وبناءً على هذا تكون البراءة من المشركين «يوم الحج الأكبر في السنة التاسعة من الهجرةوالآيات المعهودة ينبغي أن يكون نزولها قبل موسم الحج من السنة التاسعة بفترة وجيزة.

٣ ـ ولما كان من المسلم به أن النبي لم يدخل مكة في السنة التاسعة لكي يبلغ المشركين آياتالبراءة على نهج الآيات المعهودة فينبغي أن يكون المبلغ لها شخصاً آخر غيره بالنيابة عنه «يوم الحجالأكبر» من السنة التاسعة كما يظهر ذلك من متن الآية الشريفة: «وَأَذَانٌ مِنَ الله وَرَسُولِهِ إِلى النَّاسِيَوْمَ الحَجِّ الأكْبَرِ أنَّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْغَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ٣»(١٧٩) ويمكن أن نستشعر النيابة نفسها من الآيةالشريفة.

٤ ـ اتفقت روايات الفريقين أن أبا بكر أول من اختير للنيابة في تبليغ «آيات البراءة» ولماتناولها بيده وسار قاصداً مكة بها فلم يسر مرحلة أو مرحلتين حتى استدعى النبيّ علياً(ع) وأمرهباللحاق به وأخذ سورة براءة منه والقصد بها مكة وأن يقرأها بنفسه على المشركين، فعمل علي(ع)بما أمره به رسول الله(ص) وأخذ آيات البراءة من أبي بكر وقصد بها مكة وبلغها المشركين في موسمالحج نيابة عن رسول الله(ص).

٥ ـ والآن ينبغي علينا التحقيق في هذا العزل والنصب لعل الأسئلة التي تراود ذهن كل إنسانفي هذا المورد بالذات طبعاً أن يجد المرء جواباً عليها وتظهر واضحة جلية لكل محقق لماذا اختيرأبو بكر لهذا الغرض أولاً وعين بذاته لإبلاغ آيات البراءة للمشركين؟!

ولماذا عزل بعد تعيينه وبعث علي(ع) بدلاً عنه؟

أما الجواب على السؤال الثاني فإن سبب ذلك هو الوحي، والأوامر الإلهية باتفاق رواةالفريقين فقد نزل الوحي على النبي بعد توجه أبي بكر إلى مكة وأمره ببعث علي بديلاً عنه وسوف يتم بحث هذا الأمر وتحقيقه فيما يأتي من الكتاب.

وأما الجواب عن السؤال الأول وهو لماذا اختير أبو بكر أولاً لتبليغ آيات البراءة إلىالمشركين فإننا نقول:

إن انتخاب أبي بكر لهذه المهمة سواءاً كان بتدبير من رسول الله نفسه أو بإشارة من أصحابهعليه فإنه انتخاب طبيعي لأنه لا يوجد في المسلمين ذوي السابقة من يحمل سمات أبي بكر منإدراكه مشاعر المجتمع المكي ومن تقدمه في السن الذي هو لون من ألوان التقاليد السائدة فيالمجتمع القبلي فيكون بناءً على هذا الأمر مورداً لقبول المشركين ونوعية المسلمين، وليس أحدغير أبي بكر له هذه المميزات بين المسلمين وله هذا التقدم كما ارتكز عند بعضهم بين المسلمين فهو «وجيه الملة»وبين المشركين محلٌ للاحترام والتقدير أجل هذا وإن كنّا اعتماداً على البحوث القرآنية التي جرتفي هذا الكتاب نعده من المنافقين المحترفين وتزعمه لهذه الفئة ثابت لا ريب فيه إلّا أنه في ظاهرلم يتلوث بعمل قبيح ويظهر من حاله لمن لا يعرفه طلب الخير للأمة بل هذه الصفة مقبولة عند السوادالأعظم.

وربما كانت هذه الصفات هي الأساس في تقدمه ورمز موفقيته.

وعلى أية حال، ما من ريب في أن شخصية أبي بكر في مجتمع الإسلام شخصية ظاهرة من تحيرى انتخابه لأداء هذا العمل

المهم ذي الظاهر السياسي انتخاباً طبيعيّاً ثم إن أبا بكر تناول سورةبراءة بشوق وشغف خارجين عن حدود الوصف وأسرع السير إلى مكة مع مرافقيه وكان يقطعالمسافات بنشاط زائد وغرور لا حد له وكان يعلم هو وأصحابه أن أداء عمل كهذا كفيل بأن يرفعهإلى سدة الحكم ويمهد الطريق لبلوغه مسند الخلافة.

ولكنه لم يكد يتجاوز هو وأعوانه المرحلة أو المرحلتين حتى نزل جبرئيل طبقاً لما رواهالفريقان ومعه من الله الأمر ب «لا يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك» نزلت من ذي الجلال ومنالحضرة الإلهية ومن المبدأ الفيّاض سبحانه أنه لا يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل من أهل بيتك لأنتكليف أداء الرسالة منوط بك أو بمن هو بمنزلة نفسك منك ولا يجوز إناطته بغيركما.

أجل إن البيان الإلهي الصادر إلى النبي لم يكن بالصيغة التالية: «لا يؤدي إلّا أنت أو رجلمنك» لأنه في هذه الصورة يتبادر إلى الذهن أن المؤدي مشارك للنبي(ص) في رسالته، وكذلك لمتأت الصيغة على الشكل التالي: لا يؤدّي عنك إلّا رجل منك لأن في هذه الصورة يكون قيد رجلمنك يعني مطلق القرب من النبي(ص) بلا تعيين لرجل مخصوص، ولكن الصيغة جاءت كالتاليفحسب: «لا يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك».

وبتعبير آخر: لن يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك ليؤدي المعني بشكل واضح الصورة التالية:ما وجب عليك وحدك تبليغه كتبليغ آيات الوحي ابتداءاً أو بيان أحكام الدين ابتداءاً أيضاً فإن

أداءذلك صرفاً يتوجب عليك أنت بالذات أو على رجل في مستوى طهارتك وعصمتك ولا يجوز أنيقوم بالمهمة غيركما، لأنّ أداء تكليف الرسالة لا يجب إلّا على النبي أو الإمام المعصوم ولا يناطذلك بغيرهما.

وبناءً على هذا لا تتوجه الأنظار إلى أحد يخلف نبي الله في مهام الرسالة إلّا إلى الإمام عليبن أبي طالب عليهما السلام لذلك عزل أمر الله أبا بكر بن أبي قحافة من أداء تلك المهمة، وعهد بها إلى شخصالإمام علي بن أبي طالب(ع) وكان فخر ذلك كله يعود إليه.

وعلى أية حال فإن النبي(ص) اعتماداً على أمر الوحي سارع إلى إرسال علي وأركبه علىناقته المختصة به المسماة بالعضباء أو القصوى وأمره أن يجد السير حتى يلحق أبا بكر عجلاً ويأخذ(آيات البراءة) منه ثم يذهب بنفسه إلى مكة ويقرأها في موسم الحج على الناس عامة وعلىالمشركين خاصة، ففعل علي ما أمره النبي به وعاد أبو بكر محبطاً باكي العين إلى المدينة وشكىأمره إلى رسول الله(ص) وقال: لم عزلتني؟! فقال النبي(ص): إن جبرئيل أتاني من الله تعالى وهويقول: لن يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك.

والآن نعرض عليكم نماذج من الروايات الصحيحة الخالية من الإضافات في هذا الباب:

١ ـ أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عنعلي‏ﷺ قال: لما نزلت عشر آيات من براءة

على النبي(ص) دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه. ورجع أبو بكر فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ قال: لا ولكن جبرئيل جاءني فقال: «لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك»(١).

٢ ـ «أخرج ابن مردويه عن أبي رافع قال: بعث رسول الله(ص) أبا بكر ببراءة إلى الموسم فأتي جبرئيل(ع) فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك فبعث علياً على أثره حتى لحقه بين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس في الموسم»(٢).

٣ ـ «أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله(ص) بعث أبا بكر ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث علياً على أثره فأخذها منه فكأن أبا بكر وجد في نفسه فقال النبيّ(ص) يا أبابكر إنه لا يؤدِّي عني إلا أنا أو رجل مني»(٣).

وروى البحراني في «تفسير البرهان» عن ابن شهرآشوب أنه قال: ولاه رسول الله(ص) في أداء سورة براءة وعزل به أبا بكر بإجماع المفسرين ونقلة الأخبار.

رواه الطبري والبلاذري والترمذي والواقدي والشعبي والسدّي والثعلبي والواحدي والقرطبي والقشيري والسمعاني وأحمد بن حنبل وابن بطة ومحمد بن إسحاق وأبو يعلى الموصلي والأعمش وسماك

---

(١) الدر المنثور، ج٣، ص٢١٠.
(٢) الدر المنثور، ج٣، ص٢١٠.
(٣) الدر المنثور، ج٣، ص٢٠٩.

بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير وأبي هريرة وأنس وأبي رافع وزيد بن نقيع وابن عمر وابن عباس واللفظ له:

٤ ـ لما نزل براءة من الله ورسوله إلى تسع آيات، أنفذ النبي(ص) أبا بكر إلى مكة لأدائها فنزل جبرئيل قال: إنّه لا يؤدّيها إلا أنت أو رجل منك، فقال النبي(ص) لأمير المؤمنين: اركب ناقتي العضباء والحق أبا بكر وخذ براءة من يده. «قال: ولما رجع أبو بكر إلى النبي جزع وقال يا رسول الله(ص) إنّك أهّلتني لأمر طالت الأعناق فيه فلما توجّهت إليه رددتني عنه فقال(ص): الأمين هبط إليَّ عن الله تعالى: أنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك وعلي مني ولا يؤدّي عني إلا علي»(١)(٢).

٥ ـ «أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسّنه وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال: بعث النبي(ص) ببراءة مع أبي بكر ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي [وفي لفظ آخر: من أهل بيتي] فدعا علياً فأعطاه إياه»(٣).

وبطبيعة الحال يشهد البحث المتقدم العائد إلى شرح مفاد آية التطهير وثبت بالدليل والبرهان أن مصطلح أهل البيت الخاص بلغة الوحي منحصر بعلي بن أبي طالب(ص) وفاطمة الزهراء والحسنين(ع)

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب، ج١، ص٢٩١.
(٢) تفسير البرهان، ج٢، ص١٠٥.
(٣) الدر المنثور، ج٣، ص٢٠٩.

ومن هذا الحديث يعلم أن مفاد رجل من أهلي» و «رجل من أهل بيتي» الوارد في الحديث هو مفاد «رجل منك» و «رجل مني»عَينُه المذكورين في الأحاديث الأخرى، وجميعها لا تنطبق على أيّ إنسان إلا علي بن أبيطالب(ع).

وهذا هو النموذج الذي تحدثنا عنه من أصح الروايات، الذي حدّد البحث آنف الذكر حدودسلامتها من العيوب، كما تلاحظون أن الروايات أعلاه جعلت مهمة أبي بكر في سفره إلى مكة هوتبليغ آيات البراءة في موسم الحج لا غير. ولكنه عزل من هذه المهمة بعد نزول الوحي وأقيم بديلاًعنه الإمام علي بن أبي طالب(ع) لأداء هذه المهمة، ولكن مع مزيد الأسف هناك روايات ذات مفادخاص وردت في مجاميع العامة الحديثية ويظهر عليها الصنع وإعمال النظر والتلاعب وتحكمالذوق الخاص ويلوح للباحث من خلال دلائل جملها ولحنها ذي الواقع الخاص بصورة واضحةتامة أن النكسة التي ألمت بالمنافقين المنحرفين من عزل أبي بكر ونصب علي(ع) بعد وفاةالنبي(ص) وقد أصبحت الحكومة بأيديهم واستولوا على مقدرات الحكم فقد لجأوا إلى الوضعليسدلوا الستار على هذا العزل من جهة أخرى قد بالغوا في تهوين نصب علي لهذا التبليغ إلى الحدالذي حملهم على ادّعاء انضمام غيره معه من المؤذنين بآيات البراءة في موسم الحج وجعلوا أباهريرة المشهور واحداً منهم.

وجملة الروايات الحاوية لهذا الوضع مروية عن أبي هريرة نفسه أنه يقول في إحدى رواياته: «بعثني أبو بكر في مؤذنين بعثهم

يوم النحر يؤذنون بمنى».

وفي رواية أخرى يقول: كنت مع علي حين بعثه رسول الله إلى أهل براءة فكنا ننادي».

وفي رواية ثالثة يقول: «إن أبا بكر أمره أن يؤذن ببراءة ثم اتبعنا النبي علياً أن يؤذن ببراءة».

وفي رواية رابعة يقول: فكنت أنادي حتى صحل صوتي». ويقول ... ويقول ...!

مضافاً إلى مواقع الكذب في روايات أبي هريرة عند مقارنتها مع بعضها البعض تقول:

(لو كان لأبي هريرة بديل يبلغ معه أو عنه آيات البراءة ابتداءاً في موسم الحج فلماذا لم يكن لأبي بكر ذلك البديل عندما عزل من منصب التبليغ)

إنّما يراد من هذه الأقوال الموضوعة التقليل من شأن تبليغ «آيات البراءة» بواسطة الإمام علي بن أبي طالب(ع) من جهة أخرى نجد القوم وضعوا منصباً مفتعلاً لأبي بكر سمّوه «أمير الحاج» لكي يسدّ الثغرة الحادثة من عزله ويبقى علي في هذا السفر تابعاً لأبي بكر.

يقول عروة بن الزبير وهو ممن لا يخفى عداؤه للإمام علي(ع) في هذا الشأن: «بعث رسول الله(ص) أبا بكر أميراً على الناس سنة تسع وكتب له سنن الحج وبعث علياً بآيات من براءة فأمره أنْ يؤذن

بمكة وبمنى وعرفة وبالمشاعر كلها بأنه: برئت نمة رسوله من كل مشرك حج بعد العام أوطاف بالبيت عريان وأجل من كان بينه وبين رسول الله عهد أربعة أشهر وسار علي على راحلته فيالناس كلهم يقرأ عليهم القرآن: براءة من الله ورسوله وقرأ عليهم يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلمسجد الآية»(١)

نحن لا نعلم السبب من رجوع منصب أمير الحاج الذي أحدث في عهد الخلفاء القهقرى إلىعهد رسول الله(ص)، والمنصب لا يعدو كونه من المناصب الفخرية، وكأنما أعطي الإسلام الواقعيأيضاً نكهة مثل هذه المناصب وكأنما السرّ في هذه التقهقر هو صيانة ماء وجه أبي بكر ومن المحتوم أنَّ الهدف كله يصب في هذا الوادي.

وإلّا فهل كان للمشركين «أمير حاج» لكي يبني الإسلام صفوف الحج على هذا الشكل ليحفظللمسلمين توازنهم ووحدتهم عند أداء هذه المناسك، أو أن تعيين «أمير حاج» هو جزء من مهامالإسلام وتكليف من تكاليفه الشرعيّة فإذا كان الأمر كذلك فلماذا خلت الآيات والروايات من ذكرهولزوم إيجاده ولم تصرح به؟!

وإذا كانت الحاجة إلى تعيين أمير للحاج في السنة التاسعة هي لإعلان البراءة من المشركينوتحريم دخول الكفار إلى المسجد الحرام ومنع طواف العراة منهم حول الكعبة وأمثال ذلك وكانتالعهدة بتبليغ ذلك على علي بن أبي طالب(ص) في موسم الحج فما الحاجة بعد هذا إلى تعيين أبي بكرأميراً للحاج، وإذا كان

(١) الدر المنثور، ج٣، ص٢١٠.

تعيين أمير للحاج من أجل تعليم المسلمين مناسك الحج وتوضيح ذلكللأعراب القاطنين في شبه الجزيرة العربية فإن الإسلام لم يحدث في هذه المناسك تغييراً جذرياًليستلزم هذا الأمر، وإذا كان تعيين أمير للحج لتعليم السنن الإسلامية في الحج فإنها شرّعت فيالسنة العاشرة للهجرة مع نزول هذه الآيات: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنْ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾(١).

وهذه المناسك تم تعليمها الناس في حجة الوداع بواسطة المصطفى(ص) وبناءً على هذا يتضح جيداً أن عبارة: «وكتب له سنن الحج» التي وردت في أقوال عروة أنها من وضعه ولذلك لانجد لها أثراً في باقي الروايات.

مضافاً إلى هذا أن مكة يومئذٍ كانت مفتوحة تحت ظل الإسلام وكان عتّاب بن أسيد حاكمهامن جهة النبي(ص) وينبغي أن تكون حكومته بالضرورة ناظرة في نظم البلاد واتساق أمورالحجاج، وأن تبذل أقصى الجهد في توفير الأمن والرفاهية للحاج وعلى هذا فهو بناءً على مقتضىوضع حكومته (سواءً كان هو أمير الحاج من قبل النبي(ص) أو لم يكن) أمير الحجاج المسلمينوغير المسلمين ولابدَّ من أدائه مناسك الحج مع المسلمين كما كان الوضع في السنة التاسعة علىهذه الوتيرة، فأدّى جميع الأعمال من دون أن يعهد إليه النبي(ص) بإمارة الحج.

[مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٩، أنساب الأشراف في ذكر غزوة الطائف ج ١ ص ٣٦٨].

فما الذي يبقى بعد هذا كله لأبي بكر ليكون أمير الحج.

---

(١) سورة البقرة.

أجل، الأمر واضح جداً، إنَّ جميع هذه الجعجعة والضجيج ذات العلاقة بأمير الحج في تلكالروايات إنّما هي خطة محبوكة من تدبير «جهاز الوضع الخليفي» بعد وفاة النبي(ص) لأمرين:

الأمر الأول: هو صيانة ماء وجه الخليفة الذي ذهب هدراً بعد عزله وتقويضه بذلك عما خسرهمنه.

والأمر الثاني: هو ترشيحه لاستحقاق أمر الخلافة بهذه الرواية المفتعلة والحديث المختلق كماورد هذا السبب مذكوراً ومنصوصاً عليه في رواية عبدالله بن عمر التي نذكرها في ذيل هذا الكلاموهي واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار:

«أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله(ص) استعمل أبا بكر على الحج ثم أرسل علياًببراءة على أثره ثم حج النبي(ص) العام المقبل ثم خرج فتوفي فولّي أبو بكر: فاستعمل عمر علىالحج، ثم حج أبو بكر من قابل ثم مات، ثم ولّي عمر فاستعمل عبدالرحمن بن عوف على الحج ثمكان يحج بعد ذلك هو حتّى مات ثم ولى عثمان فاستعمل عبدالرحمن بن عوف على الحج ثم كانيحج حتى قتل»(١).

أنتم تلاحظون هنا بأنَّ عبدالله بن عمر راوي الحديث جعل رتبة «أمير الحاج» تلي رتبةالخلافة وأنها إشارة إلى استحقاق صاحبها الخلافة.

(١)الدر المنثور ج ٣ ص ٢٠٩.

هذا ما كان من شرح حال تلك الروايات وقد رأينا أنها مصممة على تهوين موضوع التبليغلآيات براءة بواسطة الإمام أمير المؤمنين(ع).

ومن جهة أخرى وضعت أيضاً لصيانة ماء وجه الخليفة الأول المهراق وتعويضه عما لحق بهمن الهوان بسبب تنحيته من تبليغها وإبرازه بصورة منتفخة كبيرة أمام مشاهديه.

وأيضاً: هذا وإن استطاع جهاز جعل الحديث ووضعه بالموضوعات سالفة الذكر أن يبقي علىشيء من حيثيّة أبي بكر وماء وجهه له ولأفراد حزبه إلا أن في هذه المدة المديدة من الزمان لابدَّ وأن يطلع سؤال في خلد كل إنسان ملحٌ وهو ما هو السبب الذي حمل الوحي على عزل أبي بكرونصب علي بن أبي طالب(ع) مكانه والواقع أنَّ هذا التساؤل في محله لا سيما لأصحاب الخليفةوأتباعه وأهل وده لأنَّ الأثر الذي تركه العزل في نفس أبي بكر بحيث أقبل على رسول الله جازعاًفزعاً وهو يقول: «يا رسول الله أهّلتني لأمر طالت الأعناق فيه فلما توجَّهت له رددتني عنه»لابدَّ وأن يترك مثله في نفوس أصحابه فيتساءلون على نفس المستوى.

وهذا التساؤل حمل ابن كثير بعد القرون المتمادية ومن على شاكلته أن ينحتوا له جواباًويوجدوا للرجل عذراً وجوابهم هو على هذا النحو: ما رأيناه من عزل النبي أبا بكر عن تبليغ آياتبراءة ومصادرتها منه ودفعها لعلي بن أبي طالب(ع) ليقرأها في موسم الحج على المشركين كانللسبب التالي: وهو أن من سنن عرب

الجاهلية في نقض العهود حين يضطرون لذلك العهدة في ذلكعلى من أبرمها أولاً أو على رجل من أهل بيته. ويتم النقض بواسطة هذين الاثنين دون من عداهماولما لم يكن النبي قد ذهب إلى مكة لينقض العهد بنفسه لذلك أمر علياً(ع) بتولي ذلك وكالةًعنه(ص) ولذلك نراه قد خاطب أبا بكر بقوله: «إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني».

وهو في الحقيقة شبيه بالاعتذار لأبي بكر فكأنه يقول له: إني من أجل هذا عزلتك وأقمت علياًمقامك لكي نجري على سنن العرب في نقض العهود.

وهذا خلاصة الحديث عن ذلك العزل والنصب الذي استجد على ألسنة القوم وأقلامهم بعدتلك السنين الطويلة.

والآن علينا التحقيق في هذا الحديث الذي يتضمن الجواب عما دار من تساؤل مفروض:

أولاً: إن ادعاء وجود سنة معمول بها عند عرب الجاهلية كهذه السنة لا دليل عليه أبداً، ولايمكن إثباته، وهذه أيامهم ومغازيهم تشهد بذلك فليس من أثر بينهم موجود يدل على ذلك.

ثانياً: لما اعتبر تخلف فرد من أفراد القبيلة من المتعاهدين وإن كان أمراً طفيفاً عما اتفقا عليهيعد نقضاً مذموماً (كما دلَّ على ذلك نشوء المصادمات ونقض العهود العربية بسبب مثل هذا التخلفالتافه الذي لا شأن له).

إذن كيف يعقل أنّ ردّاً لمعاهدة من قبل كبير القوم لطرف من الطرفين لا يعد نقضاً؟!

ثالثاً: لو كان عزل أبي بكر عن التبليغ وإقامة علي(ع) مقامه كان لهذا الغرض فلماذا نصبهالنبي أولاً ثم عزله وكان الأجدر به جرياً على سنن القوم المدّعاة أن لا يلهو بالشيخ ويريق ماءوجهه لا لسبب معقول.

رابعاً: بما أنّ الحكم والقوة كانت يومذاك في الطرف الإسلامي ومدينة مكة تدار بواسطةحاكم مسلم هو «عتاب بن أسيد»فإنّ نقض العهد جارٍ مجرى اليقين عند المشركين من النبيبواسطة قوم هم نظراء أبي بكر وأشباهه تحت ظل حكومة فرضها الإسلام عليهم فليس هناك شكيراود المشركين بأنّ نقض العهد حاصل لا محالة في ظروف كهذه الظروف.

خامساً: لو كانت هذه السنة الجاهلية موجودة بين العرب كما يزعمون وكانت هي السبب فيعزل أبي بكر ونصبه فلماذا خفيت على طبقات الصحابة والتابعين وهم أدرى بالآداب والتقاليدالمعمول بها في العصر الجاهلي قطعاً لقرب زمانهم من ذلك العهد، وهم أعلم بهذه الأمور ممن جاءبعدهم فلماذا أصيب بالخرس جميعهم عن الاحتجاج لأبي بكر بهذا ونحوه وما عللوا بها عزلالشيخ ونصب مضاده حتى إذا جرى الزمن بقرونه ودهوره انكشفت الحال لابن كثير وأقرانه فجاءبآخرة يحتج لأبي بكر بها أن هذا لشيء عجيب.

أجل إنَّ الحقيقة تجلّت لنا على خير وجه، فكانت العلة الأصلية

في عزل أبي بكر ونصب علي في مسألة التبليغ الابتدائي لآيات براءة التي هي أولاً وبالذات مختصة برسول الله ومسؤولية منوطة به وحده ولما كان النبي يومها خارج مكة حين الإبلاغ ليكون في موسم الحج قادراً على تبليغ كلام الله وأوامره من ثم انتقلت العهدة بعد النبي للتبليغ الابتدائي للآيات السماوية إلى رجل هو بمثابة نفس رسول الله (ص) وهو نظيره في العصمة والطهارة الذاتية ولم يكن ذلك الرجل سوى علي بن أبي طالب (ع)، وقد نزل ملاك الوحي على النبي (ص) بهذا الأمر وعرض عليه مؤدى الجملة التي أجمع الفريقان على روايتها وهي: «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» وهذا هو السبب الأصلي في ذلك العزل والنصب!

وإلى هنا ننهي البحث في الآيات الأولى من سورة التوبة من حيث صلتها ببحوث هذا الكتاب ونشرع في الفصل القادم بتحقيق الآيات ذات الارتباط ب «غزوة تبوك» وهي جانب آخر من آيات السورة نفسها إن شاء الله تعالى.

تحقيق الآيات ذات الصلة "بغزوة تبوك"

وسر استخلاف

علي بن أبي طالب(ع) على المدينة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾.

من ظهر من الآيات مورد للبحث:

١ - يظهر من الآيات الأربع (الآيات ٣٨ إلى ٤١) بصورة واضحة بأنَّ جماعة من المؤمنينالعاديين رفضوا دعوة النبي للجهاد في سبيل الله فلم يخرجوا معه في الغزوة التي ذكرتها هذهالآيات، وامتنعوا من قبول ذلك كما جاء في خطابهم في الآية الأولى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْإِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ...**﴾ فوبخهم فيها على تثاقلهم وتواكلهم في أمرالجهاد وانشغال قلوبهم بمتاع الدنيا التافه وفي الآية التالية أي الآية الشريفة: ﴿**إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْعَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ...**﴾ فتوعدهم بالعذاب والهلاك واستبدالهم بغيرهم، وكان هذاالوعيد عاماً.

ثم في الآية الثالثة (المعروفة بآية الغار) انجر الحديث إلى

حكاية الهجرة فوضع يده علىصدور المؤمنين المعنيين بالأمر فقال: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...**﴾إنْ كنتم لا تنصرونه فقدشاهدتم كيف نصره الله ساعة الهجرة ولم يكن معه ناصر ينصره ولا جيش يخفره واختبأ بغار ثورولم يكن معه من أحد إلّا أبو بكر. وكان هذا الرجل أيضاً عبأ ثقيلاً عليه، فقد أظهر الفزع والهلع عنداقتراب العدو من فم الغار وفارقه الصبر وصاحبه الجزع حتى آذى بذلك رسول الله وفي هذه الحالةالصعبة أنزل سكينته على رسوله وأيده بجنوده الغيبية.

وخلاصة الكلام أنَّ الآيات السالفة تظهر بوضوح أنَّ جماعة من المؤمنين العاديين في الغزوةالتي عنتها آيات سورة البراءة امتنعوا من الجهاد وما من ريب في هذا الأمر وسوف يتضح هذاالمطلب أكثر وأكثر في آيات أُخرى تبحث بعد هذا المورد.

٢ - يظهر من الآية الثانية بوضوح تام أعني الآية الشريفة: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداًلَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ...**﴾(١) أن الغزوة الوحيدة التي بعد طريقها، وصعبت علىالمسلمين لأنَّ عدوهم الذي سوف يقاتلونهم هم الروم، وبما أنها وقعت في فصل الصيف وكذلك فينضج الثمار وجني المحاصيل فكان السفر إلى تلك الجهات مخالفاً لهوى عامتهم ومضاداً لهوسهم.

٣ - ويظهر من الآيات الأربع الأخر (٤٥ إلى ٤٨) بوضوح أن المنافقين العاديين لاسيما ذووااليسار منهم امتنعوا من الخروج في

(١) سورة البقرة: الآية ٤٢.

غزوة تبوك، وأما الفقراء منهم فمن البديهي أنهم لم ينقلوا خطوتما في تلك العرصة لأنّه لما لم تكن في هذه الغزوة مطامع تداعب أحلامهم ولا ينالون منها إلا التعب وبعد الطريق والنصب والجوع والعطش في تلك الفيافي المقفرة كما أن الحرب مع الروم تجسدالموت المحتم أمام أعينهم، فكيف يقدم قوم منافقون على مثل هذا الجهاد لا سيما وهم يرون أهل الثروة واليسار منهم يلوذون بالفرار ويمتنعون من الخروج إلى الجهاد.

إنّ الدقة في تدبر مضامين الآيات عن غزوة تبوك (التي تم بحث أحدى عشرة آية منهاوسنوافيك ببحث الآيات الأخرى تباعاً إن شاء الله) يضع الإنسان أمام مشهد مريع في المدينة مركزنشر الدعوة، مشهد فيه تقاعس المنافقون العاديون جميعهم ثريّهم ومعدمهم عن الخروج إلى الجهادوأصروا على البقاء في المدينة. ولم يكن فيها من المدافعين عن الإسلام إلا المؤمنون العاديون وضعفاء الإيمان.

أجل هؤلاء القوم صحبوا رسول الله إلى غزوة تبوك والآن هو قاصد تلك الديار مع مرافقيه وأمامه أطول طريق قطعه وأخطر غزوة غزاها وبطبيعة الحال سوف يحتل المدينة حال سفره القوم الذين وصفتهم الآية الكريمة: ﴿**لَقَدْ ابْتَغَوا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُاللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾، وكانوا من قبل سبباً لإيذاء النبي وتعكير الصفو وتعطيل الأمور.

وعلى هذا الحساب كيف تكون المدينة بعد غياب النبي(ص) عنها بخاصة إذا ما دارت الدائرةعلى النبي وأصحابه وهذا سؤال

ينبغي أن يتم الجواب عليه بعد بحث الآيات المرتبطة بالموضوع ليتبين لنا تصرف النبي في هذا الظرف الدقيق وكيف ملأ الخلأ الذي خلفه سفره عن المدينة.

والآن نعود إلى الآيات ذات الصلة بغزوة تبوك وتحقيقها كي نستجلي بعض الغوامض من إثارة معانيها إنْ شاء الله.

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ

الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)
وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
(١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا
تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ
صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ
وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
(١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
(١٠٦) ﴾.

ما تقدم هو الست والعشرون آية (الآيات ٨١ إلى ١٠٦) من سورة التوبة وهي كسابقتها من الآيات (الآيات ٣٨ إلى ٤٨) ترتبط بغزوة تبوك.

ونقول في بحث الآيات المتقدمة:

مضافاً إلى ما فهمناه من الآيات الأحدى عشرة الماضية فإن الآيات أعلاه تدل دلالة واضحةعلى أن «المنافقين العاديين» من أعراب البادية الساكنين في ضواحي المدينة وأطرافها امتنعوا همأيضاً عن الخروج إلى غزوة «تبوك» فكانوا كإخوانهم منافقي المدينة سواء ثريهم وفقيرهم تقاعدوا عن اللحاق برسول الله في جهاد تبوك وأبوا أن يخرجوا معه، والدلالة في الآيتين التاليتين على ماتقدم أشدّ وضوحاً: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِوَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِوَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ فإننا نفهم منها أن المنافقين الأعراب البُداة أعظم شراً وأكبر خطراً من منافقيالمدينة، وهم أشد شراسة في عدائهم للإسلام يستوي بذلك الرئيس والمرؤوس.

وبناءً على هذا فما استنبطناه من ارتباك الوضع في المدينة بعد غياب النبي عنها واشتداد أزمةالخطر عليها تثبته الآيات أعلاه إثباتاً أوثق وأقوى، ويظهر لنا يقيناً أن النبي إذا لم يهتمّ بشأن المدينةوهو يغادرها إلى بلاد الروم في هذه المسيرة الطويلة ولم يحكم أمرها ويبالغ في حراستها ولم يسلمعنان الاختيار في مركز نشر الدعوة إلى شخص ممتاز ذي كفاية فإنه من المسلم به والمتيقن أنْ تكون جميع نواميس الإسلام ومبادئه تحت خطر موجة منافقي المدينة وأعراب البادية وهويخوض ومعه المؤمنون أشرس حرب مع أشرس عدو

يتاخم حدوده ويتربع على مداخل ومخارج الشرايين الحيوية من الجواد والطرق.

فلننظر الآن من هي هذه الشخصية الممتازة؟! وما الذي يعني استخلافه في المدينة من إحباط خطط الخصوم وإبطال نواياهم.

والآن نعود إلى باقي الآيات ذات الصلة بالموضوع وبحثها لتهيأ لنا القاعدة التي تساعدنا على بلوغ النتائج العامة.

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً

فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾.

وهذه هي الآيات الست مضت في أعلاه (الآيات ١١٧ إلى ١٢٢) وهي آخر ما نزل من الآيات في غزوة تبوك، وفي بحثها نقول:

١ ـ يظهر لنا بمعونة البحث الذي أجريناه في المقطع الثاني عشر عند بحثالآية الشريفة: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ...**﴾ في التعرف على كلمتي «المهاجرين» و «الأنصار» في الاصطلاح الخاص بالقرآن الكريم وعرفنا أنَّ القرآن الكريم خصصهاتين المفردتين للإطلاق على المؤمنين الواقعيين من المهاجرين والأنصار المتواجدين في عهدالنبوة فحسب. فأنّ الآية الشريفة﴿**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِيسَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾(وهذهِ الآية هي الأولى من الآيات الست التي يجري بحثها).

إنّ المؤمنين المشاركين في غزوة تبوك هم المؤمنون الحقيقيون الواقعيّون، وهم بالضرورةالأقلية في الناس والمؤمنون الأكثر العاديون والمبتدئون وضعفاء الإيمان أبوا المشاركة في هذهالغزوة كما استفدنا هذا المطلب قبلاً من الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُانفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ**

بالحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا فِيالآخِرَةِ إلَّا قَلِيلٌ﴾ ومثالها من الآيات.

٢ ـ من المسعد حقاً بأن الموضوع الذي ذكرناه يستفاد من الآيات التالية، كالآية الشريفة: **﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...﴾** ويفهم منها أن الأشخاص الثلاثة وإن تخلفوا عن غزوة تبوكفإنهم لسلامة إيمانهم وأنه إيمان واقعي لذلك وفقهم الله للتوبة النصوح لذلك شملهم الله برحمتهوأخبر عن ذلك سبحانه والآية الشريفة **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** التيوضعت بعد الآية المختصة بهؤلاء الثلاثة تدعو المسلمين بسلوك طريق هذه الأقلية وهم الصادقونوتأمرهم بأنَّ يكونوا مؤمنين واقعيين ولا يعصوا أمر رسول الله(ص) ولا يتخلفوا عنه. وكذلكيستفاد من الآية الشريفة: **﴿مَا كَانَ لأهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِالله وَلا يَرْغَبُوا بِأنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾** بوضوح أنَّ الأكثرية من المؤمنين ساكني المدينة والباديةالمحيطة بها تركوا أمر رسول الله وراءهم ظهرياً ولم يخرجوا معه للجهاد(١).

نعم، يستفاد من آخر آية أي الآية الشريفة: **﴿وَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّفِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّين**

(١) لا يخل أحد أنَّ الوجهة الأصلية للخطاب في الآيتين السالفتين تقصد المنافقين العاديين أو الأعراب المحيطين بالمدينة؛ لانه من الواضح أنَّ المنافقين لا يعتقدون بالجزاء الأخروي المذكور في الآيتين لكي يكون بيان ذلك الجزاء محفزاً لهم على الحضور وبناءً على هذا يتجلى لنا من ذكر الجزاء أنَّ الوجهة الأصلية للخطاب هم المؤمنون لا سيما الأكثرية منهم الذين تقاعدوا عن الحضور في تبوك.

وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ بوضوح ظاهر أن جماعة المؤمنين المختلفة ومعهم أقرباؤهم لم يحضر مع رسول الله قليل منهم حتىما كان عدد قليل من كل فرقة حاضراً مع النبي في غزوة «تبوك» وعدد الحاضرين من المؤمنينمحصور بتلك الأقلية وأكثرهم حيث لم يكن للدين رسوخ في نفوسهم أو كانوا من المؤمنينالبدائيين أو ضعفاء الإيمان ويؤلفون السواد الأعظم من المسلمين تذرعوا بالمعاذير المختلفةوتقاعدوا عن الخروج مع رسول الله(ص) للجهاد وأبوا ذلك عليه، وإلّا فلا معنى للتوبيخ بهذا الجزءمن الآية﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ** ﴾ بغير هذه الصورة.

وعلى أية حال فقد ظهر لنا من البحث في مجموع الآيات الماضية المرتبطة بغزوة تبوك:

أولاً: أنَّ المنافقين العاديين من أهل المدينة وأعراب البادية المحيطين بها لم يشارك أحدمنهم في الغزوة لأنَّه في سفر بهذا الطول والامتداد وما فيه من المشقات لا يوجد طمع يغريهمبالمشاركة أبداً.

ثانياً: شارك النبي بهذه الغزوة من أهل الإيمان والمنتمين إلى الإسلام جماعة معدودة منالمؤمنين الحقيقيين الواقعيين الذين كان إيمانهم بالنبي إيمان تسليم ومحبة وكما أخبرت الآيةالشريفة: ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ** ﴾ المذكور في الآية حتى هؤلاء الذيناستجابوا لله ورسوله أو شك فريق منهم أن تتغير قلوبهم ويصيبها الانقلاب عما هم عليه ويتركواالنبي وحده ولكنّ رحمة الله أحاطت بهم فثبّت قلوبهم عن الضلال في وديان الهلاك «ثم تاب

اللهعليهم إنه بهم رؤوف رحيم».

وبناءً على هذا فإنه من جهة بلغ بنا حد اليقين أن ما ذكرته روايات الفريقين من كثرة عددالمسلمين الذين خرجوا مع النبي للجهاد بحيث بلغوا بهم الثلاثين ألفاً كذب محض لا ينسجم معالبحث السابق في القرآن الكريم ولا يمكن تصديقه على أساس شرائط الزمان والمكان وقرائنحاليهما.

ومن جهة أخرى: لما أثبت البحث القرآني عدم حضور المنافقين العاديين في تلك الغزوة فإنّه يكون من الطبيعي أن يتصدّى المنافقون المحترفون لاغتيال النبي بعد عودته ومروره بمضيق العقبة،والبحوث السالفة تحملنا على القطع بذلك، إنه الفريق نفسه الذين نجم أفراده في صدر الإسلام وفيالفترة المكية، وظهر لهم وجود بيّن في مكة وتمكنوا بأساليبهم الشيطانية من النفوذ في المجتمعالمسلم وتظاهروا بالإسلام ولبسوا ثياب المؤمنين الواقعيين وبدوا وكأنهم استكملوا خصالالإيمان، وتقدموا بين المسلمين حتى حالفهم الحظ وتمكنوا من الترأس عليهم.

نعم نحن فيما سبق من بحوث هذا الكتاب تعرفنا على وجوه بارزة معروفة منهم فلنعرف فيمايأتي واضعي خطة «حادثة العقبة» من هم من بين أفراد هذا الفريق.

والآن آن الأوان لنجيب عن السؤال الذي عرضناه في بداية الآيات الخاصة بغزوة تبوكونعرف الحق منه.

والسؤال هو:

لما علمنا من بحث الآيات المرتبطة بغزوة تبوك أن المنافقين العاديين من أهل المدينة والبدوالقاطنين في أطرافها لم يلبوا دعوة النبي في الخروج إلى الجهاد وأقاموا في المدينة (مركز نشرالإسلام) من جهة أخرى فإن المؤمنين الواقعيين صحبوا النبي إلى الغزوة فخلت المدينة عندئذ منالمدافعين عن الإسلام الحقيقيين والذين أقاموا في المدينة هم من المؤمنين ضعاف الإيمان، لايهمهم أمر الإسلام بكثير ولا بقليل وحينئذٍ لابدَّ من عروض السؤال التالي في الأذهان:

الآن وقد غادر النبي المدينة ومعه المؤمنون الحقيقيون وقد خلت منهم في أطول سفر جرى لهبعد النبوة وفي نفس الوقت وضع خطة لخوض أصعب حرب وأشرسها، وقد فرغت المدينة منالمهتمين بالإسلام الباذلين النفس والنفيس في سبيله وقد أحاط بالمدينة أعراب البادية وهميحرقون الأرم على الإسلام كما نصت الآيات الكريمة على ذلك: ﴿**لَقَدْ ابْتَغَوا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوالكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾، ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّايَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماًوَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾، ويريدون محو الإسلام عن جديدالأرض وتعطيله. وهم يتحينون مثل هذه الفرصة وينتظرون عروض مثل هذا اليوم وخامرهم ظنقوي بأنَّ النبي والمؤمنين سوف يقضى عليهم تماماً في الحرب مع الروم وفي أوضاع مثل هذهالأوضاع وظروف كهذه

الظروف المتعسرة ما هو مصير نواميس المسلمين وكيف تتم حراسة مركزالإسلام وحفظه وما الذي اتخذه النبي من تدبير حكيم ليملأ هذا الفراغ الحادث بعد سفره إلى تبوكوبيد من يعطي زمام الاختيار في ولاية المدينة ومَن مِن ذوي الكفاءات اختاره ليحل محله.

ونجيب على هذا السؤال فنقول:

اتفق الشيعة على أن النبي اختار علياً في سفره ليستخلفه على المدينة وسلمه زمام الاختياروأمره بحفظ نواميس المدينة وحراستها ولما رأى المنافقون أن اختيار علي لهذه المهمة يحول بينهموبين مقاصدهم لذلك بدأوا في إشاعة التهم والأقوال الباطلة حتى قالوا: إن النبي خلفه في المدينةلبغضه إيّاه ولأنه آذاه، وقد سقط من عينه لا احتراماً أو تجليلاً له ولا إكباراً لمنزلته أو إعزازاً لمقامهولما سمع الإمام مقالة المنافقين اشتمل على سيفه ولحق برسول الله وقال للنبي إن المؤمنين أشاعواعن تركك إياي في المدينة إشاعات باطلة، فقال له النبي(ص): أما ترضى أن تكون مني بمنزلةهارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي وعند ذلك أي عندما اتضح الحق وتلألأت شخصية الإمام فيأعين المنافقين ورد الله كيدهم في نحورهم وانقلب السحر عليهم عاد الإمام إلى المدينة وبقي ساهراًعلى حمايتها مراقباً لأوضاعها حتى عاد النبي(ص) من تبوك. وكان الإمام عليه سدّاً منيعاً حمى اللهبه نواميس المسلمين من شر عدوهم.

وهذا ما كان من أمر الجواب عن مجموع الروايات الشيعيّة حول السؤال المتقدم.

أما روايات العامة فهي وإن اتحدت مع الروايات الشيعيّة من كون النبي ترك علياً في المدينةولم يأذن له بصحبته إلى تبوك، وأراد منه البقاء في المدينة نائباً عنه وقال قولته المشهورة في حقهبعد أقوال العدو التافهة: «أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»(١٨٦) وعاد إلى المدينةولكن الروايات السنية تختلف مع الروايات الشيعية في بعض الموارد فإنهم يقولون إن النبي استخلفهفي المدينة ليرعى شؤون أهل بيته وأعطى زمام القيادة لغيره وما كان الاستخلاف لعلي ولا فوضإليه أمراً من أمور القيادة هكذا يقولون.

لكن إحدى هذه الروايات ستكون بمثابة الانموذج ثم نشرع في تحقيق أصل الموضوع:

قال الطبري في تاريخ الأمم (الرسل) والملوك(١): «وخلف رسول الله(ص) عليبن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة أخا بني غفارفأرجف المنافقون بعلي بن أبي طالب وقالوا ما خلفه إلا استثقالاً وتخففاً منه فلما قال ذلك المنافقونأخذ علي سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله(ص) وهو بالجرف فقال: يا نبي الله زعم المنافقونأنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني فقال: كذبوا، ولكنني خلفتك لما ورائي فارجعفاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعديفرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله(ص) إلى سفره».

(١) ج٢، ص٣٦٨.

وهذه الرواية ذكرها ابن هشام أيضاً في السيرة النبوية(١) فأنتم تلاحظون أنَّنص الرواية يظهر أن علياً استخلف في المدينة لرعاية شؤون أهل البيت وحدهم وفي قبال ذلكأعطى النبي الاختيارات كلها والأمارة على الناس وحفظ نواميس المسلمين إلى «سباع بنعرفطة».

إذنْ يفهم من هذا أنَّ علياً طيلة غياب النبي عن المدينة لم يعط سلطة على الأوضاع فيالمدينة وليس له ولاية على أهلها ليس هذا فحسب بل كان تابعاً لغيره في هذه الأوضاع المضطربةوالمعقدة ومن المؤسف حقاً أن القوم اختلفوا في هذا الرجل من سباع بن عرفطة إلى ابن أم مكتومإلى محمد بن مسلمة، ونحن من أجل فرز الحق عن الباطل في هذا الاختلاف نقول:

أولاً: كما ظهر لنا من تحقيق الآيات النازلة بغزوة تبوك أن الحالة الأمنية بعد غياب النبي(ص)والمؤمنين الواقعيين وتوجههم إلى تبوك في ركابه الشريف قد تحوّلت إلى وضع حساس وخطيرجداً.

والاحتمال قائم في كل آن أن تحدث غارة على المدينة من منافقيها والأعراب المحيطين بهافتنتهك أعراض المسلمين ويُربك الأمن ويضطرب منها الوضع ومن الواضح أن يكون القائم بالأمرفي المدينة بعد رسول الله(ص) رجلاً ممتازاً من جميع الجهات كفوءاً في المهمات شجاعاً وحازماًوذا بصيرة بالأمور وله القدرة التامة على التفاعل مع الأحداث المستجدة لكي يحيا المسلمون تحتظله بأمن

---

(١) ج٤، ص١٦٣.

ودعة مطمئنين على أشعارهم وابشارهم وأعراضهم وأموالهم كما أنه القادر على الحيلولةبين المسلمين وبين توتر العلاقات فيما بينهم وله سابقة مشهودة للجميع من حيث الشجاعةوالاقتدار يخشاها المنافقون ويتقيها، ومن الضروري أن يكون هذا الرجل ذي الصفات المتقدمة هوعلي بن أبي طالب(ع) وليس «سباع بن عرفطة»هذا الرجل المجهول ولا ابن أم مكتوم الأعمى ولا «محمد بن مسلمة» الذي هو نفسه من المنافقين المحترفين، وقد كشفنا حاله فيما مضى من الكتابإلى حدّ ما وسوف تتضح حاله أكثر فأكثر عندما نصل إلى حديث «الهجوم على بيت الزهراء».

نعم إنَّ منافقي المدينة وإخوانهم من الأعراب المتربصين لا يخشون رجلاً مثل «سباع بنعرفطة» على أنه ليس بقادر على كبح أوضاح كالتي ذكرنا في ظرف كظرف غزوة تبوك وإخمادشرارة المنافقين، إن ذلك منوط بعلي(ع) وحده لأن المنافقين يعرفون صولاته ويدركون موقعإمارته ويعلمون أن استخلافه يضرب آمالهم وأمانيهم في الصميم من ثم لما علموا بأن النبي قداستخلفه مكانه في المدينة وأمّ قصد تبوك غضبوا من ذلك وأطلعوا ألسنتهم بالإشاعات ويرمونبذلك ثنيه عن البقاء في المدينة ولكن رب ضارّة نافعة فقد تسببت إشاعاتهم بإطلاق «حديثالمنزلة» في فضله وتحكيم استخلافه ليس فقط لرعاية شؤون اهله ورفع احتياجاتهم.

بيان ذلك: من المقطوع به أن غرض النبي من قوله لعلي(ع): «أما ترضى أن تكون مني بمنزلةهارون من موسى إلا أنه لا نبي

بعدي» الخلافة الواردة في الآية الشريفة: ﴿**وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (١) الثابتة لأخيه هارون فإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن تكون خلافة علي على هذا النحو كما كانت خلافة هارون وإلّا لتفاوتت النسبة بين الخلافتين فلم يتماثلا وكانت هذه غير تلك.

ثم لما كانت خلافة هارون بصريح الآية السالفة بالنسبة لموسى هي خلافة عامة تنتظم جميع الشؤون المتصلة بقيادة بني إسرائيل وإدارة أمورهم ولا ربط لها بشؤون أهل بيت موسى وحينئذٍ يكون استخلاف النبي علياً عليهما الصلاة والسلام وآلهما في نفس المستوى بالضرورة وكما أنَّ خلافة هارون مطلقة فينبغي أن تكون خلافة علي مثلها وإلّا لما كان الاستخلافان في رتبة واحدة.

أجل إنَّ من يتدبر الآيات التالية: ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾ (٢) ويعلم أنها لبيان منزلة هارون هذا هو سرّ نزولها ويضع في حسابه حديث المنزلة ويدقق في معناه فإنه سوف يدرك أن جميع المقامات الهارونية التي بينتها الآيات وأثبتتها لهارون من بعد موسى ثابتة لعلي(ع) إلّا النبوة المستثناة في الحديث: «إلّا أنه لانبيّ بعدي» فلم يستدرك الحديث النبوي إلّا النبوة فهي ممتنعة على علي لختم النبي لها، وأما بقية المراتب والمنازل الثابتة لهارون في الآيات

(١) سورة الأعراف.
(٢) سورة طه.

الكريمة بعد موسى بن عمران كذلك هي ثابتة لعلي بعدالنبي وإلى الأبد لا أنّها ثابتة له في ذلك الزمن الخاص وتنتهي بانتهائه. كلا.

وعلى هذا الأساس جرى الاستدلال من الشيعة في رواياتهم بحديث المنزلة على خلافةعلي بلا فصل بعد رسول الله(ص) والحديث المذكور اتفق على روايته الفريقان (١) كحديث الغديروهو من أدلة أحقية أمير المؤمنين بالخلافة.

على أية حال يظهر من مجموع التحقيقات السالفة ظهوراً بيّناً أن الرجل الوحيد الذي بإمكانهحماية المدينة من خطر المنافقين عند غياب النبي(ص) في تبوك وبإمكانه كذلك حفظ الإسلاموناميس المسلمين وأن يكون كل ذلك بعهدته ولا يبدي كلالاً أو عجزاً هو علي بن أبي طالب وماكان مذكوراً خلاف ذلك في كتب العامة الحديثية هو من وضع جهاز الوضع الخليفي واختلافالروايات العامة في تعيين الشخص المستخلف دليل آخر حول ذلك.

---

(١) وإليك بعض النماذج لمصادر حديث المنزلة من الجوامع الحديثية لأهل العامة «صحيح البخاري» كتاب فضائل أصحاب النبي باب مناقب علي بن أبي طالب، ج٢، ص٢٠٥، «صحيح البخاري» كتاب المغازي باب غزوة تبوك (ج٣، ص٦٢)، «صحيح مسلم» كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب (أحاديث ٣٠ و ٣١ و ٣٢)، «سنن ابن ماجه» المقدمة باب ١١ فضل علي بن أبي طالب، «سنن الترمذي» أبواب المناقب، مناقب علي بن أبي طالب، حديث (١٣)، «مسند أحمد»، ج١، ص١٧٠، ١٧٣، ١٧٧و ١٧٩ و ١٨٢و ١٨٥ و٣٣١، «مسند أحمد» ج٣، ص٣٢ و ٣٣٨، «مسند أحمد» ج٦ ص٣٦٩ و ٣٣٨، «طبقات ابن سعد» ج٣ ق ص١٤ وص١٥.

وإلى هنا انتهى تحقيق الآيات المرتبطة بغزوة تبوك وبعد هذا الجرد المهم لحقائق المنافقينوتعيين مستواهم نأتي إلى شرح بقيّة الآيات من سورة التوبة وتحقيقها وفيها بيان درجاتالمنافقين وأقسامهم وتحديد ميزان الخيانة لكل فريق منهم.

إيضاح لابد منه يتعرض لذكر علل النفاق الأصلية

نعود إلى ما ذكرناه قبلاً عن علل النفاق الأصلية لكي نعدّ الأرضيّةالصالحة لتحقيق بقية الآيات «من سورة التوبة» ونهيّىء المناخ المساعد على ذلك.

قلنا فيما مضى بأن علل النفاق الأصلية لا تتعدى الصور الأربعة:

١ ـ ليس من المستبعد أن يعلن إنسان إيمانه على أثر خوف راوده ولو على زوال مكانتهالاجتماعية فيفزع إلى الإيمان ليجد لنفسه ولمن يخاف عليه موطىء قدم يثبت عليه ويدرأ عنهالخوف.

٢ ـ ولا يبعد أيضاً أن يكون الطمع بنيل المال والحصول على مكسب مادي وتناول شيء منالدنيا هو الحافز على إعلان الإيمان عند بعضهم فيكون إسلامه لمجرد بلوغه المنافع الدنيوية لا غير.

٣ ـ السبب الثالث من أسباب النفاق هو أن إنساناً ما يعلن إسلامه كيداً للإسلام وعملاً علىالفت في عضده وإزالته والقضاء عليه، وتكون خطته المعدّة في إظهار الإسلام هو التفرقة بينالمسلمين والتغلغل في عقائدهم وأفكارهم.

٤ ـ العلة الرابعة وهي علة مرموزة وأشد خفاءاً من غيرها أن مُظهر الإيمان وإن كان السببفي إيمانه المصالح الدنيوية إلا أنَّ هدفه ليس المنافع المحدودة والآنية نظير حصوله على المالوالجاه وما شابه ذلك بل غرضه أكبر من ذلك وأعظم وهو النفوذ في

المجتمع المسلم والإعدادللوصول إلى نوع من السيادة والتحكم وتهيئة المناخ المساعد على ذلك ولو كانت مطبوعة بطابعالدين في حياة النبي أو بعد وفاته.

ومن الواضح أن هذه العلل الأربع لا ينتظم المنافقين كلهم على حد سواء إلا علتان منها وهماالأوليان وبعدهما العلة الثالثة وأما القوم الذين يقوم نفاقهم على العلة الرابعة فإنهم يوجدون بندرةفي المجتمع ولا يتحقق إلا عند أناس يتمتعون بصفات خاصة تميّزهم عمن سواهم وهذا الفريقالرابع من الفرقاء الأربعة من أهل النفاق أكثرهم خفاءاً ورمزية.

ذلك أن الفرقاء الثلاثة سرعان ما ينكشف أمرهم للناس وتبين حقيقتهم أن عاجلاً أو آجلاًفيكسد سوقهم ولا ينفق دينهم، لكن الفريق الرابع هو القادر على الصمود لاستعداده الخارق فيالتخفي واستحماق الناس واللعب على حبال الدين وما فتىء يطوي طريق استغفال العوام ويوطىءظهورهم للركوب ويتظاهر بحب الخير للمسلمين فيكون أكثر وجاهة عند المسلمين يوماً بعد يومٍوأكثر تخفياً ويظل نفاقه مستوراً عن أعين المشاهدين.

ومن الخطط الضرورية التي اعتمدتها هذه الفئة هي الإبقاء على علاقة حميمة مع الإسلامٍمادام لم يصطدم بأحكامه ووقايعه التاريخية بأمانيهم وأحلامهم المكتضة بها رؤوسهم فيظهرونللناس حينئذٍ انسجامهم مع الإسلام وحرصهم عليه وأنهم أكثر غيرة عليه وحباً له من كل أحد ولكنحين ينعكس الأمر وتجري الرياح بما لا تشتهي سفنهم

ويرون في سيرة الإسلام طعناً لأمانيهمفإنهم ينقلبون إلى أعداء ألداء لله ورسوله وبما أن شهرتهم بين المسلمين تجاوزت نفاقهم فعرفوابالوجاهة في الأمة وشهروا بطلب الخير للمسلمين فإنَّ عداءهم لله ورسوله لن يؤثر على مكانتهم الدينية في المجتمع المسلم والقرآن الكريم عبّر عن هذا الفريق بالأسماء التالية: ‹‹الذين يؤذونرسول الله، الذين يؤذون الله ورسوله، الذين يحادون الله ورسوله، يتناجون بالإثم والعدوان ومعصيةالرسول›› وغير ذلك وقد مر شرح هذه الجمل فيما مضى من هذا الكتاب.

وبعد التذكر بالمطلب أعلاه نعود الآن إلى بقية الآيات من سورة التوبة وتحقيقها، التيتتحدث عن مستويات المنافقين وأقسامهم وتجديد مركز الخبث في كل هيئة نزل فيها ذلك لكييعلم أية هيئة من هذه الهيئات هي أشد عداءاً لله ورسوله.

بحث الآيات من سورة التوبة
المرتبطة ببيان علل النفاق العادية

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾.

ونقول في تحقيق الآيات التسع أعلاه:

أولاً: يستفاد من الجملة المذكورة في الآية﴿**ألا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌبِالكَافِرِينَ**﴾ أن المراد بالفتنة التي تعلق بها النظر هي «ولا تفتني» وغرضهم منها «الوقوع فيالمصيبة والمحنة والألم» وليس غرضهم منها ما يتبادر إليه خيال الشعراء من حب النساء والفتنة بهنلأنّ الفتنة في الآية المقصودة بالبحث بديهة تنتظم المعنيين وقد جاءا في سياق واحد ودلّا علىمعنى واحد وبناءً على هذا فإنَّ الكثير من تفاسير الشيعة وجلّ تفاسير العامة قد ذكرت بشأن نزولالآية أنَّ النبي(ص) قال لهم ليثير عزائمهم ويشحذ هممهم في قتال الروم قوموا إلى غزوة تبوكلعلكم تصيبون بغيتكم من بنات الروم، فرد عليه جمع من المنافقين قائلين: يا محمد دعنا نقم فيبيوتنا ولا تُغرنا بنساء بني الأصفر ولا تفتنا بجمالهن وحسنهن وكان الأخذ والرد بينهم وبين النبيعلى هذا الأساس حتى نزلت الآية﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي ألا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنّجَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ**﴾ تذم المنافقين وتطعن بهم.

وهذه حكاية موضوعة من بدئها إلى منتهاها، لأنَّه لازم صحة نزول كهذا أن يكون معنى الفتنةفي الآية المتعلق بها البحث وفي جملة «لا تفتني» نفسها مع معنى الفتنة المقصودة من جملة «ألا فيالفتنة سقطوا» متفاوتاً مع أن كلا الفتنتين وردا في سياق واحد وعليه يلزم استعمالهما في معنىًواحد، مضافاً إلى هذا فإنَّ اللازم من صحة حديث كهذا أن يكون النبي ـ وحاشاه من ذلك ـ قد اتخذمن

الجهاد في سبيل الله أداة لعب ولهو وتصيد لمتع الدنيا التافهة وأنه يدعو أتباعه إلى غزوة تبوك وأمثالها لهذه الغاية الدنيئة من الوصول إلى بنات الروم والحصول عليهن ومن البديهي أن تصديق مثل هذه الرواية الموضوعة في حق النبي مرادف لتكذيب رسالته وردّها.

ثانياً: يظهر من الآيات المزبورة بوضوح أن الفريق المذكور هو من ذوي اليسار والثروة من المنافقين وتدل على ذلك خصوص الآية﴿**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ...**﴾ وبناءً على هذا يكون إسلام هذا النمط من الناس وإعلانهم للإيمان أكثره على حساب صوت ثروتهم لخوفهم ضياعها وحفظ حشاشاتهم كما أنه قائم على أصل حماية مراكزهم الاجتماعية أي أنهم لثروتهم الطائلة لا يتصور بحقهم أن إيمانهم منذ البدء كان من أجل المال والغنى وهو احتمال ضعيف بحقهم والاحتمال الأقرب إلى القبول أنّ إسلامهم كان من أجل الحفاظ على مكانتهم الاجتماعية، لأنهم حينما شاهدوا نزوع أقربائهم إلى الدين الجديد واجتماعهم على صاحب الدعوة الجديدة وأنَّ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وأنهم يشاهدون بأم أعينهم تقدم الإسلام نحو الأتم والأحسن وأن حظه ما فتيء يتعالى بين الناس يوماً بعد آخر لذلك عمدوا إلى اعتناقه للحصول على مأمن يلجأون إليه وحصن يلتمسون فيه الأمن والدعة لهم ولذويهم وأبنائهم وأسرهم ولا تنس السبب والمهم وهو الإبقاء على سيادتهم تحت ظله حيث كانوا من قبل يتمتعون بمركز كهذا من ثم بذلوا جهداً مستحيلاً لاعتبارهم من المؤمنين بالإسلام، كما دلّت على هذا الأمر الآيتان التاليتان: ﴿**وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ**

يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ واضح جداً كما تلاحظون أنتم في الآية الأولى تعرض موضوع فزعهم وفي الآية الثانية تخبرنا بصفة رسميّة أنهم لو وجدوا ملجأ ومخبئاً فما أسرع ذهابهم إليه وفرارهم تجاهه.

أجل إن نوعيّة المنافقين من أهل المدينة والقبائل المحيطة بأطرافها وهم يعدون من الزعماءورؤساء قبائلهم فنفاقهم مرتكز على الأصل الأول وما أظهروا الإيمان بالإسلام إلّا خوفاً من ذهابمركزهم وإزالة مكانتهم الاجتماعية وورود نكسة تنتابهم في المال والجاه.

وهذا نموذج من الآيات في سورة التوبة التي جعلت نفاق الخصوم على مبنى العلة الأولى منالعلل التسع.

والآن نبادر إلى ذكر آيات أخرى من السورة نفسها التي تثبت نفاق آخرين على مبنى العلةالثانية وتوضح ذلك على النهج التالي:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ

رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ
يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا
فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ
وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ
نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨)
كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ
فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا
أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)
وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا
إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ
عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُمْ مَنْ
عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ
فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا
أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ
لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ
لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾.

إنّ النكات التي ينبغي تصيدها من تحقيق الآيات والاحتفاظ بها على النحو التالي:

١ ـ متن الآيات أعلاه تدل دلالة واضحة على أنّ الفريق المقصود بالبحث والنظر هم منالمنافقين الذين قام أساس نفاقهم على العلة الثانية من العلل الأربع، وقد وقعوا في مستنقع النفاقبسبب ما تكتظ به نفوسهم من الطمع بالمال الدنيوي والحرص على المتاع الزائف.

نعم إنّ الجملة﴿ **فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾ المذكورة فيالآية (٥٨) ومثلها الجملة﴿ **بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ الواردة في الآية (٧٦) تدل بصورةواضحة أن الفريقين جرأوا على لوم رسول الله(ص) لشدة حبهم الدنيا وعلاقتهم المفرطة بهاوولائهم الأعمى للمال والجاه الدنيويين وابتلوا بالنفاق ونزعوا إلى مخالفة النبي(ص) فخرجوا عنربقة الإسلام.

٢ ـ يظهر بوضوح من الآية الشريفة:﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ أن النفاق ربما صاحب الإنسان منذ البداية وكذلك من الممكنأن يرد على قلب المرء بعد إيمانه الظاهري، وهو كالكفر تماماً من حيث كونه ذا مرحلتين أصليةوعارضة، فإن النفاق أيضاً يقسم إلى مرحلتين ابتدائية وثانوية.

٣ ـ ومما لا شك فيه بأن الترديد بين صورتي الإثبات والنفي المذكورتين في الآية الشريفة: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِوَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ هما كناية عن تساوي الفعل والترك ويريد سبحانه أنْ يلغي الاستغفار للمنافقين ويدخله في مبتنيات الإسلام الرسميّة، وفي الحقيقة أن مفاد الآيةالمذكورة عين مفاد الآية الشريفة﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنّاللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ المذكورة في سورة المنافقين ولا يستفاد من الآية التمييز الحقيقيبين الاستغفار وعدمه.

وبناءً على هذا فإن ذكر السبعين مرة في الآية إنما هو كناية عن الكثرة في الجملة: ﴿**إِنْتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً**﴾ وليس لعدد السبعين خصوصية مقصودة إضافةً على إرادة الكثرة ولم يخبرالنبي من قبل الوحي بأنه لو بلغ المرة السبعين في الاستغفار للمنافقين فسوف يترتب على ذلك أثرمعتد به، فإذا بلغت به الواحد والسبعين فسوف يقع الأثر، ليس هذا هو مفاد الآية الشريفة، بل إثباتالآية الشريفة لا يفيد إلا الغاء الاستغفار في حق المنافقين: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْلَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ وهنايظهر للمطالع بأن عدم شمول الاستغفار لهم يستند إلى كفرهم الدائم من خلال هذا الجزء من الآية:﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ ومن المعلوم أنه مع استحكام الكفر فيهم لا يبقى موضوع للاستغفاروتأثيره مطلقاً. فإذا ثبت ما قلناه وهو ثابت فعلاً وأقمنا

البرهان عليه لا يبقى أيّ اعتبار للأحاديث المرويّة في الجوامع الحديثية لأهل السنة حول الآية وأنهم حملوا الترديد في الآية على التخيير الحقيقي، وأنَّ لعدد السبعين خصوصيّة عددية ليست لغيره من الأعداد فهذا كُلُّهُ كذب محض لاينتمي إلى الحقيقة بنسب أو سبب، وبعرضه على الآية يظهر زيفه وأنه لا قيمة علمية له.

ونحن الآن نذكر واحدة من هذه الروايات ونوكل الباقي إلى الفهم السليم للموضوع:

«أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: لما توفي عبدالله بن أبي سلول أتى ابنه عبدالله رسول الله(ص) فسأله أنْ يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله(ص) فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أنْ تصلي على المنافقين؟! فقال: إن ربي خيّرني وقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسأزيد على السبعين. فقال: إنه منافق فصلى عليه فأنزل الله تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» فترك الصلاة عليهم» (١).

أنتم تلاحظون هنا الطريقة التي حملوا بها التخيير المذكور على الحقيقة في قوله: استغفر لهم أولا تستغفر لهم، وكذلك نسبة الخصوصيّة العدديّة إلى عدد السبعين في قوله تعالى: «إن تستغفر

(١) الدر المنثور، ج٢، ص٢٦٦.

لهمسبعين مرة» وهذا الإشكال موجود في مجمل روايات الموضوع ويكفي في إثبات وضعها ما قلنامتوا من هذا المطلب[١] .

ومن العجيب أن الروايات المذكورة وضعت بشكل وقح لصالح عمر بن الخطاب وضدّ رسولالله(ص) ونظمت على هذا الأساس المشين إلى الحد الذي بلغوا بها المشادة العنيفة بين النبي وعمربن الخطاب في حكاية موت عبدالله بن أبي سلول، ويجعلون ذلك من أمجاد عمر ودليلاً على كمالهواعتبروها سبباً في نزول الآية﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إنَّهُمْ كَفَرُوابالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ والآية السالفة وضعوها في ميزان عمر واعتبروها منموافقاته.

والأعجب من ذلك أننا نرى هذه الروايات الموضوعة مروية في كتب الشيعة بشكل أو بآخرفي تفسير الآية، وكأنما نسي الراوي وضعها فرواها وإن كانت موضوعة أو هكذا يبدو من حاله،ولذلك لم يعرضها على مفاد الآيات الخاصة بالموضوع فنسبها بغفلة إلى الأئمة المعصومين.

وعلى أيّة حال هذا ما كان من أمر النتائج التي حصلنا عليها من تحقيق آيات من سورة التوبةالتي وضعت نفاق الخصم على المبنى الثاني من العلل الأربع والآن نعود إلى بحث آيات أُخرى منسورة التوبة وهي التي ترد نفاق منافقين آخرين إلى العلة الثالثة من مجموع العلل الأربع:

---

(١) الدر المنثور، ج٣، ص٢٦٤ ـ ٢٦٦.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦)﴾.

ونقول في بحث الآيات أعلاه:

يظهر من الآيات الأربع الأولى أنها نازلة في المنافقين المبني

نفاقهم على العلة الثالثة منالعلل الأربع، أنهم يريدون بمظاهر الإسلام البادية عليهم أو يتظاهرون بها إيجاد الاختلاف بينالمسلمين وبذر الشقاق والفراق في وسطهم كما أنهم يريدون تفتيت اعتقادهم والقضاء علىوحدتهم العقيدية ومحو أفكارهم وكذلك يوجدون المناخ اللازم لتنامي القوة عند واحد من أعداءالله ورسوله في عمق الجماعة الإسلامية﴿ **وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾!

اتفقت روايات الفريقين على أن الآيات آنفة الذكر نزلت في جماعة من المنافقين الذين بنوامسجداً إلى جانب «مسجد قبا» حتى يدخلوا الوهن على المؤمنين القائمين في مسجد «قبا»ويؤذونهم ويفرقوهم شذر مذر، وحتى يثبّتوا مسجدهم الجديد ويقيموا له الدعائم ويتخذوا منهقاعدة انطلاق لأبي عامر الفاسق (ويذهب إلى الروم وينال من القيصر المعونة فيعود بها إلى المدينةويهدم بها الإسلام) والذي مرَّ الآن هو نموذج من آيات سورة التوبة التي قررت بناء نفاق جماعة منالمنافقين على أساس العلة الثالثة من العلل الأربع.

والآن نبادر إلى بحث الآيات من السورة نفسها التي جعلت نفاق قوم من المنافقين مبنيّاً علىأساس العلة الرابعة، هذه الفئة التي فاق نفاقها كل نفاق، وهي أكثر الفئات خطراً وضرراً للإسلاموالمسلمين وبؤرة نفاقهم أشد وأخطر على الدين وأهله.

بحث الآيات ٦١ ـ ٧٤ من سورة التوبة
والتعرف على " واعقة العقبة "

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ
يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ
(٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ
مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ
مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ
قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٧٤) ﴾.

ونقول في بحث هذه الآيات الأربع عشرة:

١ ـ إن الربط التام بين الآيات مع بعضها البعض وأخذ بعضها برقاب بعض يدل على أن جميعالآيات نزلت للتعبير عن الخصوصيات النفسية وطموحات تلك الفئة من المنافقين وبيانها وكشفحالهم الجزء الشريف من الآية﴿ **وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ** ﴾ وكأنه عنوان يرشدإليهم وعلامة تدل عليهم.

أي أننا إذا رأينا الوحي يعبر عنهم بقوله:﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنيُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾، وبقوله:﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَخَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ** ﴾، وبقوله: ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِيقُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ** ﴾، وبقوله:﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا**

نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، وبقوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، وبقوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

هذه الآيات نزلت في التعريف بالخصوصيّات النفسية والأخلاقية لتلك الفئة من المنافقين التي عرفت حقيقتهم ابتداءاً الجملة من الآية الشريفة: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ...﴾ كما أن عزل أقسام المنافقين فئة عن فئة بلفظ «ومنهم» الوارد في أول الآية مرتبط بهذا النمط وهو دليل على ما قدّمنا ويدل على أنّ الأربع عشرة آية المقصودة بالبحث إنما نزلت لبيان نفسيّات هذه الفئة من المنافقين وكشف طموحاتهم والتي كان ابتداء هذه الآيات بالجملة الشريفة: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآية، وأنتم معاشر القراء أمعنوا النظر بالمطالعة والدقة في الآيات ٤٩ إلى ٧٨ من سورة التوبة والتي تبين أصناف المنافقين وتعزل كل صنف

عن صنفه بنفس الكلمة «ومنهم» ثم تعرب بالإيضاح عن الخصوصيات النفسية والموضعية لذلك الصنف بالآيات اللاحقة لتعرفوا على سبيل التأكيد واليقين أنّ الآيات الأربع عشرة كلها وهي المخصوصة بالبحث أعربت صراحة أو بالكناية عن التعريف بالصنف الذي عرف في ابتداء الآيات المنظورة بالتحقيق بالجملة ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**﴾.

٢ ـ يظهر بشكل واضح ومؤكد من التعريف الوارد في الآيات المذكورة لا سيما الآيات الثلاث الأولى أن المنافقين الذين دار بحثنا حولهم هم الفريق الأكثر خبثاً من سائر فرق المنافقين وهيئاتهم، وبالطبع يكون خطرهم حينئذٍ أعظم على الإسلام والمسلمين من غيرهم، لأنه عندما نشاهد وصفهم بقوله تعالى: ﴿**الذين يؤذون النبي**﴾ و﴿**الذين يؤذون رسول الله**﴾ و﴿**من يحادد الله ورسوله**﴾ ولم يصدر تعبير كهذا في حق المنافقين الذين جرت دراسة أحوالهم سواهم، نجزم بأن خبث هؤلاء أشد وأعظم من خبث غيرهم وشرهم أعم، قياساً إلى الفرق الأخرى من جنسهم.

نعم، إن موضوع إيذاء رسول الله والمحادة لله ورسوله نفسه خير دليل على ذلك وهو أنَّ الفريق المعني بهذا كله هو نفسه فريق المنافقين المحترفين، لأنَّ خصوصية إيذاء النبي و «المحادة لله ورسوله» وهما خصوصيّتان اختصتا في لغة الوحي بتعريف فريق المنافقين المحترفين وقاما بتشكيل العنصر الأساسي من هويته.

٣ ـ بعد أن ثبت لدينا أن الآيات المختصة بالبحث مرتبطة بالمنافقين

المحترفين والآن ينبغيعلينا التدقيق أكثر وأكثر في صدر هذه الآيات وذيلها فنقول:

يتضح جيداً من الجملة «تنبئهم بما في قلوبهم» المذكورة في الآية﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْتُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** ﴾ مع الارتباطالخاص لها مع الآيات الثلاث السابقة أن المنافقين المعنيين يخبئون في قلوبهم أمراً ينوون فعله وهذاالأمر مصداق من مصاديق إيذاء رسول الله ومحادة الله ورسوله ثم نشاهد قوله في الآية التالية يعنيقوله تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْتَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ يخبر النبي بشكل رسميّ فيقول: لو أنك سألتهم ما هذا العمل الذي تديرونه سوفـيجيبونك بأننا ما كنا قاصدين ولا جادين وإنما كنا نلهو ونلعب للاستمتاع﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَاكُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ** ﴾!

. يستفاد من الآية أعلاه أن المنافقين المذكورين بعد أن اتخذوا قرارهم القطعي بالعداء للهورسوله وإيذاء النبي(ص) عمدوا إلى إجراء عمل آخر خارج عالمهم الخاص وهذا العمل قد ظهرللنبي والمؤمنين ظهوراً واضحاً لا يكاد ينكره المنافقون من ثم اضطروا لمواجهة السؤال إلىالاعتذار باللعب واللهو كي يلقوا ستراً على هذا العمل غير المستحب.

وهذا الموضوع مضافاً إلى إفادة الآية السابقة إياه يمكن استفادته بشكل جيد من الآية التيتتلوها، يعني الآية الشريفة: ﴿ **لا**

تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾فقد لاحظنا أنَّ الآية المذكورة بعد ردّ عذرهم أخبرت عن كفرهم بعد إيمانهم﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ومن الواضح أنهم ما لم يعملوا عملاً يؤدي إلى كفرهم فإنَّ لغة الوحي لا ترميهم بهذه الفاغرة ولا تعلنه على الملأ لأنهم من المنافقين المحترفين وقد كسبوا بظاهرهم المتصنع المليح وجهة رفيعة في المجتمع وصاروا أصحاب مكانة بين المسلمين ولهم سمعة حسنة إلى حدّ ما.

نكتة أخرى تستفاد من الآية (٦٦) هي أن الجملة الشريفة:﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ تدلُّ على أن المنافقين المعنيين هنا هم جماعة ليست بالقليلة وإنّ منهم طائفة مجرمة ولها يعود حبك الخطط الأصلية ووضع تصاميمها وعلى أية حال يستفاد من التحقيق والبحث في مجموع الآيات الواردة في صدر الآيات الواقعة مورداً للبحث أن المنافقين المحترفين أقدموا في إيذاء النبي وعدائهم لله ورسوله على عمل ظهرت صورته واضحة للنبي وبعض المؤمنين بحيث لا يستطيعون إنكاره أما ما هو عملهم هذا وعلى أيّ أمر أقدموا؟! لعلنا من ذيل الآيات التي جرى تحقيقها والبحث فيها نستطيع أن نطل عليها ونجد السبيل إلى معرفتها.

إنَّ ختام الآيات يخاطب النبي على هذا الشكل:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ

وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْراً لَهُمْوَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

نلاحظ كيف أخبرت الآية الثانية عن المنافقين المعنيين أنهم بعد أن أجروا كلمة الكفر علىألسنتهم ونبذوا الإسلام وراءهم اشتدت عداوتهم لله ورسوله وزاد حقدهم على الله ورسوله فزعواإلى فعل أمر خطير وهمّوا أن ينالوه لكنّ الله تعالى دفع شرّهم فلم ينالوا غايتهم ولا بلغوا الهدف الذيأرادوه﴿**وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾! ثم بين سبحانه على سبيلالكناية والتعريض عن تنكرهم للإحسان فقال: كأنما حقدهم هذا وإقدامهم على مثل هذا العملقابلوا به الفضل الذي منّ الله به عليهم وأسداه رسول الله إليهم، فأغناهم بفضله وهباته من الفقر وقلةذات اليد ونجاهم منه﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾!

ويظهر من مجموع الآيات أعلاه لا سيّما إذا ضممنا إليها تعابير الآي المتقدّمة مثل:﴿**أَلَمْيَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾،﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾ أن العمل الذيهموا به هو قصد حياة النبي بالسوء من قبيل قتله أو تنفير ناقته أو رميه من أعلاها إلى الهوّة وأمثالها.

وهذا ما يعود إلى تحديد أصل العمل.

وأما عن تحديد الموقع وتعيين المسرح الذي يراد للجريمة أن تمارس فيه فإننا نقول:

بما أننا نرى الآيات المقصودة بالبحث (الآيات ٦١ إلى ٧٤) جاءت في النظم الخاص بسورةالتوبة ضمن الآيات ذات الصلة بغزوة «تبوك» لا سيّما وأن هذه الآيات جاءت قبل الآيات التاليةونظائرها: ﴿**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَاكَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىإِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْأَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّتَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ وهذه الآيات متصلة بعودة النبي من غزوة تبوكووصوله إلى المدينة ويستنبط من مجموع هذه النكات العمل الجنائي المعهود حين صدوره منالمنافقين أن النبي كان وما يزال في سفر غزوة تبوك ولم يعد للمدينة بعد، وهذا الموضوع ينطبقعلى حادثة العقبة انطباقاً تاماً حيث وقع بعد عودة النبي من غزوة تبوك وهو محل اتفاق منروايات العامة بأجمعها!

٤ ـ وبعد أن ثبت من تحقيق الآيات المرتبطة بغزوة «تبوك»(الآيات ٣٨ إلى ٤٨ و ٨١ إلى٩٦ و ١١٧ إلى ١٢٢ سورة التوبة):

أ ـ إن المنافقين العاديين من أهل المدينة وأعراب البادية القاطنين في ضواحيها لم يشاركوافي غزوة تبوك ولم يخرجوا مع

رسول الله للجهاد.

ب ـ المؤمنون العاديّون من أهل المدينة وضعفاء الإيمان من أهل المدينة وعامة الأعراب ثقل عليهم الخروج إلى غزوة تبوك وتقاعدوا عن الخروج مع رسول الله إليها.

ج ـ الذين رافقوا النبي وخرجوا معه هم المؤمنون الواقعيون وحدهم.

يظهر لنا بالضرورة إذا ما وقعت حادثة العقبة في طريق عودة رسول الله من تبوك وقبلوصوله إلى المدينة، أنها صدرت حتماً من المنافقين المحترفين لأنَّ حضورهم في غزوة تبوك أمرمعقول إذ لم يكن مع النبي إلّا المؤمنون الواقعيون وهؤلاء فحسب.

أجل إنّ هؤلاء رصد لهم وجود في الفترة الأولى من صدر الإسلام في مكة وآمنوا بالإسلامبناءً على خدمة أغراضهم السياسيّة التي اتخذوا الإسلام وسيلة لبلوغها وتقمصوا رداء المسلموسلخوا عمراً بكامله متلبسين بلباس ابتغاء الخير للمؤمنين وبدوا لأعين الناس بصورة المؤمن تامالإيمان، وكانوا من أجل الخداع لا تفوتهم غزوة إلّا وكانوا في مقدمة المنادين بها ولكنهم إذا جدالجد وحمى الوطيس في مقدمة الهاربين فهم في المقدمة على كل حال إلّا في القتال، فكيف لايتسارعون إلى المشاركة في غزوة تبوك بصحبة النبي(ص) كلا لا يكون ذلك أبداً اللهم إلّا بأن نقولبأنهم أقلعوا عن أهدافهم ونفضوا أيديهم منها وأضربوا عن كل ما بذلوه من سمت حسن وظاهر مليحفي سبيل تكوين شخصيّاتهم المزوّقة بما يبدونه من الأفعال

المقرّبة لهم من قلوب البسطاء من المسلمين.

ومن الواضح أن المنافقين لا يتصور منهم مثل هذا التجاوز على وجه الإطلاق وعلى أية حال لا ريب في أن الآيات الشريفة المرتبطة بغزوة تبوك تنفي وجود المنافقين العاديين فيها وكذلك تنفي المؤمنين العاديين وتقر بعدم حضورهم الغزوة وكذلك لا جدال في كونها تحدّد في آياتها (٦١ إلى ٧٤) أن وقوع حادثة قصد النبي بالتصفية والاغتيال كان في عودته من تبوك على يد بعض أصحابه ومرافقيه.

والأمر الوحيد الذي يمكن أن يضل عرضة للسؤال هو: ما الذي أراده المنافقون من الإقدام على عمل كهذا أو ما هو هدفهم الأصليّ في تناوله، وما الذي يبتغونه من فعل هذه الجريمة، هل أنَّ غرضهم من قتل النبي سرعة وصولهم إلى كرسي الحكم، أو أنهم أرادوا القضاء عليه لئلا ينص على قيام شخص من بعده؟!

وعلى أية حال أكان المنافقون السالفون على ثقة من أنفسهم أنهم إذا قتلوا النبي بلغوا مآربهم بسرعة أو أنهم غير واثقين من ذلك ويكون إقدامهم على مثل هذه الجريمة مجرد طيش وتهور ولامبالاة؟

إنَّ مثل هذه النكات الدقيقة والمسائل المحرجة تشغل بال المحقق عند تحقيق «حادثة العقبة» وتحليلها.

أما بالنسبة لنا فقد اجتزنا عقبات الطريق وطوينا مسافاته الشاسعة وتخطينا المنعرجات والالتواءات منه وها نحن على مرمى حجر من النهاية، لذلك كل الأسئلة المطروحة أو التي تطرح

لاتحرجنا لأنّها واضحة بين أيدينا تماماً بيّنة لا غبار عليها.

وليس علينا الآن إلا مطالعة الأقسام الماضية من الكتاب بخاصةالمختصة بالمواطئة السياسية للفريق المذكور مع رؤوس الكفر والشرك والمنافقين العاديين وأهلالكتاب ـ وقد تمت بينهم لغصب الخلافة من أهل البيت وحرمانهم من حقهم وتنحيتهم من مقامالإمامة والقيادة للمسلمين ـ لكي تختصروا الطريق في بلوغ الحق وتصلوا إلى جواب للأسئلةالمطروحة الماضية بيقين وثقة.

نحن على يقين من أن الفرد الأوّل وشيخ المنافقين المحترفين الأصيل أعني أبا بكر بن أبيقحافة لم تكن زينته بالإيمان زينة واقعية ولم يكن إيمانه برسول الله(ص) إيماناً واقعياً صادراً عنتسليم ومحبّة وإذا كنتم تحبون أن تحشروا معنا في هذه العقيدة فعليكم بمطالعة «القسم الخاص» منهذا الكتاب بدقة وذكاء.

ونحن على يقين كذلك من أن الشخص الثاني والقائم بالأعمال المنافقورئيس المنافقينالمحترفين أعني عمر بن الخطاب لم يكن مزيناً بزينة الإسلام الواقعية ولم يكن إيمانه برسول اللهإيماناً واقعياً عن تسليم في رتبة المحبة والإخلاص.

ونحن على يقين أيضاً من أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان وهو من أعلام المنافقينالمعروفين لم تكن زينته بالإيمان زينة واقعيّة ولم يؤمن برسول الله إيمان تسليم في مقام المحبة.

ونحن على يقين من أن أمثال أبي عبيدة بن الجرّاح وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص

وعائشة ابنة أبي بكر وحفصة ابنة عمر وخالد بن الوليد ومعاوية بن أبيسفيان وعمرو بن العاص وصهيب بن سنان وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أميّد وأسيد بن حضيرومحمد بن مسلمة وبشير بن سعد وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم وهم زملاء أبي بكر وعمروعثمان وخلطائهم المقربون والذين كانوا السبب في دفع أهداف القوم إلى أمام وسعوا سعياً حثيثاًفي نجاح خططهم السياسيّة هم الحلقات الأصلية لفريق المنافقين المحترفين ولم يكن أي واحدمنهم مزيناً بزينة الإيمان الواقعية ولم يؤمنوا برسول الله(ص) إيماناً ثابتاً يقيناً ولم يسلموا إسلامحبة وثقة.

وأنتم بإمكانكم الرجوع إلى أعمال القوم واحد بعد واحد في الأحداث المقارنة لموتالمصطفى(ص) مع أخذالبحوث القرآنية المذكورة بعين الاعتبار بما حصل للنبي(ص) بعد العودة من تبوك «بحادثة العقبة»فقد كانت خطة وضعت تصاميمها بأيدي كبار القوم وعهد تنفيذها إليهم قطعاً ولابدَّ من كونهمسائرين بركاب النبي ساعتئذٍ وقد أحاطوا به عن اليمين وعن الشمال وقد توصلنا بعد عرضناالأبحاث الماضية وما وفقنا إليه من استنباط نتائجها ومستلزماتها لا سيما ما انجلى لنا من عميقالصلات السياسية بين فئة المنافقين المحترفين وبين الكفار والمنافقين العاديين وأهل الكتاب منأجل بلوغ الهدف المنشود وهو حرف مسير الخلافة عن نهج أهل البيت(ع) وصرنا على يقين أنَّ المنافقين المحترفين بما اتخذوا من نهج شيطاني خداع يستحوذون به على الباب العواموير اوغونهم ويتملقونهم وبما تقمصوه من المظهر الصالح يخادعون به السذّج والعامة في

المجتمع المسلم وقد اتحدوا بصفة سرية مع مخالفي النبي(ص) وأهل بيته في الخفاء بحيث لا تقع عليهم عيون المغفلين من الأمة وبهذا تمكنوا من إيجاد المناخ لزعامتهم المقبلة حتى لو أنهم أقدموا على أشد الأعمال فضاعة كتصفية النبي باغتياله فإنه لا يعد فيهم عملاً سيئاً ولا جنونياً.

أجل كان المنافقون المحترفون على ثقة تامة بغلبة حزبهم في الصراع السياسي القادم، وقد رأيناهم قبل حادثة العقبة كيف يعدون العدة للقضاء على النبي(ص) وكيف استعدت عائشة وحفصة بإيعاز منهم لدس السم إلى النبي واغتياله [أثبتنا هذا الموضوع في تحقيقنا لآيات سورة التحريم].

وإذا ما أردنا معرفة قوّة تسلط المنافقين المحترفين على الأوضاع يومذاك فيكفينا التدقيق في هذه النكتة التالية:

كانت الخطة الموضوعة من قبلهم للقضاء على النبي هي من أجل الحيلولة بينه وبين العهد بالأمر في حياته عندما كان يحثه الوحي على ذلك وقد علموا جزماً انه ليس لها إلّا شخص واحد هو علي بن أبي طالب. ومع ذلك نراهم قد استحوذوا على الأمة بعد واقعة غدير خم ولم يمض عليها ثلاثة أشهر، فانتزوا على مقام النبي بعد وفاته ونحّوا أهل بيته عن حقهم وأخرجوا الخلافة من بيتهم وألحقوها بحزبهم وكأنما النبي لم يعهد لأحد ولم تصدر منه وصية ولا صرح بالخلافة لأحد من أهل بيته، ولا حدثت واقعة الغدير.

وإذا ما كانت قدرتهم قد بلغت هذه المنزلة إلى الحد الذي يردون به تصريح النبي باسم المستخلف من بعده وتنويهه به بيوم الغدير

وإعلانه خلافة علي بن أبي طالب من بعده بلا فصلويكون باستطاعتهم تغيير مجرى الأحداث للوجهة التي يطمحون إليها ويرغبون بها فمن الضروريأن لا يكون قتل النبي(ص) أو سمه بالخفاء قبل أن ترتدي واقعة الغدير ثوب الوجود، أمراً مؤثراًعلى سيادتهم أو مكانتهم أو تحقيق أمانيهم ولا يعد حينئذٍ عملاً متهوراً جنونياً.

أجل، إن هذه الفئة التي تحدثنا عنها ـ لا سيما الاثنان منهم ـ بلغ بهم ظاهرهم الصالحوتجلببهم بجلباب الخير لأمة الإسلام المزعومة حداً جر باتجاههم المؤمنين البسطاء وحديثي العهدبالإسلام والعامة المغفلين ووحّدهم معهم، حتى أنهم ينظرون إلى كلام الوحي باحتياط تام إلّا إذاأخذ من معدنهم وتنفّس بأجوائهم كما لا ينبغي القيام في وجوههم كما كانت الحال عليه مع الكفاروالمنافقين المتظاهرين بالفسق، بل تجب مهادنتهم ومسالمتهم ومصافاتهم.

فحين تفقد كل المعاملات الدالة على نفاقهم والمعبّرة عن تأرجحهم بين الإسلام والكفرفي الظاهر بأعين عامة الناس ومنهم الكافة من المسلمين فأي وسيلة تكون متاحة للوحي عندئذليعلن الحرب عليهم ومكافحتهم، وعلى أية حال فإن من الممكن إجمال البحث المتقدم على النحوالتالي:

لما وقعت للنبي(ص) حادثة العقبة بعد عودته من تبوك، فلابد من كونها خطة موضوعةتصاميمها بأيدي رؤوس فئة المنافقين المحترفين ولابدَّ من كون المنفّذين أيضاً من تلكم الفئة نفسهاالتي اضطرت على أثر قرائن ضرورية تخص محيط تواجدهم إلى

الذهاب مع النبي في غزوة تبوك،والحضور بين يديه في تلك الغزوة.

٥ ـ لما كانت نتائج البحوث المتقدمة من أنّ «حادثة العقبة» ترجع في خطتها وإجرائها إلىالمنافقين المحترفين يكون معلوماً لدينا طبعاً:

أولاً: كون الرجلين الأولين الذين جرت تسميتهم فيما سبق وهما أبو بكر وعمر على علم تامبوضع الخطة وطرق إجرائها قطعاً كذلك واقعة المحاولة لسم النبي من قبل المرأتين عائشة وحفصةولهم السهم الأوفر بذلك.

ثانياً: اتضح لنا أن واضعي الخطة والقائمين على إجرائها الأصليين هم المهاجرون القرشيّونلأن الأشخاص ذوي المكانة والأهمية والإعلام المترأسين على المنافقين المحترفين والمتهمينالأولين هم مهاجرون قرشيون ومن الجدير بالذكر أن الآية الشريفة﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُوَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ حيث جعلت الآية الكريمة كل فرد منهم رهين لطف النبي وقرين بذله ومديناً لهفهي والحال هذه دليل على هذا المطلب وإلا فإن طبقة الأنصار قد وصفهم صريح كلام الوحي بقوله:﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةًمِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُالْمُفْلِحُونَ**﴾ (١) فهم أصحاب البيت والباذلون المتفضّلون.

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٠.

نعم، إن كافة أفراد المنافقين المحترفين هم من طبقة المهاجرين القرشيين وعامة هؤلاء كماجاء في كلام الوحي وصفوا بأنهم﴿ **الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ** ﴾، ويلزم من ذلك فقرهم واحتياجهموضيق ذات أيديهم فإننا نفهم من خلال هذه اللوازم أن الجملة الشريفة:﴿ **وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ إشارة إلى ما لاقوه من شظف العيش وخشونته بعد ترك الديار فأغناهم اللهوتفضل عليهم ورفع حاجتهم واتسعت حالهم ولكنهم قابلوا ذلك بالجحود والنكران والكفران أليس النبي(ص) من يوم إقامته في المدينة وهو يعمل على رفع الحاجة عن المهاجرينوتغيير واقعهم المرير المعاش، ونظم أمورهم ورفع مستواهم المعيشي.

ومن تلك الآونة أعطى أبا بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وصهيب بنسنان وسائر المهاجرين كل ما حازوه من غنائم بني النضير وهو فيئه الخاص به صلوات الله عليه وعلى آل بيته الخاص به(١) وكان يختصهمبالسهم الأوفر من كل ما وصل إلى يده من الغنائم.

وعلى أية حال لا شك بأن واضعي خطة «العقبة» ومنفذيها هم من المهاجرين بخاصة طائفةقريش منهم وبناءً على هذا فإن الروايات العامية التي حصرت الموضوع بالأنصار وقصرته عليهمونفت أن يكون بينهم قرشي واحد، بإصرار شديد، هي روايات

---

(١) انظر مغازي الواقدي، ج١، ص٣٧٩؛ سيرة ابن هشام ج٢، ص٤٠١؛ فتوح البلدان ص١٨.

موضوعة وعرفت بذلك والروايةالتالية: نموذج منها:

«أخرج ابن سعد عن نافع بن جبير بن مطعم قال: لم يخبر رسول الله(ص) بأسماء المنافقينالذين تحسّوه ليلة العقبة بتبوك غير حذيفة رضى الله عنه وهم اثنا عشر رجلاً ليس فيهم قرشي وكلهم من الأنصار ومن حلفائهم»(١).

ونفس الرواية ذكرها الواقدي وأضاف بعد قوله: «ليس فيهم قرشي» العبارة التالية: «وهذا الأمر المجمع عليه عندنا» أي أن عدم حضور القرشيين فيحادثة العقبة أمر مجمع عليه عندنا وهو مورد اتفاق لكافة الناس(٢).

نعم إن إصرار واحد من المحققين على أن «الموضوع إجماعي ولا ينبغي أن يكون فرد واحدفي زمرة أصحاب العقبة» هو نفسه دليل على كون المطلب معلوماً.

وهذا ما كان من الخصوصيّات النوعية «لأصحاب العقبة» كما دلت عليها البحوث القرآنيةالمتقدمة.

وأما تحديد أسماء المشتركين واحداً واحداً فهو وإن كان صريحاً في روايات الشيعة وقدذكرت هذه الأسماء وفيهم: أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وطلحةبن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسالم مولى حذيفة والمغيرة بن

(١) الدر المنثور، ج٢، ص٢٦٠.
(٢) المغازي للوقدي، ج٣، ص١٠٤٥.

شعبة وعمرو بن العاص وخالدبن الوليد، وهم جميعاً الرؤساء المشار إليهم في الحزب الحاكم، لكننا عندما نرجع الى الرواياتالعامية نجدها تعمدت إهمال أسمائهم فالبخاري من طبقة المحدّثين وابن هشام من طبقة كتابالسيرة والطبري من طبقة المؤرخين لم يضبطوا لنا أمراً من أمور أصل الحادثة في العقبة، والذينتعرضوا لذكر شيء منها في جوامعهم ومسانيدهم مثل «أحمد بن حنبل» ومحمد بن عمر بن واقدومحمد بن مسلم وجلال الدين السيوطي وغيرهم، فإنهم أجملوا ذكر أسماء المشتركين في حادثةالعقبة بحيث يصعب تحديدها في هذا الكم الهائل من الروايات أجل، وأما بالنسبة لنا وقد تمكنابفضل البحوث القرآنية المتقدمة من وضع أيدينا على خصوصيات أصحاب العقبة النوعية، وعرفنا أنَّ القوم هم من الرؤوس المنافقة المعروفة في فئة المنافقين المنحرفين فليس علينا حرج منتصحيح الأسماء الواردة في الروايات الشيعية عنهم، لكننا في البحث القادم في نفس الوقت نتعقبالموضوع على أساس هذه الروايات العامية المجملة، لعلنا نصيب أثراً خلفتها أقدامهم.

٦ ـ أ ـ جلال الدين السيوطي يروي هذه الرواية في ذيل تفسير الآية (٧٤) من سورة التوبة:

«أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضى الله عنه في قوله: يحلفون بالله ما قالوا قال: همالذين ارادوا أن يدفعوا النبي(ص) ليلة العقبة، وكانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله(ص) وهم معهفي بعض أسفاره، فجعلوا يلتمسون غرّته حتى إذا أخذ في عقبه فتقدم بعضهم وتأخّر بعضهم وذلكليلاً قالوا إذا أخذ في العقبة

دفعناه عن راحلته في الوادي فسمع حذيفة رضى الله عنه وهو يسوق النبي(ص)وكان قائده تلك الليلة عمار وسائقه حذيفة بن اليمان فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل فالتفت فإذاهو بقوم ملثمين فقال إليكم إليكم يا أعداء الله فأمسكوا ومضى النبي(ص) حتى نزل منزله الذي أراد،فلما أصبح أرسل إليهم كلهم فقال: أردتم كذا وكذا، فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي سألهم عنهفذلك قوله: يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر الآية» (١).

وفيما نقله البيهقي عن عروة التي ذكرها السيوطي في الدر المنثور نفس الصفحة وكذلك مانقله أحمد بن حنبل في المسند (٢) وغيرهما وصرّح هؤلاء بأنَّ الحادثة المعهودة وقعتبطريق عودة النبي من غزوة تبوك.

وجاء فيما نقله أحمد بن حنبل من مسنده: أنهم لما بلغوا العقبة أمر رسول الله منادياً ينادي فيالعسكر بأن يسلكوا طريق الوادي الواقع بين شقي الجبل وارتفع هو وحذيفة وعمار إلى طريقالعقبة وهنا جرت الحادثة.

وفي الروايات الأخرى رويت القضية بعكس ذلك فكان المتقدم بين يدي رسول اللهوصاحب زمامه «حذيفة بن اليمان» والسائق وراءه عمار بن ياسر، هكذا نصت الرواية عليهما.

وفيما نقله البيهقي عن عروة ورواية الواقدي في كتاب المغازي

---

(١) الدر المنثور، ج٣، ص٢٥١.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ج٥، ص٤٥٣.

وغيرهما: فرجع حذيفة رواحلهم بمحجن في يده وظن القوم أن رسول الله(ص) قداطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله(ص) فساق به فلما خرج رسول الله من العقبة نزل الناس، فقال النبي(ص): يا حذيفة، هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ قال: يا رسول الله عرفت راحلة فلان وفلان وكان القوم متلثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل[١].

وفي رواية أحمد بن حنبل عن أبي الطفيل[٢] أن النبي(ص) سئل من عمار وأجابه عمار: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون.

وعلى أيّة حال يظهر من مجموع الروايات المتقدمة أن أعلم الناس بأمر «أصحاب العقبة» ومعرفتهم اثنان: حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر وكلاهما كان حاضر العقبة.

ب - ويروي أحمد بن حنبل عن أبي الطفيل رواية أخرى كالتالي:

«قال كان بين حذيفة وبين رجل من أهل العقبة ما يكون بين الناس فقال: أنشدك الله كم كان أصحاب العقبة؟! فقال له القوم أخبره إذ سألك قال: إن كنا نخبر أنهم أربعة عشر.

«قال فإن كنت معهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن

---

(١) الدر المنثور، ج٣، ص٢٥٩؛ والمغازي للواقدي، ج٣، ص١٠٤٣.
(٢) مسند أحمد، ج٥، ص٤٥٣.

اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١).

وروى هذا الحديث نفسه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين (٢).

وفيما نقله محمد بن عمر بن واقد وغيره أنّ المشادّة المذكورة وقعت بين عمار بن ياسر وذلك الرجل (٣).

والنكتة الملفتة للنظر هي أن حذيفة وعمار وهما أعلم الناس بأصحاب العقبة، كانا يركزّان على اثني عشر رجلاً منهم ويفردونهم عن أصحابهم ويرونهم أخبثهم وأكثرهم نفاقاً واختص الرجلان بمعرفة هؤلاء الاثني عشر رجلاً.

والآن مع أخذ النكتة المتقدمة بعين الاعتبار ندقق في الرواية التالية:

ج ـ أحمد بن حنبل في المسند روى فقال: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أسود بن عامر ثنا شعبة عن قتادة عن أبي نظرة عن قيس قال: قلت لعمار: أرأيتم صنعكم هذا الذي صنعتم فيما كان من أمر على رأيٍ رأيتموه أم شيئاً عهد إليكم رسول الله(ص)؟! «فقال: لم يعهد إلينا رسول الله(ص) شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني عن النبي(ص) قال في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون

---

(١) منسد أحمد بن حنبل، ج٥، ص٣٩٠.
(٢) صحيح مسلم، ج٤، ص٢١٤٤.
(٣) المغازي للواقدي، ج٣، ص١٠٤٤.

الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»[(١)].

وهذا الحديث نفسه وارد في صحيح مسلم[(٢)] ونلاحظ هنا السؤال الموجه إلى عمار من ذلك الرجل هو: خروجكم مع علي بن أبي طالب إلى البصرة لقتال طلحة والزبير وعائشة، أباجتهاد منكم اجتهدتموه ورأي رأيتموه أم بعهد عهده إليكم رسول الله(ص) فقال له عمار بصراحته المعهودة:

لم يعهد إلينا النبي عهداً دون الناس كافة ولكن حذيفة بن اليمان وكان حصل من النبي على أسرار المنافقين قال لي إنَّ النبي عهد إليه باسم اثني عشر رجلاً من أصحابه منهم ثمانية لا يشمون رائحة الجنة ولا ينالون نجاة أبداً وهذا هو سر إقدامنا على حرب الجمل.

وهنا لو بذل إنسان جهداً ليخرج الزبير وعائشة منهم فإنه لن يستطيع أن يخرج طلحة منهم فيقع موقع الشك من عمار ويقول: وهذا ربما لا يكون منهم، فإذا اتضح أمر طلحة اتضح أيضاً أمر إخوانه الآخرين وأعوانه الذين ساندوه في «قصة العقبة»، لأنَّ طلحة لا يقدم على أمر لا يطلع عليه أبا بكر بخاصة إذا كان بخطورة هذا الأمر وعلم أبي بكر بحادثة العقبة يستلزم علم عمر بها وعلم أبي عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وسالم مولى أبي حذيفة والمغيرة بن شعبة وغيرهم وهم المخططون الأذكياء وواضعوا الخرائط الدقيقة للمنافقين المحترفين، فلا محيص من معرفتهم بمايجري في العقبة.

---

(١) مسند أحمد، ح٥، ص٣٩٠، ص١٠٤٤.

(٢) صحيح مسلم ،كتاب صفات المنافقين، ح٤، ص٢١٤٣.

ربما يعترض البعض أنَّ الرواية لم تذكر العقبة صريحاً حتّى تتهم هذا الفريق الاثني عشر، إلا أنَّ الواقع كون النبي كشف به عن فريق واحد مؤلف من اثني عشر رجلاً من المنافقين المحترفين وهم أصحاب العقبة ولم يكن المكشوف عنه لحذيفة بن اليمان فريقين ليحصل الشك عندنا في أي الفريقين أصحاب العقبة.

وعلى أية حال لقد سبق منا أننا قلنا عن بحثنا القرآني السابق بأننا على ضوئه لا نحتاج إلى معرفة المنفذين الأصلاء لحادثة العقبة إلى بحث روائي لأن هذا البحث إما أن يتمحض للصحة والنقاء من كل شائبة وإما أن يؤدي إلى الجدل والأخذ والرد وإلى دهاليز المرافعات بشأن هذهِ الرواية أو تلك ولا محالة إن أصل المطلب هنا ما استنبطناه ونالته أيدينا وأثبتناه من البحث والتحقيق في الآيات التي كانت مورداً لبحوثنا.

وثبت لنا: أن مخططي «حادثة العقبة» ومنفذيها هم من الرؤوس الجبارة لفريق المنافقين المحترفين، وأنّ الحادثة تمت على أيدي القوم الذين تربّعوا على كرسيّ الحكم بعده، واحتوشوا أمر الخلافة بالصورة التي أعربت عن هويّتهم.

٧ ـ هذا وإن اتضح لنا وضع سائر الروايات في حادثة العقبة بطائفة من الروايات التي بحثناها بشأنها «إلا أنَّ جهاز وضع الحديث» سعى سعيه الخبيث في إخفاء أصل الحادثة وطمس معالم مرتكبيها، لذا أصبح من اللازم علينا أن نعود إلى نفس روايات عدة كانت من وضع هذا الجهاز والبحث حولها.

أ ـ نقل جلال الدين السيوطي في ذيل تفسير الآية ٧٤ من سورة التوبة فقال: «أخرج البيهقيفي الدلائل عن ابن إسحاق نحوه (إشارة إلى رواية قبلها) وزاد بعد قوله لحذيفة: هل عرفت من القومأحداً فقال: لا، فقال رسول الله(ص): إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم إنْ شاء الله عند وجه الصبح، فلما أصبح سمّاهم له: عبدالله بن أبي سعد وسعد بن أبي سرح وأبا حاضرالأعرابي وعامراً وأبا عامر والجلاس بن سويد بن الصامت ومجمع بن حارثة ومليحاً التيميوحصين بن نمير وطعمة بن أبيرق وعبدالله بن عيينة وقرة بن ربيع فهم اثنا عشر رجلاً حاربوا اللهورسوله وأرادوا قتله فأطلع الله نبيه(ص) على ذلك وذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: «وهموا بما لم ينالوا»وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة»(٢).

ونقول عن الأسماء من أصحاب العقبة الواردة في الرواية وأمثالها:

أولاً: إنَّ عموم الأفراد المذكورين هم من المنافقين العاديين الذين لم يحضروا تبوك طبقاً لماحققناه من البحث القرآني حول ذلك.

ثانياً: مما فعله النبي(ص) من إفشائها لا تترتب عليه حرمة شرعية أي أننا نقطع أنَّ إفشاءأسماء كل واحد منهم ليس من قبيل إفشاء أسماء المؤمنين الذين يقدمون على فعل المعاصي فيالخفاء ولا يحبون أن يعرفوا بذلك فتنحط أقدارهم وتلزمهم التبعات أو يلحق بهم العار وإنّا

---

(١) الدر المنثور، ج٣، ص٢٥٩.

لكان إفشاء أسمائهم محرماً حتى لحذيفة وعمار.

إذن لما لم يكن لكشف أسمائهم حرمة شرعية ولكننا نرى النبي(ص)يبالغ في كتمانها فلايصرح بها إلا لحذيفة وعمار نعلم علماً يقيناً أن إفشاء أسمائهم أمام الناس يعود بالضرر البالغ على الإسلام ويوجب الخلط والإفساد في المجتمع المسلم ويضرب بعضه ببعض!

وهذا المطلب يثبت لنا أن أصحاب العقبة لم يكونوا إلا من المنافقين المحترفين لا غيرهم ولايمكن انطباق مواصفاتهم على فريق آخر، لأنهم وحدهم الرائجون في المجتمع المسلم وأصحاب الوجاهة بين المسلمين وهم عند العوام من المسلمين ذوي الزلفى والقرب، وإلا فإنَّ كشف رجل كعبدالله بن أبي سعد وسعد بن أبي سرح وغيرهم من مشاهير المنافقين العاديين المعلنين للفسق لا يشكل خطراً على الإسلام وليس وراء ذلك وحشة تتهدده كما أنهم لم يكونوا في يوم ما بالمكانة المحترمة بين المسلمين.

ثالثاً: ورابعاً: ... ب ـ نقل محمد بن عمر بن واقد في «كتاب المغازي»(١) ضمن الروايات المتصلة «بحادثة العقبة» القول الثاني: فلما أصبح قال له أسيد بن الحضير يا رسول الله، ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من العقبة؟ قال: يا أبا يحيى أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما أهموا به؟! قالوا نتبعه في العقبة فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني من راحلتي، فقال أسيد: يا رسول الله فقد اجتمع الناس ونزلوا فمر

(١) المغازي للواقدي، ج٣، ص١٠٤٣.

كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله فإن أحببت والذي بعثك بالحق فنبئني بهم فلا تبرح حتى آتيكم برؤوسهم، وإن كانوا في البين فكفيتكم وأمرت سيد الخزرج فكفاك من في ناحيته.

في هذه الرواية مضافاً إلى ما يبدو من ظاهرها أنّ «أصحاب العقبة» هم من منافقي أهل المدينة العاديين فقد سعى القوم حتى يكسبوا ل «أسيد بن حضير» وهو منافق محترف بعض ماء الوجه أو يظهرونه على البراءة وأنه لا علم له بما جرى على أقل تقدير وهي قد جرت على أيدي خلطائه وأصحابه المخلصين ورؤوس المنافقين المحترفين.

وقد تحدثنا عن شخصية أسيد بن حضير المنحرفة إلى حدّ ما، وهو رجل من المعروفين وأصحاب الرأي في المنافقين المحترفين وعضو فاعل في الحزب الحاكم أيام حوادث السقيفة، وهو ممن شارك في كشف بيت الزهراء÷ .

ج ـ وفي نقل آخر من الواقدي حول إفشاء النبي لحذيفة أسماء «أصحاب العقبة» روى هذه الرواية:

«فقال النبي(ص): فإني مسر إليك أمراً فلا تذكرنّه، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان وفلان ـ رهط عدة من المنافقين ولا يعلم رسول الله(ص) ذكرهم لأحد غير حذيفة، فلما توفي رسول الله(ص) ـ كان عمر بن الخطاب في خلافته إذا مات رجل ممن يظن أنه من أولئك الرهط، أخذ بيد حذيفة فقاده إلى الصلاة عليه فإن مشى معه

حذيفة صلى عليه عمر وإن انتزع يده وأبى أن يمشيانصرف معه» (١).

ومن المعلوم أن هدف الواضعين هنا يحوم حول عمر بن الخطاب ليصوروه جاهلاً بمجريات «حادثة العقبة» وليضفوا عليه هالة من القدسية، وأنه في عهد خلافته لا يكاد يفارق حذيفة أو يفارقهحذيفة وأنهما صاحبان رفيقان وأن عمر يفيد من علم حذيفة بالمنافقين أصحاب العقبة لكن البحثالقرآني المتقدم نظير البحث القرآني حول سورة التحريم أثبت دوره ودور صاحبه أبي بكر وهما فيرأس القائمة من المنافقين المحترفين، وعضوين مهمين من الحزب الحاكم في حادثة العقبة وجعلهمن المسلمات، وينفي صلة عمر بحذيفة ونفرة أحدهما من الآخر ما كان بين حذيفة وعمار بن ياسرمن العلاقات وما عندهما من الأسرار المهمة عن المنافقين المحترفين في العقبة وقولهما بإمامة أميرالمؤمنين ولزوم خلافته على الأمة ومحبتهما له واعتقادهما بولايته، وهذا أكبر دليل على وجودالبرود في تلك العلاقة المزعومة ومعها علاقته بالأخوين الملحقين بعمر بن الخطاب.

أجل إنَّ إبعاد حذيفة بن اليمان من المدينة في عهد عمر وعثمان ودفعه إلى إمارة المدائنوغيرها وإقصاءه عن مركز الحكومة الإسلامية المزعومة وأخيراً سكناه في العراق باختيار منه حتىهلاك عمر لأعظم دليل على كراهية جهاز الخلافة لصحبته ووجوده إلى جانبهم كما أن حذيفة أوعزإلى ولديه «سعيد» و «صفوان» بملازمة

---

(١) المغازي للواقدي، ج٣، ص١٠٤٥.

ركاب الإمام(ع) وشهادتهما معه بصفين دليل مشرق آخر على عميق وداد هذه الأسرة لأهل البيت(ع).

٨ ـ كما سبق بيانه وأثبتناه قبلاً أن الارتباط التام بين الآيات الأربع عشرة التي دار البحث حولها وهي الآيات ٦١ إلى ٧٤ سورة التوبة) واتصال بعضها بالبعض الآخر، أفاد بأن صدر الآيات وذيلها مرتبطان كلاهما بتعريف فريق المنافقين المحترفين الذين خططوا لـ «حادثة العقبة» وقاموا على إجرائها في طريق العودة من غزوة تبوك، وكشف الستار عنهم.

وبناءً على هذا الأصل رفعنا النقاب عن الروايات الأخرى الموضوعة بواسطة «جمعية وضع الحديث الملحقة بجهاز الخلافة» من أجل احتواء الآيات وتحويل معانيها وافتعال شأن نزول خاص متفاوت بكل آية آية.

والروايات المشار إليها مذكورة نوعاً في الدر المنثور للسيوطي تحت ذيل الآيات التي كانت موضوعاً للبحث لدينا، وذكرها الطبرسي أيضاً في مجمع البيان[١] بشكل خلاصة فيها تحدد شأن نزول الآيات الواقعة موقع البحث بعنوان أقوال للمفسرين المختلفة ومع التحقيق الصادر في البحث القرآني المتقدم يظهر هشاشة تلك الروايات والأقوال ـ ما عدا الذي ذكر في حادثة العقبة ـ وعند عرضها على مفاد الآيات التي تولينا بحثها بانت مسألة وضعها وافتعالها بأجمعها.

---

(١) مجمع البيان للطبرسي، ج٢، ص٤٤ ، ٤٦، ٥١.

٩ ـ لما ظهر جلياً أن الآيات الأربع عشرة كلها التي وقعت في مجال البحث نزلت في كشف حقيقة فريق المنافقين المحترفين وتمييز هويتهم وأنهم هم واضعوا خطة «حادثة العقبة» وراسموا تصاميمها وهم الذين قصدوا تنفيذها في طريق العودة، واقتصرت الآيات على بيان هذا الموضوع فحسب نعلم بالطبع: أن الغرض من استعمال كلمة «الكفار» المذكورة في الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ هم أولئك القوم المبيرون أنفسهم من ذلك الفريق وأطلقت اللفظة عليهم لأنهم واضعوا الخطة الخبيثة ومن ذلك نفهم أيضاً أن لفظ المنافقين يقصد به سائر أفرادهم الذين انقادوا لهم وألقوا إليهم زمام الطاعة ويكون المعنى في اللفظتين كالتالي أن الغرض من لفظ «كفار» هو إطلاقه على أصحاب الخطة ومصمميها ومريدي تنفيذها عند العودة وإطلاق لفظ المنافقين على الأتباع الذين ساروا على خطاهم ونهجوا نهجهم أرشدت إلى ذلك الدلالات التي اتبعناها.

فكما ثبت في البحث القرآني المتقدّم حول الآيات المرتبطة بغزوة تبوك أن المنافقين العاديين أساساً لم يخرجوا مع النبي في غزوة تبوك لكي يكون لهم ضلع في حادثة العقبة.

نعم، عندما نرى في الآية الشريفة ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ**

مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾وهي الآية التي تلت الآية (٧٣) وعودة الضمائر كلها المذكورة للغائب فيها تعود إلى «الكفاروالمنافقين» أنفسهم المذكورين في الآية السابقة، نفهم جيداً أن مصداق الكلمتين هم المنافقون المحترفون أصحاب «حادثة العقبة» وإنما اختلف التعبير عنهم بلفظ الكفار والمنافقين فلتفاوت درجاتهم بالشقاوة وإلّا فمن الواضح عدم اشتراك الكفار والمنافقين العاديين في غزوة تبوك وبهذانجزم بعدم إرادة المعنى الحقيقي من إطلاقهما.

والعجيب في الأمر أنّ الآية الشريفة:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَوَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْوَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وردت في موضعين من القرآن الكريم بدون إضافة حرف أو إسقاطهبل بنفس الصيغة الواحدة وفي كليهما قصد جماعة من المنافقين المحترفين الذين أرادوا القضاءعلى النبي وتصفيته وهو الموضع الأوّل في هذه السورة نفسها عن أصحاب العقبة، والآخر في سورةالتحريم ويرتبط في محاولة دسّ السم إلى النبي بواسطة عائشة وحفصة وأقربائهما [حديث الخطةالموضوعة لدس السم للنبي مذكور في بحث آيات سورة التحريم فارجعوا إلى هناك].

إلى هنا نختم البحث في الآيات ٦١ إلى ٧٤ من سورة التوبة المرتبطة بوضع المنافقينالمحترفين من حيث كون نفاقهم معلولاً للعلة الرابعة من العلل الأربع ونقول مجدداً من باب أخذالنتيجة:

إنّ آيات سورة التوبة هي أحسن الآيات وفي نفس الوقت أجلاها وأوضحها لبيان أقسامالمنافقين المختلفة وهي تركز على

تحديد بؤرة الخبث لكل فئة منهم، أجل ظهر في البحوث الأخيرةبصورة ثابتة لا ريب فيها أن بؤرة خبث المنافقين المحترفين أكثر وعداوتهم لله ورسوله أشد وأعظممن عداهم من المنافقين.

وعلى أية حال لقد تمَّ لحد الآن بحث مائة واثنتين وعشرين آية من أصل مائة وتسعوعشرين.

والآن نأخذ بالبحث في الآيات السبع الباقية (الآيات ١٢٣ إلى ١٢٩) وجل معناها ناظرإلى بيان وظائف المؤمنين في قبال فريق المنافقين المحترفين أي (فريق الذين في قلوبهم مرض)،ونسأل الله التوفيق لنا جميعاً.

بحث الآيات السبع من آخر سورة التوبة وبيان التكاليف الخاصة بالمؤمنين في قبال المنافقين المحترفين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِي اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾.

ما ينبغي أن يكون مدّ النظر فيه من تحقيق الآيات السبع (وهي آخر آيات سورة التوبة) هيالأمور التالية:

١ ـ إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الحقيقة النحوية وهي: عودة الضمير إلى الأقرب، فإن ضميرالجمع الغائب المتصل الوارد في

الجملة﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً...**﴾(١) فإن كلمة«الكفار» الواردة في الآية السابقة يعني الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ هي مرجع الضمير المتقدم، ويكون المعنى المراد «من الذين يلونكم من الكفار» الذين أمر المؤمنون بقتالهم وإعلان الحرب عليهم هم المنافقون المحترفون فقد أمر المؤمنون اتباعاً لكلام الوحي بمقاتلتهم وشنّ الحرب عليهم.

نعم إذا ما سلمنا أن الآيات التالية مرتبطة بالمنافقين المحترفين فريق «الذين في قلوبهم مرض» وسلمنا أيضاً أن «الضمير» يعود على أقرب مرجع له، نقطع بالجزم واليقين أن الغرض من الكفار الواردين في الآية (١٢٣) هم المنافقون المحترفون أنفسهم لا غيرهم.

ألا يقال: إذا كان الأمر كذلك فما الذي منع من قتالهم؟

لأننا نقول كما قلنا قبلاً ونقول لاحقاً أن الآيات أعلاه نزلت في آخر أيام النبي(ص) وهي في الأعم الأغلب ناظرة إلى ما يخص معاملة المسلمين للمنافقين المحترفين في السيرة والسلوك، حتى لا يركنوا إليهم بعد وفاة النبي(ص) بحيث يجر ذلك إلى غصب الخلافة التي هي حق مسلم للإمام أمير المؤمنين(ع) .

وفي الواقع أنّ الآية المذكورة مرادفة للآية الشريفة: ﴿**فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ**

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٤.

أعمَالكُمْ﴾ (١) وللآية الشريفة﴿ **اليَوْمَ يَئِسَ الّذِينَ كَفرُوا مِنْ دِينِكُمْفَلا تَخْشَوْهُمْوَاخْشَوْنِي﴾** (٢) فإن الله في هذه الآيات يحذر المؤمنين أن يبدو تساهلاً إزاء المنافقينالمحترفين أو عطفاً عليهم أو يسالموهم ويتركوا صاحب الحق وحده ينوء بما حمّل من عدوانالمنافقين المحترفين وعلي هو صاحب الحق المهتضم وعندئذٍ يقعون تحت طائلة العقاب والنكالمن الله تعالى، ويتعرضون لغضبه وسخطه.

أجل، إن الآيات الثلاث إذا وضعها الباحث أمام عينيه ولاحظها على حسب نزولها فإنه يرىحتماً تفاوت الخطاب فيها مع المحافظة على وحدة الهدف الذي تحويه جميعها وعند ذلك يُلمبقرائن الحال المصاحبة لنزول كل آية منها كذلك يعرف عظم المسؤولية المنوطة بالمؤمنينواشتدادها في قبال ما يبديه المنافقون المحترفون من الفعّاليات المتزايدة والمتعاظمة.

[بحثنا مفاد الآية ٣٥ سورة محمد ومفاد الآية ٣ من سورة المائدة فليرجع إليه].

وعلى أية حال لا شك بأن المنافقين المحترفين اعتبروا في الاصطلاح القرآني «كفاراً»وصنفوا مع الكفار في قائمة أعدء الدين، ونحن أرشدنا إلى هذا المعنى فيما سبق وسقنا الأدلة عليه،نظير الآية الشريفة: ﴿ **وَأَمَّا الّذِينَ فِي قلوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتوا وَهُمْكَافِرُونَ﴾** وهي الآية الثالثة من الآيات السبع المثبتة

---

(١) سورة محمد.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

أعلاه، ودلالتها على ما قلناه ظاهرة وبناءً على هذا عندما نذعن بأنّ المنافقين المحترفين هم الكفار في التعبير القرآني المتقدم ولا مانع من حمل الكفار الواردة في الآية الموجه لها بحثنا فإن سياق الآيات ولغة الخطاب فيها لدليل ناصع على إثبات ما ادّعيناه وإلا لو أننا فصلنا الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ من سياقها واعتبرناها معنى قائماً بنفسه ولا صلة له بما قبله وما بعده وقلنا إن الله تعالى يأمر المؤمنين بشنّ الحرب المبتدئة على الكافرين وعلى الأمم الأخرى الذين لا يدينون بدين الإسلام وأن يظلّوا محاربين إلى هذا اليوم ما لم تدن الكرة الأرضية ومن عليها بدينهم.

وحينئذٍ ينبغي أن نرضى بما يقال عن الإسلام من أنه «دين حرب» والمسلمون مع فرض رفضهم للإمام المعصوم بعد النبي وهم أهل السنة أو فرض عدم بسط اليد للإمام المعصوم في عقيدة الشيعة فإنّهم على طول الزمن معبّأون لخوض المعارك وشنّ الحروب على محدّب الكرة الأرضيّة وسفك الدماء والفساد في الأرض باسم الجهاد الديني ولا يزال سلاحهم الفتاك بأيديهم يعترضون الناس بالقتل والإبادة لحملهم على الاعتراف بأمر لا يريدون الاعتراف به، كما جرى بعد وفاة النبي لمغتصبي الخلافة والمتآمرين على الأمة بدون رضا منها والزاعمين لهم السيادة عليها وهم قوم أغبياء لا معرفة لهم ولا دين فقد ادّعوا هذه المهمة لأنفسهم، وأشعلوا الفتنة والفساد في الأمم المجاورة وأهلكوا الحرث والنسل وحجتهم إقامة قواعد الدين ونشر الإسلام المبين.

ثم إنّ الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةًوَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ مع ما اختصت به من السياق وكذلك مع الإشكال العقلي مار الذكرلا يمكن أن تتكفل ببيان وظيفة مطلقة إزاء الهجوم الإسلامي كما يزعم له، وهذا لا ترديد ولا شبهةفيه، كما لا شبهة في أن أقرب الكفار إلى المؤمنين والمسلمين الحقيقيين هم فئة المنافقين المحترفينلأنه ليس غيرهم ممن يعتقد الكفر في قلبه من مازج المسلمين وخالطهم في مجتمعهم مخالطةتمحى بها الفروق، وعمدوا إلى العمل جنباً إلى جنب مع المؤمنين في الفعاليات الاجتماعيةالإسلامية واستطاعوا بما كونوا لأنفسهم من علاقات مع جهات معيّنة وأوجدوا من تحزب فيالمجتمع الواحد أن يضعوا مخطط حكومة حزبية شيطانية ويهيأوا المناخ الصالح لقبولها بعد انتقالالنبي إلى الرفيق الأعلى.

وبناءً على هذا فلا بدع أن تقوم الآية الشريفة وأمثالها من الآيات ذات الصلة بالموضوعبتحذير المؤمنين حتى لا يخدعوا بهؤلاء المتظاهرين بالإسلام، ولا يقعوا تحت هيمنتهم وأن يقوموابنصرة الإمام مفترض الطاعة وتقوية جانبه لكي يتسنّى له مقاومة الكافرين وإيقاد الملاحم عليهم،وهذا شأن معقول جداً.

٢ ـ كما ذكرنا أنّ الآياتالنازلة في آخر سورة (التوبة) ينبغي أن تكون قد نزلت جواباً لآخر ما أبداه المنافقون المحترفون منتحديات ومؤامرات، وبالطبع يمكن اعتبار هذه التحديات هو ما اجترحوه من السيئات في الأيام الأخيرة منعمر المصطفى(ص)،

وعند سريره وهو يعالج عليه سكرات الموت من رد الصحيفة والدواةو العقبات التي يحدثونها بين يدي النبي كتعطيلهم «بعث أسامة بن زيد» وتخلفهم عن اللحاق به،وغير ذلك من الأمور.

أخرج السيوطي في الدر المنثوربطرق مختلفة عن أبي بن كعب مضمون هذهالرواية:

«إنَّ أبي بن كعب كان يقول: إنَّ أحدث القرآن عهداً بالله وفي لفظ بالسماء ـ هاتان الآيتان: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ* فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾» (١).

الرواية أعلاه وإن كانت بظاهرها تتحدث عن الآيتين الأخيرتين من «سورة التوبة» إلا أنَّ اتصالهما التام بالآيات الخمس قبلهما النازلة في فئة «الذين في قلوبهم مرض» يظهر بجلاء ووضوحتامّين أنّ مجموع الآيات التي وقعت مورداً للبحث نزلت في وضع مشابه لوضع الدواة والقرطاسوغيرها التي حدثت في الأيام الأخيرة لحياة النبي(ص) وقام به رؤوس المنافقين المحترفينوجرى على أيديهم وهم الممثلون لأدواره.

وإلى هنا ننهي البحث لسبع آيات من آخر سورة التوبة (الآيات ١٢٣ إلى ١٢٩) والنكتة الملفتةللنظر والتي يجب أن تبقى عالقة

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

بالبال هي:

إنَّ فريق المنافقين المحترفين المعبّر عنهم في لغة الوحي: «الذين في قلوبهم مرض، الذينيؤذون الله ورسوله، الذين يحادّون الله ورسوله» فكما كانوا في الآيات الأولى من نزول الوحيمحلاً للتوبيخ في سياق الكافرين من الله تعالى فهم الآن في آخر ما نزل من القرآن، ذكرهم الوحيأيضاً ونراهم كما سبق لهم ذكر مع الكافرين يذكرون هنا معهم أيضاً بل اعتبروا أشدّ كفراً منالكافرين أنفسهم وقد ذكرتهم الآيات الأولى كالتالي:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَوَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌوَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُوَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ (١).

[مر البحث الكامل لهذه الآية في القسم الأول من هذا الكتاب فليرجع إليه هناك من شاء].

وفي آخر الآيات ذكر هؤلاء القوم على النحو التالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾.

وفي الختام لما كان ثلاثة أرباع سورة التوبة نزل في ضعفاء الإيمان والمنافقين وبيان أقسامالنفاق وشرح صفاتهم الباطنية لكل فئة منهم نلفت الأنظار إلى أنَّ سبب تسمية السورة في الصدر الأوّل للإسلام ذكر جلال الدين السيوطي في مفتتح تفسيره لسورة التوبة من كتابه «الدر المنثور»(١) ما يقرب من عشر روايات، سميت فيها السورة في الصدر الأول للإسلام وهو زمن وجودالنبي ووجود أصحابه بأسماء «سورة العذاب»، «سورة الفاضحة»، «سورة المقشقشة، سورة المنفرة،سورة المعبّرة» وكذلك نقل أبو علي الطبرسي في كتابه «مجمع البيان»(٢) عن مفسريصدر الإسلام عشرة أسماء لهذه السورة وفي بعض يوافق السيوطي ويخالفه في البعض الآخروالأسماء الأخرى التي ذكرها الطبرسي لتلك السورة على النحو التالي: «سورة المبعثرة، سورةالبحوث، سورة المدمدمة، سورة

(١) الدر المنثور، ج٣، ص٢٩٥
(٢) مجمع البيان للطبرسي، ج٣، ص١.

الحافزة، سورة المثيرة».

وفي مجمل الروايات المروية في هذا الموضوع والتي ذكرت فيها الأسماء المعهودة ذكرأكثرها على أثر التوبيخ والتقريع الذي وبّخ الله به المنافقين وورد الاسم مطابقاً لمقتضى الحال، يعني أنَّ السبب في تسمية السورة بالفاضحة إنما كان لافتضاح المنافقين بها.

البحث الخاص بالنظام التركيبي لآيات سورة التوبة وسر اتصالها بسورة الأنفال

لقد تم تحقيق مائة وتسع وثلاثين آية من «سورة التوبة» على النحو التالي:

أ ـ سبع وثلاثون آية من أول السورة، وتعرف بآيات البراءة لنزولها في أول السورة ولبرائتهامن المشركين ونفورها منهم وإعلان الحرب عليهم وعلى أهل الكتاب الذين حرّفوا دينهم وبدلوموغيروا اتجاهه وسلكوا جادة الشرك والغواية تبعاً لذلك.

ب ـ الآيات المرتبطة بغزوة تبوك وتشمل الأزمنة الثلاثة قبل إعلان المسيرة وبعد إعلانهاحين السير وبعد العودة إلى المدينة منها.

ج ـ الآيات الخاصة بتحديد أقسام المنافقين وتعيين مركز الخبث عند كل فئة منهم.

د ـ الآيات السبع الأخيرة تختص ببيان تكاليف المؤمنين وما يلزمهم ويجب عليهم إزاء فريق «الذين في قلوبهم مرض».

والآن نلفت انتباهكم إلى البحث التالي: إنّ زمان نزول الآيات الثلاثين بعد السابعة وهيالآيات الأولى من سورة التوبة ـ والظاهر أن جهداً مبذولاً سعى لجعل الارتباط بين الآيات معلناًومنظوراً[(١)].

---

(١) وإنّما قلنا إنّه سُعي لجعل ارتباط الآيات واضحاً ومنظوراً فللسبب التالي: لأنّ

وهذه الطائفة من الآيات تؤلف ما يقارب الربع من مجموع آيات السورة ـ ينبغي أن يكونقبل قدوم موسم الحج من السنة التاسعة.

كما تدل على ذلك كلمة يوم الحج الأكبر المذكورة في الآية الشريفة: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِإِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْفَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وكذلك تدل عليه كلمة «بعدعامهم هذا» المذكورة في الآية الشريفة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوالمَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌحَكِيمٌ﴾.

من جهة أخرى لما كانت وقعة تبوك قد حدثت قبل موسم حج السنة التاسعة بأشهر وهو مورداتفاق الأمة فينبغي أن يكون زمان الآيات المرتبطة بتلك الغزوة ضرورة قبل نزول آيات البراءة.

وبناءً على هذا يكون النظم التركيبي لآيات سورة التوبة لو أنها

المرء عندما يدقق في الآيات ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾سورة التوبة، يدرك جيداً أنَّ الآيات آنفة اذكر ترتبط بتحريض المؤمنين على فتح مكة كما يدلُّ على ذلك الجملات التالية بصراحة واضحة نكثوا أيمانهم، وهمّوا بإخراج الرسول، وهم بدءوكم أوّل مرة ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم، مع أنَّ من المسلم به أنَّ فتح مكة وقع في رمضان من السنة الثامنة ولم يفصل بينه وبين السنة التاسعة للهجرة إلا ما ينيف على السنة قليلاً.

نظمت بصورة طبيعية فأنَّ آياتالبراءة تقع بعد الآيات المرتبطة بغزوة تبوك، بينما نراها قد تقدمتها ومن أجل هذا التقدم اشتهرتالسورة باسم:«سورة براءة»، وإلّا فإننا قد اتضح لنا في ختام البحث السابق تعدد أسمائها في الصدر الأول للإسلام أي في عهد رسول الله(ص) ومن بعده بلحاظ ما تحتويه آياتها وربما نافت على الربع،من تقريع المنافقين وبيان العقبات التي يحدثونها في طريق الإسلام واحتوائهم على الصفاتالقذرة، لذلك حملت السورة أسماءاً غير ما عرفت به اليوم وكلها تدور حول ما يجري على أيديالمنافقين، ولا أثر لآيات البراءة في استحداث اسم للسورة.

وهنا يرد سؤال مستوحىً مما عليه الحال وهو:

لماذا تغلبت آيات البراءة في النظام التركيبي للقرآن المتداول اليوم والرسمي من قبل الحزبالحاكم أي المنافقون المحترفون مع توابعها التي لا تعدو ربع ما في السورة من آيات.

أقول: لماذا تغلبت على سائر آيات السورة فلم تكتسب اسمها منها وما الذي يحدث لو ابتدأوابالآيات المرتبطة بغزوة تبوك، وهي متقدمة بالنزول على غيرها ثم تلحق بها آيات البراءة المتأخرةنزولاً، وتبدأ سورة التوبة في نظامها التركيبي على النحو التالي:

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهاثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾ إلىآخر الآيات المقدمة على آيات البراءة من حيث النزول.

ولابدَّ من حصول الأنس الذهني عند المسلمين مدة أربعة عشر قرناً وهم يتلون السورة طبقاًللنظام التركيبي الفعلي للقرآن المتداول بين المسلمين فرأوا أن تصدير السورة بالبسملة مع ما عليهتركيبها من البدأة بآيات العقاب والعذاب ليس موجهاً فتساءلوا كيف يصح الابتداء في سورة التوبة «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم يتلوها قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ما لكم ...**﴾ الآية، وتبدأ بهاالسورة.

ونقول في جواب هذا التوجيه المعتمد على الاستبعاد الذهني:

إن من يلاحظ بدايات السور القرآنية يجد البدأة بخطاب كهذا الخطاب أمراً عادياً أليستسورة الممتحنة وسورة الحجرات وسورة المائدة مبدوئة بخطاب مثله.

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَإِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْكُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَاأَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ (١).

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (٢).

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ**

(١) سورة الممتحنة.

(٢) سورة الحجرات.

حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١).

إذن هذا الاستبعاد الذهني الناتج من الأنس الطويل بالنظام التركيبي للقرآن موجود ومتداول وليس مقصوراً على سورة التوبة وحدها، وهو لا يصلح دليلاً لنفي صحة النظام الطبيعي المترتب على أوقات النزول.

والسؤال الملح الذي يراود خاطر كل تالٍ للقرآن الشريف هو: لماذا زينت بسم الله الرحمن الرحيم صدر كل سورة من القرآن الكريم ولكن عندما وصلت النوبة إلى سورة التوبة خلت من هذه الزينة، وتعرت من تلك الشارة الشريفة وكل الذي قلناه لحد الآن يرتبط بنقد جانب من النظام التركيبي لآيات سورة التوبة في القرآن المتداول والآن نعطف الانتباه إلى النظام الترتيبي في نفس السورة فنقول:

إنّ سورة الأنفال وسورة التوبة وهما سورتان من سور القرآن كانتا منفصلتين عن بعضهما البعض حين النزول، ولاشك في ذلك كما أنَّ سورة الأنفال هي من أولى السور النازلة في المدينة وسورة التوبة من أخراها أي آخر ما نزلت في المدينة وهذا أيضاً لا يرتاب فيه أحد.

وهنا يلح سؤال ضروري وهو: لماذا ذكرت سورة التوبة في التنظيم الفعلي للقرآن قبل سورة الأنفال مباشرة ولم يفصل بينهما فاصل البسملة، واعتبروا هاتين السورتين منضمتين من السور الطوال وبدلوا

---

(١) سورة المائدة.

مكان سورتي الأعراف ويونس أليس جامعوا القرآن الكريم وهم الحزب الحاكم قدْ نظموا السور على أساس طول السورة وقصرها؟ فلماذا إذن قدموا سورة الأنفال ولا تحتوي إلاعلى خمس وسبعين آية فوضعوها في غير مكانها وجاؤوا بسورة التوبة ذات المائة والتاسعةوالعشرين آيةً. وينبغي أن تكون وحدها من طوال السور فألحقوها بسورة الأنفال، وضمّواالسورتين إلى بعضهما واعتبرا من السور الطوال.

أما نحن فعلى يقين من السر الذي حملهم على فعل ذلك، وقد حققنا معظم الآيات من سورةالأنفال في فيما سبق وآيات سورة التوبة كلها في هذا القسم نفسه (القسم الثامن عشر) والسرالمعهود هو محو الأثر الذي تركه المنافقون في سيرهم الخبيث مع النبي(ص) بخلط النظام الطبيعيلسورة التوبة أولاً، وإلحاق سورة التوبة بسورة الأنفال ثانياً، كل هذا جرى لإخفاء المعالم التي تركهاالمنافقون والمحترفون منهم بالذات.

لما أدرك جامعو القرآن أن الآيات ٦١ إلى ٧٤ من سورة التوبة نزلت في ذم رؤوس النفاقوتقريعهم وتوبيخهم وفضح فريقهم المنافق المحترف وأيضاً النصف الأكبر منها أي من آيات سورةالتوبة نزلت في ذم المنافقين العاديين وضعيفي الإيمان، وهم بصفة قاطعة يؤيدون الحزب الحاكملذلك عمدوا من أجل إخفاء الوضع الموجود في سورة التوبة ابتداءً إلى خلط النظام الطبيعي لسورةالتوبة بأن قدموا آيات البراءة وما ماثلها ومجموعها سبع وثلاثون آية على سائر آيات السورة ثمتمكنوا من توظيف الآيات التي تحتوي على البراءة من

المشركين والنفرة منهم وتدعو إلى شن الحرب عليهم لصالحهم فألحقوها بسورة الأنفال ذات المحتوى المماثل لآيات البراءة من الدعوة إلى قتال المشركين المغلوبين في غزوة أحد وحذفوا البسملة اللازم إثباتها بين السورتين لإعلان الفصل ليحسب كلاهما سورة واحدة وتنضم إلى السور الطوال لكي تختفي حدة الآيات السبع والثلاثين الخاصة بالمنافقين من سورة التوبة عندما يُدمن القارىء التلاوة ويكتسب من طول ذلك «الأنس الذهني» بما تنطوي عليه سورة الأنفال من ذم المشركين وتقريعهم وإيعادهم وحينئذٍ تخبو وقدة الآيات الخاصة بالمنافقين ثم يحمل الكفر في الآيات على الكفر الاصطلاحي وقد سبق بيان أنّ هذا الكفر يشار به إلى المنافقين المحترفين.

[لمزيد الاطلاع على موضوع التصرف والتدخل منهم في نظم الآيات وترتيبها يراجع الفصل من هذا الكتاب الذي وضع للتحقيق في النظام الترتيبي والتركيبي للسور والآيات من القرآن المجيد].

وإلى هنا ينتهي تحقيق «سورة التوبة» الذي جرى بناءً على اعتبارها آخر سورة نزلت حسب ترتيب النزول ونعيد الكرة من أجل حضور ذهن القارىء في جدولتها مجدداً على شكل فهرسة للبحوث التي تقدّمت:

١ ـ جرى البحث أولاً عن آخر ما أنزل من السور.

٢ ـ ثم اقتطفنا سبعاً وثلاثين آية منها أي من سورة التوبة التي تضم عدداً من الآيات في البراءة من المشركين وهي التي أمر علي بإبلاغها في شهر ذي الحجة السنة التاسعة من الهجرة في موسم الحج

مع الترجمة والتحقيق.

٣ ـ وبعد ذلك حاولنا تمييز الآيات المختصة بغزوة تبوك من سورة التوبة والتعرف على مراميها وتحديد معانيها.

٤ ـ ثم عمدنا إلى عزل الآيات التي يستبان منها وضع المنافقين ومعرفة أقسامهم في مستويات النفاق التي تعرضت لها سورة التوبة وشفعنا ذلك بالبحث والتحقيق وأما عن أصحاب العقبة فقد تناولنا الموضوع بالتحقيق ووصلنا من خلال ذلك إلى نتائج مهمة.

٥ ـ ثم أفردنا الآيات السبع الأخيرة بالبحث وهي الآيات التي تحدد تكاليف المؤمنين إزاء المنافقين من حيث التعامل معهم وبناء العلاقات شكلاً ومضموناً.

وفي الختام: أجرينا البحث في النظام التركيبي لسورة التوبة في القرآن المتداول اليوم بأيدي المسلمين، وكشفنا كذلك عن سر اتصال سورة التوبة بسورة الأنفال وألقينا الأضواء الموضحة حول ذلك.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

فهرست الموضوعات

هوية الكتاب.................................. ٤

القسم الرابع عشر:الايات المختصة بالافك من سورة النور من١١-٢٦..٦

الفصل الاول :متون الآيات ١١ - ٢٦من سورة النور المعروفة بـ «آيات الإفك»..............................٨

الفصل الثاني: ثلاث قضايا من سياق الآيات الكريمة ١٠

الفصل الثالث: إسقاطات الإفك وإسفاف الترويج...... ....١٣

الفصل الرابع: تحقيق آية ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ...١٦

الفصل الخامس: أهل الإفك أهل الافتراء الملعونون بلعائن الله...٢٢

الفصل السادس: من المبرءة مارية القبطية أم عائشة؟..........٢٥

الفصل السابع: في نقد الروايات العامية وتقييمها وإخضاعها للبحث...٣٤

القسم الخامس عشر : فهرس الفصول والمواضيع..............٦١

الفصل الأوّل: متون الآيات ٦٥

الفصل الثاني: إيضاح خاص بسورة النساء.....................**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**

توضيح المطلب: ٧٩

خلاصة المطلب: ٨٦

التحقيق في مفردتي «الجبت» و«الطاغوت»..................**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**

نزول الآيات ٦٠ ـ ٧٠ من سورة النساء.........................٨٨

في المنافقين المحترفين......................................٨٨

البحث في الآيات ٧١ ـ ٩١ من سورة النساء.....................٩٩

وأنها نزلت في المنافقين المحترفين............................٩٩

زيادة إيضاح: ١٠٥

النكتة الأولى: ١٠٩

زيادة إيضاح: ١١٠

النكتة الثانية: ١١٤

توضيح ذلك: ١١٤

الفصل الخامس ١١٨

النكات الملاحظة في الآيات ١٠٥ إلى ١١٦......................١١٨

من سورة النساء تدل على نزول تلكم الآيات.....................١١٨

في المنافقين المحترفين أيضاً...................... ......١١٨

الفصل السادس..١٢٧

النكات الملاحظة في الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ ....١٢٧
من سورة النساء تدل على أنها أيضاً نزلت..................١٢٧
في المنافقين المحترفين...................................١٢٧
توضيح ذلك: ١٢٨
الفصل السابع...١٣٤
استنباط النتيجة وأخذها من الآيات التي بحثت.................١٣٤
في هذا القسم من الكتاب «القسم الخامس عشر».............١٣٤
القسم السادس عشر......................................١٣٨
فهرس الفصول والمواضيع: ١٤٠
المقطع الأول.......................................**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**
متون آيات سورة محمد: ١٤١
الفصل الأول...١٤٤
بيان حول سورة محمد وزمان نزولها......................١٤٤
الفصل الثاني..١٤٧
تحقيق الآيات ١٠ إلى ١٩ من «سورة محمد» وبحثها.....١٤٧
الفصل الثالث..١٥٣
تحقيق الآيات من ٢٠ إلى ٣١ من سورة محمد..............١٥٣

وبحثها وإثبات الروابط السياسية............................١٥٣
بين المنافقين المحترفين و «كفار قريش»....................١٥٣
الفصل الرابع..١٦٩
تحقيق حول النظام التركيبي للآيات ٢٠ إلى ٣١..............١٦٩
من سورة محمد(ص)...١٦٩
الفصل الخامس ١٧٢
بحث الآيات ٣٢ إلى ٣٥ من سورة محمد وتحقيق التكليف المختص بالمؤمنين قبال المنافقين المحترفين...................١٧٢
الطائفة الأولى:..١٧٤
الطائفة الثانية:..١٧٤
القسم السادس عشر:الاتصال السياسي بي المنافقين المحترفين والعاديين..١٧٩
المقطع الثاني..١٨١
فهرس الفصول والمواضيع: ١٨١
متون الآيات من سورة المجادلة: ١٨٢
الفصل الأول...١٨٤
تحقيق موجز في الآيات المتصلة..............................١٨٤
بموضوع الظهارمن سورة الأحزاب...........................١٨٤
الآيات الأولى: ١٨٤

تحقيق الآيات الأربع الأول من سورة المجادلة...............١٩٢

التي ترتبط بإلغاء أحكام الظهار الجاهلية..................١٩٢

تحقيق الآيات ومعنى المحادة والنجوى.......................١٩٧

الصلات السياسية بين المنافقين المحترفين والعاديين ٢١٩

لفظ حزب الله وصلةهذا اللفظ بموضوع التبري في الاصطلاح
الخاص بالقرآن المجيد...٢٢٦

القسم السادس عشر...خطأ!
الإشارة المرجعية غير معرّفة.

المقطع الثالث...٢٣٢

البحث في سورة المائدة......................................خطأ!
الإشارة المرجعية غير معرّفة.

متن الآيات ٥١ إلى ٥٦ من سورة المائدة.................٢٣٥

بحث الآيات الثلاث الأولى (٥١ إلى ٥٣)...................٢٣٥

من الآيات مورد البحث ٢٣٥

بحث الآية الرابعة (آية ٥٤)...................................٢٤٠

في إثبات المحبوبية الذاتية للأئمة...........................٢٤٠

المعصومين وتطبيقها على آية (التوكيل) (آية ٨٩) سورةالأنعام
....٢٤٠

في تحقيق «آية الولاية»..٢٥٥

وهي الآية الخامسة من مجموع الآيات التي يراد............٢٥٥

بحثها وإيجاد المصداق الواقعي لها...........................٢٥٥

الروابط السياسية بين المنافقين وأهل الكتاب...............٢٦٢

متون الآيات:.. ٢٦٢

تذكر: ٢٩٦

تحقيق حول صلح الحديبية وبيعة الشجرة..................٢٧٠
المقطع الأوَّل: ٢٧٠
فهرس المواضيع: ٢٧١
متون آيات سورة «الفتح»...................................٢٧٢
حديث الحديبية وموضوع «بيعة الشجرة» ٢٧٦
بيعة الشجرة وعلاقتها بالمنافقين المحترفين ٢٩٣
تغيير موضع سورة الفتح بين سورة محمد وسورة الأحزاب
....٣٠٢
تحقيق الآيات الأولى من سورة الحجرات.................٣٠٣
وبروز وجوه المنافقين المحترفين في هذا التحقيق............٣٠٣
متن الآية الشريفة «والسابقون الأولون» ٣١٢
مفهوم بعض المصطلحات القرآنية...........................٣١٣
مفاد آية «والسابقون»...٣٢٤
ختام تحقيق الآية الشريفة «والسابقون الأولون ...» والحصول على مصاديقها الحقيقية والواقعية...................................٣٢٦
شواهد أخرى من الآية نفسها «والسابقون السابقون...» على استحكام دقة النظر الأخير ٣٣٣
توضيح ما تقدم: ٣٣٩
استحضار نكتة راجعة إلى الألفاظ المستعملة.......................٣٤٣
في آيات القرآن المجيد..٣٤٢
في بحث آيات «سورة التوبة» ٣٤٦
الفصل الأول...٣٤٦
البحث الذي يرجع إلى بيان «آخر ما نزل من السور»......٣٤٦
متون الآيات من ١ إلى ٣٧ من سورة التوبة.......................٣٥٤
المرتبطة بالبراءة من المشركين...٣٥٤

بحث الآيات التي تعلق بها غرض البحث وتحليل مسألة ردّ أبي بكر من إبلاغ «آيات البراءة» وإقامة علي (ع) مكانه............٣٥٨

تحقيق الآيات ذات الصلة « بغزوة تبوك » وسرا ستخلاف ٣٧٥

علي بن أبي طالب(ع)على المدينة...............................٣٧٤

إيضاح لابد من هي تعرض لذكر علل النفاق الأصلية......٣٩٦

بحث الآيات من سورة التوبة......................................٣٩٨

المرتبطة ببيان علل النفاق العادية................................٣٩٨

بحث الآيات ٦١ ـ ٧٤ من سورة التوبة............................٤١٠

والتعرف على «واعقة العقبة»....................................٤١٠

بحث الآيات السبع من آخر سورة التوبة وبيان التكاليف....٤٤١

الخاصة بالمؤمنين في قبال المنافقين المحترفين...............٤٤١

البحث الخاص بالنظام التركيبي لآيات سورة التوبة وسر اتصالها بسورة الأنفال ٤٥٠

فهرست الموضوعات ٤٥٨